القرآن الكريم

فى أدب نجيب محفوظ

دراسة معجمية تحليلية

مصطفى بيومى



دار الاحمدى للنشر



القرآن الكريم في أدب نجيب محفوظ

دراسة معجمية تحليلية

مصطفى بيومي

دار الأحمدي للنشر
القاهرة : ١٥ شارع عبد الخالق ثروت . تليفاكس : ٥٧٥٨٠٩٨
المنيـــا : ٧٣ شارع طـــه حسين . تليفاكس : ٣٤٧٨٠٢
الطبعة الأولى : يناير ١٩٩٩

رقم الإيداع : ١٧٤٣ / ٩٩
الترقيم الدولي : 1 - 15 - 5887 - 977

إلى روح أبى ..
على أحمد بيومى
بعض بعض فضله يعود إليه
م . ب

مقدمة

يتسع عالم نجيب محفوظ للكثير " عن " القرآن وللكثير " من " القرآن .

وتقع دراستنا هذه في قسمين : القسم الأول تمهيد يتوقف عند ما يتضمنه أدب نجيب محفوظ " عن " القرآن ، والقسم الثاني دراسة للمعجم القرآني ، المباشر وغير المباشر، بترتيب المصحف . بدءا من " بسم الله الرحمن الرحيم " و " الفاتحة " ، وانتهاءاً بآخر سورة قرآنية تركت أثرا في أدب نجيب محفوظ : " الفلق " ؛ وهو القسم الذى يدرس ما في عالم الكاتب الكبير " من " القرآن .

التمهيد يتناول عمومية الموقع القرآنى من خلال المحاور التالية : مكانة القرآن – صورة قارئ القرآن – القرآن والموت – تعليم القرآن – القرآن حاميا – القرآن والسياسية – تفسير القرآن – القرآن والإعلام – القسم بالقرآن – نهاية المطاف – القرآن والفكاهة .

أما متن الدراسة المعجمية فيرصد ويحلل كل ما ورد من إشارات قرآنية في عالم نجيب محفوظ ، والمأمول أن يكون التمهيد مدخلا مفيداً للتواصل مع متن الدراسة ، وأن يكون المتن دليلاً على صحة ما ورد في التمهيد والبرهنة عليه .

القرآن الكريم هو كتاب العربية الأول في كافة العصور، ولا يملك كاتب عربى إلا أن يتأثر به ويفيد منه ويعبر – وإن لم يكن واعيا قاصداً – عن مكانة القرآن العظيمة وخطورة تأثيره في الواقع المعيش بأحداثه وبشره .

لا تستهدف دراستنا هذه الدفاع عن نجيب محفوظ وإظهار إسلامه وإيمانه ، فهو في غنى عن دفاعنا ، وهو ليس متهماً في دينه إلا عند طائفة من المتعصبين المرضى بداء التكفير .

الهدف الأساس هو إثبات العلاقة التفاعلية التبادلية بين القرآن الكريم والواقع اليومى كما ينعكس في إبداع كاتب في حجم وقامة نجيب محفوظ ، وهو كاتب يستقى مادته من الحياة مقدماً خير شهادة عنها . ومثل هذه العلاقة إن صحت – ولابد أن تصح – تؤكد أن حياتنا تتسع للدين والدنيا معا، وأنه لا تناقض بينهما ولا عداء .

إذا نجحت الدراسة في الكشف عن قدر من هذه العلاقة الجوهرية ، وإذا نجحت في إضافة جديد عما كتب عن نجيب محفوظ وعالمه الثرى ؛ فإن هذا هو النجاح بعينه . وكل فشل أو تقصير سيكون مرده إلى عظيم الطموح الذى لا يملك الباحث من القوة والحيلة ما يحقق به المأمول كله .

مصطفى بيومى
المنيا : أكتوبر ١٩٩٨

القسم الأول

تمهيد

مكانة القرآن

يحلم كمال عبد الجواد فى مطلع حياته الثقافية أن يؤلف كتاباً لا يعرف شيئا عن موضوعه ومحتوياته : وسيكون مجلداً ضخماً فى حجم القرآن الكريم وشكله ، وستحدق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك ، ولكن عم يكتب؟ ، ألم يحو القرآن كل شئ ؟ لا ينبغي أن ييأس ، ليجدن موضوعه يوماً ما ، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه . " قصر - ٦٦ " .

على المستوى الشكلى يتجلى تأثير القرآن الكريم على كمال الحالم بكتاب يستعير من القرآن حجمه وشكله ، وعلى المستوى الموضوعى لا مشكلة تواجه المؤلف المنتظر إلا البحث عن موضوع لم يتطرق إليه القرآن الذى حوى كل شئ .

ولأنه يحوي " كل شئ " بمفهوم كمال الذى يغفل أنه قرأ عشرات ومئات الكتب غير القرآن ! ، فإن صدمة الشاب المتحمس تكون بحجم الإيمان عندما يصطدم فى رحلته الثقافية بعالم الأحياء الانجليزى تشارلس داروين ونظريته عن النشوء والارتقاء ، وهي نظرية معارضة للدين والقرآن : وقال لنفسه مرة وعشرا .. القرآن إما أن يكون حقاً كله أو لا يكون قرآنا . " نفسه - ٣٧٠ " .

انتقال سريع - وبالحماس نفسه - من الإيمان إلى الإلحاد ، وتصور صارم عن القرآن الحاوى لكل شئ دون مراعاة أن الكتاب المقدس ليس معنياً بتفاصيل التفاصيل ، فهو منهج شامل وليس دراسة متخصصة في علم من العلوم أو فى العلوم جميعا .

القرآن حق كله ، والمشكلة في إدراك البشر لحقائق الحياة حتى يتسنى لهم مزيد من الوعي بالحقيقة القرآنية . النظرية العلمية تبقى نظرية لا عصمة لها ولا يقين فيها، ولا ينبغي لها أن تزلزل الإيمان وتؤدى إلى الكفر . النظرية التى هزت كمال عبد الجواد لم تؤثر بشئ فى الذين يؤمنون ببساطة دون تعقيد . وإذا قيل إنهم من العوام الذين يجهلون العلم وشئونه، فإن إيمانهم قد يكون مطمعاً للواقفين على شاطئ العلم دون إجادة للسباحة في بحوره .

لا علم عند أحمد عبد الجواد وأمينة والديّ كمال بداروين ونظريته ، ولكن إيمانهما لا تشوبه شائبة قلق ، ويقينهما بصدق القرآن لا يتعرض للشك والاهتزاز.

يقول أحمد عبد الجواد :

- عندك حقيقة لا شك فيها ؛ وهى أن الله خلق آدم من تراب ، وأن آدم هو أبو البشر ، هذا مذكور فى القرآن ..

وتقول أمينة :

– ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن ، قل لهذا الإنجليزي الكافر : إن الله يقول في كتابه العزيز : إن آدم هو أبو البشر .. " نفسه ـ ٣٧٢ ".

سذاجة الإيمان والجهل أم معاناة الكفر والثقافة ؟! .

لايتحتم الإختيار بينهما ، والبديل الأفضل هو الجمع بين الدين والدنيا ، بين القرآن والعقل. ليس الأمر ميسوراً ولا مستحيلاً ، ولكنه يحتاج الى طراز خاص من البشر الذين " يمارسون " و " يطبقون " بلا افتعال أو ادعاء .

محتشمي زايد لا يختار بين الدين والدنيا ، فهو يجمع بينهما ببساطة أخاذة : يهمني القرآن والحديث كما يهمني الإنفتاح وكما تهمني لقمة المدمس بالزيت الحار والكمون والليمون . " يوم ـ ٨ " .

والطفل – الراوى فى قصة " المهد " يحقق المزيج نفسه : أما مسرة الأذن فحديثها يطول. تنهمر من الأفراح والليالى الملاح والفونوغراف مرددة تلاوة المقرئين وطقاطيق العوالم وأغانى .. ولكل مسرة موضع تعيش فيه وتبقى . " القرار ـ ١٢ " .

هذه هى الصياغة المثلى : لكل مسرة موضع تعيش فيه وتبقى .

للقرآن وقت ، وللأغانى وقت . الحياة لا تنفى الدين ، والدين لا يفسد الحياة.

إذا كان كمال عبد الجواد عاطفيا متطرفا فى إيمانه وكفره ، فإن العجوز المجرب – الذى عرف الإلحاد والشك واللاأدرية فى مراحل عمره المتعاقبة – والطفل البرئ الذى يتعامل بالفطرة والإحساس الصادق ، توسطا فانسجما .

الجمع بين القرآن والغناء شئ، والتفريط فى الدين إلى درجة الإهمال والانكباب على الدنيا إلى درجة الإفراط، شئ آخر .

عز عبد الباقى يعانى من فراغ طويل ، ولا يقرأ بدافع الحب إلا القرآن والقصص البوليسية. " عصر ـ ٤٣ " .

وسرعان ما يتخلى عن القرآن وينغمس فى القصص البوليسية وحدها . بعدها يندفع بكليته إلى هاوية لا ينسجم القرآن معها ولا تتسع له . مثل هذا التفريط المخل نجده فى قصة " تيزة أم عزيز " حيث يجمع عزيز بين متناقضات تفضى به إلى التمزق : يدخن ماتوسيان ويفسر القرآن وفى بعض ليالى السمر يشرب الويسكى ويغنى ولا يفوته فرض . " القرار ـ ٥٤" .

لا تشكيك فى إيمانه ولا حجر على حريته، ولكن الويسكى لا يتجانس مع القرآن، والمصير الحتمى هو السقوط فى دوامة الإفلاس الروحى والمادى معا!.

في عالم نجيب محفوظ استيعاب شامل للمكانة التى يحتلها القرآن الكريم فى الواقع المصرى . كتاب مقدس يبجله ويحترمه بشر لا يمتون إلى القداسة بصلة ، ولكنهم فى مواجهته يتنبهون ويعرفون قواعد التعامل التى يمليها العرف الاجتماعى الموروث والمكتسب.

لا علاقة حقيقية لسرحان الهلالى بالدين ، ولكنه كصاحب ومدير فرقة مسرحية ينبه صديقه الممثل طارق رمضان إلى خطأ فاحش :

– ولحنت فى آية وهو شئ لا يغتفر . " أفراح - ١٨ " .

ليس الخطأ - غير المقصود - في القرآن مما يقبل الغفران .ومن الذى لا يغفر ؟ المجتمع كله.

وفي حياة أحمد عبد الجواد ممارسات كثيرة مخالفة للدين ، ولكن يقف أمام القرآن خاشعاً خائفاً ويأبى أن يستشهد في مساجلته مع ابنه بآية لا يحفظها وإن كان واعيا بمعناها : يخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا لا يغتفر، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه . "بين - ٤٠١ " .

الحديث ثنائى لا علنى ، ولن يعرف أحد بالخطأ الذى قد يقع فيه ، والخوف من " الذنب " الذى سيطوله وإن جهله الناس . الخوف هنا من الله وليس من المجتمع ، وهو خوف أكثر أهمية لأنه يكشف مدى تغلغل وتأثير وقداسة النص القرآنى عند عامة المسلمين.

حتى استغلال القرآن واستثماره لأهداف ومصالح شخصية يكشف عن خطورة وعظمة التأثير فى الحياة الاجتماعية .

واحد من تلاميذ عالم التراث عباس فوزى يستغل ثقافته التراثية فى تأليف كتب دينية عن النبى والقرآن ، ويربح من ذلك أموالا خيالية . " المرايا - ٢٣٦ " .

الربح الخيالى نتيجة لزيادة التوزيع ، وليس هذا التوزيع إلا دليلا على أهمية وانتشار كل ما يمت إلى القرآن بصلة .

وهل أدل على مكانة القرآن فى المجتمع من ذلك الاعتزاز البالغ الذى يظهره العاديون من الناس بما يعتقدون أنه علاقة وثيقة تربطهم بالقرآن ؟!.

كان أبو أمينة شيخاً من العلماء الذين فضلهم الله – لحفظهم القرآن – على العالمين. " بين – ٦٢ " ..

لقد فضله الله فكيف لا تجلّه أم أمينة وتفخر به ؟. الأم ابنة رجل من حملة كتاب الله ، وزوج رجل آخر من حملة الكتاب : سما أبوها ومن بعده زوجها إلى مكانة رفيعة

من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة ، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله في صدريهما. " نفسه ــ ١٩٩ " .

ويفخر الشيخ عفرة بمهنته كمعلم قرآن وانتمائه إلى بيت : خدمة القرآن شرفه وعزته . " الحرافيش ــ ١٠ " .

القرآن الكريم نور الحياة للبسطاء الذين لا ينشدون في حياتهم إلا الأمان والسلامة ويتطلعون إلى آخرتهم مسلحين بالإيمان والقرآن .

إن القرآن يصاحب المسلم ويسكنه ، ولا يمر يوم في حياته إلا ويرتله في مناسبات مختلفة وفي صلاته المفروضة .

بالمحفوظ من القرآن يمارس بعض شخوص نجيب محفوظ تلاوة سرية باطنية تعبر عن درجة إيمانهم ومدى رغبتهم في التواصل الدائم مع القرآن .

في انتظار بداية العمل يقف جميل الحمزاوي ، وكيل أحمد عبد الجواد في الدكان ، تالياً ما يتيسر له من الآيات في صوت باطني غير مسموع دلت عليه حركة شفتيه المستمرة ، ووسوسة خافتة تند من آن لآن عند أحرف السين والصاد. "بين ــ ٣٦ " .

وفي انتظار جمع الأقساط الشهرية من الموظفين ، يقف بائع السمن في قصة " دنيا الله" : وشفتاه تتحركان بتلاوة مستمرة . " دنيا ـ ٨ "

وعم عمارة الجعفري البواب في قصة " أمشير " يجلس عادة على أريكته امام بوابة القصر: هادئ النظرة تتحرك شفتاه الغليظتان بتلاوة غير مسموعة . " الشيطان ـ ٥٠ ".

وإذ يدعو نور الدين أمه كليلة الدمر ، تأتيه عجوز متحركة الشفتين بتلاوة غير مسموعة . " ليالي ـ ٩٧ " .

عامل في دكان وبائع متواضع وبواب سراي وامرأة عجوز متهالكة ، جميعهم بسطاء المكانة الاجتماعية ويتمثل إيمانهم العفوي في التلاوة السرية التي تحقق لهم التواصل والتوازن مع الحياة المليئة بالتعب .

ولأن الصلاة لا تتم بغير قرآن ، فإن الكثيرين يقتصرون في حفظهم على السور القصيرة التي يقيمون بها الصلاة .

في زيارة الشكر التي يقوم بها أحمد عبد الجواد للمسجد الحسيني بعد شفائه من المرض، يتلو ما تيسر من السور القصار التي يحفظها .. " قصر ــ ٤٥٥ " .

وهو لا يحفظ من القرآن إلا السور القصيرة التي يتلوها في صلواته . "بين – ٤٠١ "

وزوجة فؤاد أبو المجد فى قصة " كلمة فى السر " تتلو بعض السور القصار التى تقيم بها صلواتها الخمس . " بيت ـ ٨٠ "

وبيومى سائق الكارو لا يرى وظيفة للكتاب إلا أن يحفظ ابنه عثمان من القـرآن مـا يقيم به الصلاة . "حضرة ـ ١٣ " .

وراضية معاوية القليوبى لا تتجاوز معرفتها الدينيـة الصـلاة والصـوم وبعـض السـور الصغيرة. " حديث ـ ٩٠ " .

السور الصغيرة ميسورة الحفظ ويصعـب نسـيانها ، والدليـل علـى ذلـك أن عاشـور الناجى ينسى ما حفظه من القرآن : فلـم تبـق لـه إلا السـور الصغـيرة التـى يتلوهـا فـى الصلوات . " الحرافيش ـ ٢٦ " .

المسلم يصلي خمس مرات في اليوم ، وفي كل صلاة يردد القرآن فكيف لا يؤثر فـي حياته وفي نظرته إلى حيوات الآخرين ؟!.

صورة قارئ القرآن

إذا كان كل المسلمين قادرين على قراءة القرآن ومطالبين بذلك ، فإن طائفة منهم تمتهن القراءة وتحترفها مقابل أجر . بعض هؤلاء القراء من " نجوم " المجتمع ومشاهيره ، والغالبية منهم تقبع في قاع السلم الطبقي .

الأشهر والأهم في عالم نجيب محفوظ هو الشيخ علي محمود ، قارئاً للقرآن الكريم ومنشداً للتواشيح الدينية والمدائح النبوية ومؤذناً ساحر الصوت له عاشقوه المتيمون به .

الآذان بصوته أجمل ما تسمع الأذن – مع غناء عبده الحامولي وأم كلثوم – عند مدمن المخدرات الذى لا يفيق ، المعلم زفتة " خان – ١٤٤ " .

وهو من علامات ورموز حي الحسين ، وليلته السنوية التي يحييها في المسجد الحسيني مما يؤرخ به . " المرايا - ٢٢٣ " .

وثمة صداقة وثيقة تجمع الشيخ بأحد أهم أبطال نجيب محفوظ ، وهو عامر وجدى . " ميرامار - ٢٣ " .

ولكن الغالب على وجود الشيخ عند نجيب هواء إبداعه الفني أكثر من مكانته كقارئ قرآن [١] .

ومن نجوم التلاوة الشيخ الشعشاعي ، الذي يشارك في سرادق العزاء الذى يقيمه صادق صفوان بعد وفاة أبيه . " قشتمر - ٧٤ " .

القاعدة السائدة عن نجيب محفوظ أن " كبار " القارئين يشاركون في المناسبات الخاصة بـ " كبار " القوم من الأغنياء والأعيان .

في أوائل الأربعينيات يحدث كمال أفندى خليل عن ليالى رمضان قبل ربع قرن من حديثه : وكيف كانت بيوت السراة تظل مفتوحة طوال الليل تستقبل القاصدين ، وتستقرئ مشاهير المقرئين حتى مطلع الفجر . " خان - ٨٠ " .

وينتبه كمال عبد الجواد إلى المفارقة بين استهتار الشقيقين حسين وعايدة شداد بالدين وفروضه واحتفاء الأسرة بشهر رمضان : أنوار تضاء ، قرآن يتلى في بهو الاستقبال ، المؤذنون يؤذنون في السلاملك .. " قصر - ٢١٦ " .

وفي قصة " أم أحمد " يتذكر الراوى تجاور الطبقات وتجاوز الفوارق الطبقية في الحارة التي شهدت طفولته ، والسرايات التي كانت تفتح أبوابها لأهل الربع في

---

[١] للمزيد من التفاصيل عن موقع الشيخ علي محمود في عالم نجيب محفوظ ،راجع دراستنا : " معجم أعلام نجيب محفوظ ..دراسة تحليلية " ، دار الأحمدى للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ط١ . ص ص ٢٠٨ - ٢٠٩

رمضان والأعياد، يجلسون في الحديقة ، ويأخذون حظوظهم من اللحوم والكعك ويستمعون لتلاوة القرآن من كبار القارئين . " صباح - ٩ " .

العائلات الكبيرة وحدها ، لأنها ثرية ومستطيعه ، هي القادرة على الاستعانة بالكبار والمشاهير من قراء القرآن . الطبقية في المجتمع ، والطبقية أيضا في صفوف القراء الذين ترتفع أجورهم بعلو مكانتهم وإتقانهم لفنهم .

علي محمود والشعشاعي وأمثالهما من النجوم ينتمون إلى الطبقة العليا من القراء ويعملون في خدمة الطبقة العليا في المجتمع ، أما الطبقة الوسطى فينتمي إليها أشباه الشيخ محمد كناشة. قارئ محترف للقرآن الكريم : لا هو من المشاهير مثل علي محمود وإسماعيل ندا ، ولا هو أيضا من قراء المواسم في القرافة . ولكن في منزلة متوسطة ضمنت له رزقا لا بأس به . " نفسه - ٩٢ ".

الغالبية العظمى من القارئين تنتمي إلى القاع .

عيسى الدباغ يستعين بقارئ يتلو على روح أمه في المنزل ، وهو موصوف بأنه مقرئ من الدرجة الثالثة . " السمان - ١١٢ " .

ماتت أم عيسى بعد زوال مجد ابنها وضياع نفوذه ، ولو أنها ماتت قبل ذلك لكان القارئ من الدرجة الأولى !.

وليست الدرجة الثالثة هي الدرجة الأخيرة ، فبعدها درجات . وإلا ففي أي مكان نضع القارئ الضرير الذي ينقده عثمان بيومي أجراً لايزيد عن نصف قرش؟!. "حضرة - ٢١ " .

القرآن الكريم مقدس وجدير بكل الاحترام والإجلال ، أما قراء القرآن فلهم شأن آخر.

في قصة " كلمة غير مفهومة " يظهر الشيخ درديري : مقرئ ضرير ، يتعيش من التلاوة في المقاهي والغرز وتروج " سوقه " في المواسم ! .

وعندما يعلن الشيخ أنه يعرف مكان ابن حسونة ، غريم الفتوة الجبار : حاز في ثوان أهمية لم يحظ بعُشر عُشرها طيلة عمره البالغ الستين . " خمارة - ١١ " .

إذا توقفنا عند المفردات الدالة في المتتبس السابق لأدركنا أنه لا تناقض على إلا طلاق بين عظمة القرآن الكريم وضالة محترفي القراءة : " يتعيش من التلاوة " ، " المقاهي والغرز "، " تروج سوقه " ، " لم يحظ بعشر عشرها " .

مهنة للرزق تخضع لقوانين السوق وذات عائد مادي محدود ، وبالمقاييس الاجتماعية الاقتصادية لامكانة لأصحاب هذه المهنة ، ذلك أن الجميع يتعاملون مع " الشخص"

دون " مادة " عمله ! .

وعندما يتطوع درديرى لخدمة الفتوة ويركب عربته ، فإنه لا يجد له مكانا إلا عند الأقدام!. " نفسه ـ ١٣ " .

لا مكان له ـ لدونية مكانته ــ إلا تحت الأقدام !. القرآن مقدس ومبجل ومحترم، أما القارئ الذى " يسترزق " ويبحث عن " سوق " فمجرد صاحب مهنة .

الشيخ درديرى عجوز في الستين ، وضرير ، وذو مكانة حقيرة ؛ وهو بذلك يمثل النموذج التقليدى السائد للقارئ المتواضع الأكثر شيوعا فى الواقع الاجتماعى وفى عالم نجيب محفوظ معا .

والشيخ طه الشريف في قصة " زيارة " نموذج مشابه للشيخ درديرى ، فهو ضرير عجوز عليل ، وهو لا يجد حرجا من الشكوى والاحتجاج على " المنافسة " غير العادلة التى يمثلها الراديو : جرت مشيئة الله بأن يقطع الراديو أرزاقنا ولكن الله لا ينسى عبده. " نفسه ـ ١٧٢ ".

وهل أدل على تدهور المكانة الاجتماعية من ان الخادم عدلية – ومكانة الخادمات لا تحتاج إلى توضيح – تقول لسيدتها بعد انصرافه :

– ولكنه رجل قذر يا ستى !

وإذ تدافع عنه السيدة – وهى فى الحقيقية تدافع عن نفسها وتاريخها – تواصل الخادم حملتها الانتقادية بقولها :

– لقد رأيت قملة على جبته يا ستى .. " نفسه ـ ١٧٥ " .

حتى الخادم تتأنف منه وتشكو من قذارته ! .

على من " يُعطف " القارئ المتواضع عند نجيب محفوظ ؟!. إنه محسوب على الشحاذين والرعاع ! .

فى الحكاية الثامنة من " حكايات حارتنا " ذكريات للراوى عن مواسم القرافة فى طفولته: ثم تتم المسرات بمراقبة المقرئ الضرير وجماعات الشحاذين المتكالبين على الرحمة . " حكايات ـ ٢٠ " .

وفى قصة " جوار الله " لا يملك عبد العظيم أفندى شلبى خبرة كافية لمواجهة الطقوس المصاحبة للموت ، ويكتفى بمتابعة قريبه الحاج مصطفى : وهو يساوم الترابى وينفح السقاء بشئ من الجود ، وكذلك المقرئين ، وارتفع صوته الجهير وهو يزجر الطامعين بغلظة . " دنيا ـ ٤٧ " .

وفى قصة " الخوف " يذوب القارئ الأعمى فى نسيج شعبى لا يتميز فيه عن بائع الكبدة ونادل القهوة وغيرهما من أصحاب المهن المتواضعة . " بيت ـ ٩٨ " .

أليس منطقيا اذن ألا ينجو هؤلاء من التنكيت والتنكيت والسخرية اللاذعة ؟!.

فى ثورة من ثورات غضبة يقول المعلم كرشة لابنه حسين الطموح إلى الزواج من " بنت ناس طيبين " :

– ولماذا لا تتزوج بنت كلب كما فعل أبوك ؟! .

فتتأوه أم حسين قائلة :

– الله يرحمك يا أبى كنت فقيهاً وقوراً .

فيلتفت نحوها بوجهه المربد ويقول :

– فقيه !.. كان قارئ قبور ، يتلو السورة بمليمين ! .

فتقول المرأة متوجعة :

– كان يحفظ كلام الله وكفى .. " زقاق ـ ١١٣ " .

قارئ قبور يتلو السورة بمليمين !، وبسبب مهنته المتدنية ومستواه الاقتصادى المتواضع فهو لا يستحق الاحترام عند المعلم كرشة ولا يحظى بدفاع حار من ابنته التى تسلم بضآلته وترفع من شأنه ـ قليلاً ـ لأنه حافظ لكلام الله و"كفى ! .

وقبل أن نندهش من سخرية كرشة وهو الفاسد الشاذ جنسيا ذو السمعة السيئة، ينبغى أن نلتفت إلى " ترفع " زيطة صانع العاهات من تشبيهه بقارئ القرآن على القبور!. فإذ يخاطبه زبون من طالبى العاهات بيا " أستاذ " ، يغضب زيطة ويصيح به محتدا :

– أستاذ ؟!.. أسمعتنى أقرأ على القبور ؟ .

فدهم غضبه الرجل ، وبسط راحتيه مستعطفا وقال بصوت منكسر :

– معاذ الله.. ما قصدت إلا تبجيلك .. " نفسه ـ ١٢٢ " .

كلمة " الأستاذ " لا تحمل شبهة التهكم أو الاستهانة، والمقصود بها هو الاحترام والتبجيل، ولكن زيطة يربط بين الكلمة وقارئى القبور فيحتج غاضبا من " فكرة " و" شبهة " مقارنته بهم أو وصفه بصفة تطلق عليهم ! .

المعلم الشاذ يشتم ويسخر ، وصانع العاهات يتعالى ويترفع ، والعالمة زبيدة تزدرى وتتأفف من صوت أم كلثوم مستعينة على ذلك باستدعاء هيئة القارئين وأصواتهم :

– فى صوتها شئ يذكر بالمقرئين ؛ كأنها مطربة بعمامة !." قصر ـ ٤٣٨"

لا احترام لصاحب المهنة ولا مكانة له ، ولكن المهنة نفسها ضرورية لاغنى عنها بوظائفها المتعددة التى تشكل ملمحا جوهريا وعنصرا مألوفا فى حياتنا اليومية .

لا يكتمل الموت ـ طقساً اجتماعياً ـ إلا بوجود سرادق العزاء وقارئ القرآن فيه . هذا ما فعله صادق صفوان الذى استعان بالشيخ الشعشاعى ، ويفعله العشرات غيره . وهذه الحاجة ضرورة تبدأ فى القبور قبل السرادقات والبيوت .

بعد وفاة السيد أحمد عبد الجواد تجتمع أسرته حول قبره : وتنوح خديجة حتى ينال منها الإعياء ثم تؤمر بالسكوت تأدبا لاستماع القرآن . " السكرية ـ ٢٧٤ ".

الإحترام مطلوب للقرآن ، والإجتماع الأسرى لا يكتمل بمعناه بمعزل عن القراءة والقارئ. بهذه القراءة يرقد الموتى فى سلام : ويتلقون من الزيارة والتلاوة أنسا ورحمة. " القرار ـ ٩ " .

والتلاوة الجماعية من المحترفين هى ما يتنحى عيسى الدباغ جانبا حتى لا يسمعها من شدة التأثر عند دفن أمه . " السمان ـ ١١١ " .

وهى التلاوة نفسها التى يستمع إليها عبد العظيم أفندى فى قصة "جوار الله ": منبعثة من صوت كئيب كأنما تنبعث من خزانة للأحزان . " دنيا ـ ٤٦ " .

لا تقتصر القراءة القرآنية – فردية أم جماعية – على القبور وحدها ، ففى سرادقات العزاء وبيوت الموتى تستمر القراءة استنزالاً للرحمة وطلبا للمغفرة فضلا عن " الواجب " الاجتماعى!.

فى الحلم يستمع سعيد مهران إلى قرآن يُتلى ، فيوقن أن شخصا قد مات . " اللص –٨٤ " .

ويكمن بيومى فى قصة " قاتل " ، لتنفيذ حكم الإعدام ـ كقاتل أجير ـ فى الحاج عبد الصمد الذى يؤدى واجب العزاء ، ومن مخبأه تترامى إليه التلاوة من سرادق العزاء. " دنيا – ٩٤ " .

وفى دار المناسبات يستمع محتشمى زايد إلى التلاوة وهو يؤدى واجب العزاء فى آخر أصدقائه . " يوم ـ ٦٥ " .

ضرورة لا غنى عنها ، حتى أن لوحة " الهجر " فى " أصداء السيرة الذاتية " تبدأ على النحو التالى :

– لم أشعر بأنه مات حقا إلا فى مأتمه .

شغلت المقاعد بالمعزين وتتابعت تلاوة القرآن الكريم . " أصداء ـ ٤٧"

لقد مات الميت بطبيعة الحال قبل السرادق والتلاوة ، ولكن هذه الممارسة الطقسية الاحتفالية هي التأكيد الاجتماعي والإشهار " الرسمي " لحالة الموت ! .

وتنتقل القراءة إلى البيوت حيث تمثل جزءا من طقوس الموت التي يعددها الحاج مصطفى في قصة " جوار الله " : فإذا قضى الله قضاءه سأحضر المغسلة ، ثم نكفنها وندفنها ولو آخر النهار ، أليس إكرام الميت دفنه ؟ وأنت يا عبد العظيم أفندى لا تحب وجع الدماغ ولا الكلام الفارغ ، بعد ذلك نجئ بمقرئ فيقرأ سورتين هنا في حجرتها.. " دنيا ـ ٣٧ " .

تغسيل الميت وتكفينه ودفنه والقراءة على روحه ؛ منظومة متكاملة مسلسلة يحفظها الرجل العملي عن ظهر قلب ويتخلص بها من الموت والميتة ليفرغ للحياة والأحياء ! .

طقوس مرعية تبلغ من القوة والانتشار إلى الدرجة التي لا يتخلى عنها شخص " بلا دين" مثل صابر الرحيمي وهو يودع أمه " القوادة " : هذا صوت القرآن يتلى في غرفة المرحومة . " الطريق ـ ١٦ " .

مخالفة هذه " التقاليد " شذوذ يستحق الإدانة ويثير الدهشة ويشكك في حب الأحياء لمن مات من الأسرة . ولقد كان موت شكرى بهجت بعيدا عن السائد والمألوف في عصره : ونشرت الأسرة نعيه معلنة الاقتصار على تشييع الجنازة . لم يكن ذلك شيئا مألوفا في ذلك الزمان ، ولم يكن ليصرف الأهل والأصدقاء عن زيارة البيت والاستماع إلى ترتيل القرآن . وذهب الجيران للعزاء فوجدوا البيت مغلقا وخاليا من أهله . ودهش الناس لحد الانزعاج ، وعجزوا عن التوفيق بين ذلك السلوك وبين ما عرف عن الزوجين من حب وتوفيق ، وارتفع النقد حتى بلغ كبد السماء . " صباح ـ ٥٩ " .

يقدم الإبن سامح تفسيرا منطقيا وجيها :

– الحزن في القلب لا في السرادق ، نحن لا نؤمن بهذه التقاليد ، وماذا يفعل المعزون سوى أن يتسامروا كأنهم في مقهى ؟!.. من أجل ذلك غادرنا البيت وانفردنا بحزننا في وقار ودون طقوس أو تمثيل .

تبرير عاقل حكيم ، ولكنه لا يقنع أحدا ويجلب إلى الأسرة اتهامات تتراوح بين الجنون والضن بإنفاق " قرشين " تحية لذكرى الرجل . " نفسه ـ ٥٩ ، ٦٠ " .

لا يعترف المجتمع بالموت دون احترام طقوسه ، وفي القلب منها تلاوة القرآن الكريم .

ولا تقتصر قراءة القرآن على الموت وحده ، فهى عادة ملازمة لبعض التجار فى أماكن عملهم ، وموجودة فى الأفراح أحيانا ، ونصادفها أيضا فى الاحتفالات والمناسبات السياسية.

فى قصة " حلم نصف الليل " يتوسع عبده الجزار فى تجارته : وافتتح المحل الجديد بتلاوة من مقرئ حسن الصوت . " بيت ـ ٢٣ " .

أما أحمد عبد الجواد فيأتيه فى الدكان شيخ ضرير للقراءة كل صباح .. "بين – ٣٦ " .

ولا تخلو الأفراح من قراءة للقرآن على سبيل " البركة " كما نجد فى فرح عايدة شداد . " قصر ـ ٣٤٥ " .

ويبدأ المؤتمر الوفدى احتفالا بعيد الجهاد بقراءة ما تيسر من القرآن ، ويتعمد القارئ اختيار آيات تحض على القتال . " السكرية ـ ٤٣ " .

والحفل الانتخابى للمرشح ابراهيم فرحات يبدأ بقارئ يتلو ما تيسر من الذكر الحكيم . " زقاق ـ ١٥٢ " .

عبده القصاب مغتصب لأموال زوجة غنية وابنها اليتيم ، وأحمد عبد الجواد ليس كامل التدين والتقوى بدليل معاقرة الخمر والعلاقات النسائية المتعددة ، وآل شداد غير وثيقى الصلة بالإسلام وتعاليمه وأوامره ونواهيه ، والوفديون يناضلون سياسيا ضد حكم القلية ، وحفل ابراهيم فرحات مسخرة هزلية بما تتضمنه الفقرات من مونولوجست شعبى وراقصة عارية ؛ ولكنهم جميعا " يتبركون " بالقرآن ويستعينون بالقراء المحترفين ثم يمارس كل حياته فى سبيل أهداف وغايات لاعلاقة لها بالدين والقرآن ! .

قد يكون قراء القرآن الكريم – باستثناء الأفذاذ والنجوم منهم – فى قاع المجتمع بلا مكانة أو احترام ، ولكن المهنة نفسها – بمادتها ومحتواها – ضرورة منتشرة فى المآتم والأفراح والبيوت والمقابر والاحتفالات السياسية والدكاكين . ومثل كل مهنة فإنها تضم الكبار والمتوسطين والصغار ، والمعيار فى التقسيم هو مستوى الدخل الذى يحدد بدوره المكانة والمنزلة الاجتماعية.

المهنة قديمة ، نجد حضورها عند نجيب محفوظ فى مرحلة تاريخية مبكرة من خلال الشيخ عدلى الطنطاوى ، قارئ القرآن الضرير فى " رحلة ابن فطومة " ، التى تدور أحداثها فى زمن يصعب تحديده ، ولكنه بالضرورة ليس حديثا أو معاصرا . " رحلة – ١٢ "

وهى مهنة لها تنظيمها " النقابى " ممثلاً فى " رابطة القراء " التى نجد إشـارة لهـا فـى " خان الخليلى " ، حيث يحرص عـاكف أفنـدى الأب علـى شـهود الاحتفـال السـنوى الذى تنظمه الرابطة احتفالا بليلة القدر . "خان ــ ٩٧ " .

و " المواصفات " اللازمة للعمل بقراءة القرآن نجدها بشئ من التفصيل والتحديد فى " الحرافيش " عندما يعلن الشيخ عفرة عن رغبته فى أن يجعل من عاشور النـاجى مقرئـا للقرآن مثله . ويسخر درويش من رغبة شقيقه قائلا :

– ألا ترى أن هيكله الضخم جدير بأن يلقى الرعب فى قلوب المستمعين؟!.

و لم يحفل الشيخ بتعليق درويش ، ولكنه اضطر إلى العدول عن رغبته عندما وضح له أن حنجرة عاشور لا تسعفه بحال ، وأنها عـاجزة عـن تطويـع النغـم ، لا حـظ لهـا مـن الحلاوة والمرونة وكأنها بخشونتها ترن فى جوف قبـو ، فضـلا عـن قصـوره عـن حفـظ السور الطويلة . " الحرافيش –١١، ١٢ " .

الشروط المطلوبة ــ والتى يفتقدها عاشور ــ واضحة : حنجـرة قـادرة علـى تطويـع النغم ، حلاوة الصوت ومرونته ، حفظ كل أو معظم السور القرآنية . إذا غـابت هـذه المواصفات تعذر " الاحـتراف " لأن النفـور سـيتحقق وينصـرف " الجمهـور " ويتبخـر الأمل فى الـرزق والربـح خضوعـا لقوانـين " السـوق " التـى تجـذب " المسـتهلك " إلى الأفضل والأجمل والأجود!

القرآن مقدس مبجل ، ومحترف القراءة إنسـان عـادى – وربمـا أقـل مـن العـادى – لا قداسة له بفضل مهنته . ألا يسخر المعلم كرشة الشاذ ويتأفف زيطة صـانع العاهـات من قراء القبـور ؟!. ألا تتعـالى علـى أحدهـم خـادم متواضعـة مثـل عدليـة ؟!. إنهـم – كغيرهـم من أصحاب المهـن – فئـة غـير متجانسـة أخلاقيـا وسـلوكيا ، وتضـم الصـالح والطالح .

الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية وصنيعه المرأة الشيطانية فى قصة " أهل الهوى "، بدأ حياته قارئا على القبور . ويتهمه عم مخلوف الورع التقى بـالجهل والخـداع كاشـفا عن تاريخه الملوث : ولن تجد عنده رأيا ولا شفاء عدا بعض السـور الصغـيرة التـى كـان يرتلها فى المقابر كلما جاء موسم دون أن يفقه لها معنى .. " رأيت ــ ٤١ " .

يأتى الاتهام العنيف مـن رجـل صـالح يفصـل تمامـا بـين الشـخصية الشـريرة ومـادة عملها، فهو يجل القرآن الكريم عن أن يتمسح به ويدعى الانتماء إليه أمثـال الانتهـازى جابر .

وتتسع طائفة القراء لأمثال الشيخ على بلال تلميذ الشيخ معاوية القليوبى وزوج ابنته شهيرة : أحد تلاميذه من قراء القرآن الكريم ذو صوت عذب ومنظر وجيه ورزق موفور . " حديث ـ ١٢٤ " .

ما الذى حدث للشيخ ذى الصوت العذب والنشأة الدينية ؟!. لقد انقلبت حياته رأسا على عقب : أغراه صوته وأصدقاؤه بإنشاد المدائح النبوية فى المواسم ، فاتسع مجال رزقه وكثر المعجبون به حتى دعي لإحياء بعض الأفراح بإنشاء المدائح، وفى ذلك الجو المعبق بالأفراح والليالى الملاح جرت رجله لتدخين الحشيش . وأخيرا اقترح عليه أحد الملحنين أن يتحول إلى مطرب متنبئا له بمستقبل وردى . واستجاب للدعوة بقلب طروب، ولم يجد بأساً في هجر السور الشريفة ليغنى" أوع تكلمنى بابا جى ورايا " و " ارخي الستارة اللى فى ريحنا " و " الهف يالابف يا سمك مقلى " ونجح فى ذلك نجاحا مرموقا وسجل اسطوانات راجت فى السوق وأذاعت اسمه على الألسنة . وضرب عمرو أفندى كفاً بكف وقال :

– يا للخسارة ..

وبدأت شهيرة تخاف على مكانتها الزوجية من اغراءات الوسط الجديد فقالت له :

– تزوجتك شيخا مباركا فانقلبت إلى عالمة !. " نفسه ـ ١٢٥" .

ينتقل الرجل من قراءة القرآن وحده إلى إنشاء التواشيح الدينية أيضا ، وهو انتقال لا مفارقة فيه ولا انقلاب ، ولكنه يمهد الطريق أمام مزيد من الانتقالات والتنازلات التى تفضي في النهاية إلى هجر السور الشريفة واحتراف الغناء الخليع!.

تغيرت المهنة وانقلب الشيخ المبارك إلى مطرب محترف يموت متأثرا بـ " البلبعة " وهو يداعب أوتار عوده !. " نفسه ـ ١٢٦ " .

لا علاقة للقرآن الكريم بالأمر ، فهو يقف بعيداً ومنزهاً عن ممارسات محترفى القراءة وانحرافاتهم . الذنب فى الانهيار والسقوط والتحول السلبى مرده إلى الشخصية التى تتعامل مع القرآن كمصدر للرزق وتنتقل ـ عندما تتاح الفرصة ـ إلى مصدر آخر يمنح رزقا أوفر ! .

الممارسة الاجتماعية الجمعية الواعية تمارس الفصل والتفرقة عن إدراك موروث لجلال وعظمة القرآن دون قارئيه ، ولقداسته التى لا تنتقل بالضرورة إلى من يتكسبون به فى سوق الحياة ! .

القرآن والموت

إذا كانت قراءة القرآن فى المقابر والسرداقات والمنازل تمثل لازمة من لوازم المـوت ، وإذا كان الإعلان الرسمى عن الموت فى المناسبات السياسية دائم الاقتران بـالموت ، فـإن العاديين من الناس يلجأون إلى القرآن عند المـوت : بـه يتصبرون ويـترحمون ويظهـرون الإيمان ويعلنون الرضا بقضاء الله .

السيد رضوان الحسيني نموذج للمسلم الصابر عند الابتلاء بالموت : رآه النـاس يومـا يشيع إبناً من أبنائه إلى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه . " زقاق ـ ١٠ ".

بالتلاوة يبدي الرجل رضاه بقضاء الله ويترحم على إبنه ، وبالوجه المشرق يعلن عن توافقه وانسجامه مع المشيئة الالهية دون تذمر أو احتجاج .

ويتلقى الشقيقان حسين وحسنين خبر الموت المفاجئ لأبيهما فيلـوذان بـالقرآن كـل على طريقته .

كان حسين يبكى ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغـيرة استنزالا للرحمـة . " بداية ـ ٩ " .

ويتساءل حسنين : هل الموت هو النهاية ؟. ألا يبقـى مـن أبـى إلا الـتراب ولا شـئ وراء هذا؟. معاذ الله . لن يكون هذا . إن كلام الله لا يكذب . " نفسه ـ ١٢ " .

حسين هو الأكثر إيمانا والأقل تفكيرا والأسرع استجابة لما يتطلبه الموت من التسـليم والرضا، وحسنين هو طارح الأسئلة فى قلق وتوتر يكشفان عـن شـخصيته، ثـم يسـتقر الأمر به أخيرا فى حضن الإيمان بالكتاب وأحكامه .

فى لحظة الموت نفسها يبدو القرآن ضروريا للحى والميت معا .

سـاعة احتضـار رشـوانة عزيـز ، وثبـت ابنتهـا دنانـير إلى الفــراش : واسـندتها إلى صدرها، وراحت تتلو ما يتسر لها من الآيات . " حديث ـ ٩٩ " .

وفى الرواية نفسها تحتضر زينب النجار تحت مظلة حانية من تلاوة راضيـة القليوبى ودموعها. " نفسه ـ ١٠٨ " .

فى الآيات المتلوة عند الموت رحمة لرشوانة وزينب ، وسلوى لدنانير وراضية .

بعد الدفن وسكنى القبور ، تتحـول الآيـات المقـروءة مـن الزائريـن إلى رحمـة ونـور للموتى فى وحدتهم .

الموت والموتى من الموضوعات التى يتحدث فيها كامل رؤبةلاظ مع أمه فى طفولته: وكنا نتحدث كثيرا عن القبور وأهل القبـور ، وكيـف يرقـدون ، وكيـف يسـتقبلون ،

وماذا يلقون من شدة وحساب ، وكيف تنزل عليهم الآيات نوراً ، يذهب وحشتهم ويلطف جفوتهم . " السراب ـ ٢٠ ".

حوار يحمل المعانى نفسها نجده في قصة " رحلة " . يتناقش الأطفال أمام القبور ، وينبرى رفاعة – أكثرهم إيمانا وورعا – إلى تفسير ما يحيط بالموت من غموض وظلام . وبكلماته يمثل مرجعا لزملائه كثيرى الأسئلة :

– والظلام ؟.

– يذهب بتلاوة القرآن وتوزيع الرحمة على المساكين . " خمارة ـ ٢٠٠ ".

القرآن مزيل الظلمات في القبور ، والقرآن أيضا هو مخفف عذاب القبر:

– والحساب ؟.

– يكون في أول ليلة فقط .

– والمرزبة ؟.

– فظيعة .. ولكن القرآن !. " نفسه ـ ٢٠١ ".

القرآن هو الملاذ والحامى . بآياته يترحم الأحياء على موتاهم ويتصبرون ، وبنوره تزول ظلمات القبر ويخفف العذاب .

تعليم القرآن

يتم تعلم القرآن وحفظه – منذ الطفولة – عبر وسيلتين : التعليم الديني المتخصص ممثلا فى الكتاتيب حيث القرآن هو الأساس ومبادئ القراءة والكتابة والحساب هى الفروع، والتعليم المدرسى الذى يجمع بين الدين والقرآن والعلوم المدنية المختلفة .

ثمة طريق ثالث أقل انتشارا هو التعليم المنزلى ، الذى يتم – عادة – لظروف خاصة بالمتعلم ، وفيه ينتقل المعلم إلى البيت بدلا من انتقال الطالب إليه .

قنديل محمد العنابى ، الشهير بابن فطومة ، عرضة للأذى من إخوته غير الأشقاء كما تتوهم أمه ، ويبلغ الخوف بها إلى الدرجة التي تمنعه فيها من الذهاب إلى الكتاب : فعهدت بى إلى الشيخ مغاغة الجبيلى – وكان جاراً لأسرتها – ليلقنني العلم فى دارى وعنه تلقيت دروسا فى القرآن والحديث واللغة والحساب والأدب والفقه والتصوف والرحلات . " رحلة – ٧ ".

الخوف على قنديل يدفع أمه إلى تعليمه فى البيت ، والتأخر فى الالتحاق بالكتاب هو مايدفع العالم الأزهرى سيد الراوى إلى تعليم حفيده جعفر منزلياً تمهيدا لدخوله الأزهر : لقنت مبادئ دين جديد غير الدين الذى تلقيته على يد أمى، دين المغامرة والأسطورة والمعجزة والحلم والشبح ، أما هذا فدين يبدأ بالتعلم والجدية ، حفظ سور وشرحها .. " قلب – ٣٩ ".

ويختلف الأمر قليلا بالنسبة لعاشور الناجى ، وهو لقيط لا أم له ولا جد ، فراعيه معلم القرآن الشيخ عفرة يعلمه حيث يقيمان معا : عند الأصيل يجلس عند قدمى الشيخ فيحفظه ما تيسر من القرآن ويلقنه آداب السلوك والحياة . " الحرافيش – ١٠ ".

وبعد سنوات يتولى عاشور المهمة نفسها مع زوجه فُلّة : إنه يلقى عناء فى تعليمها. ولولا ثقتها فيه ما صدقت كلمة واحدة مما يقول . تحفظ سور الصلاة فى عناء . " نفسه – ٦٢ ".

لأسباب مختلفة كل الاختلاف لا يتمكن قنديل وجعفر وعاشور وفلة من الذهاب إلى الكتاب كالأغلبية العظمى من أقرانهم ، ويكون البديل هو الاستعانة بمعلم خاص أو تحول ولى الأمر والزوج إلى معلم فى الوقت المتاح والممكن .

الأكثر انتشارا هو التعليم فى الكتاتيب والمدارس المدنية .

الكتاب متاح لأبناء الطبقات الشعبية الفقيرة الذين تحول ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية دون ذهابهم إلى المدارس ، والكتاب متاح أيضا للأثرياء والأغنياء ممن يهيئون أبناءهم من خلاله لتعليم أعلى . وباختلاف الطبقة يختلف الهدف .

طموح الفقراء لا يتجاوز أن يتعلم صغارهم الحد الأدنى ، وهو طموح يعبر عنه خير تعبير المعلم بيومى عندما يقترح عليه شيخ الكتاب أن يرسل ابنه عثمان إلى المدرسة الابتدائية . ذهل الرجل وتساءل :

- ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة ؟!. " حضرة - ١٣ ".

بيومي سواق كارو ، وعثمان بالتبعية والميراث مهيأ للعمل نفسه ، والهدف من الكتاب لا يتجاوز بضع آيات تحفظ لإقامة الصلاة . أهداف الأعيان وطموحاتهم تختلف . الست عين تعتزم إرسال وحيدها عزت إلى الكتاب ، قائلة له :

- ستجد في الكتاب التكريم ونور الله .

التكريم لأن الشيخ من رواد إحسانها الدائمين ، ونور الله لأنه منبثق من الكتاب . " عصر - ٢٨ ".

قد يجمع الكتاب الواحد بين أمثال عثمان وعزت ، ولكن المستقبل يختلف والطرق تتقاطع.

للتعليم في الكتاب مزاياه ، وحفظ القرآن مما يمدح به الحافظون من خريجى الكتاتيب .

في الحكاية العاشرة من " حكايات حارتنا " يصف الراوى دولت بأنها فتاة طيبة : تفك الخط وتحفظ بعض سور القرآن . " حكايات - ٢٣ ".

وفى الحكاية رقم " ٣٤ " تتميز هنية بنت علوانة الدلالة بأنها أكثر ثقافة وعلما ممن تحبه وهو حمام صبى الخياط البلدى : ثم أن هنية بنت " متعلمة " ، مكثت فى الكتاب ثلاث سنوات ، تفك الخط وتجمع الأرقام وتحفظ جزء عم . " نفسه - ٧٦ ".

وفتح الباب متعلم فى الكتاب ، وحافظ لما تيسر من القرآن . " الحرافيش - ٤٨٩".

ولأنه رقيق مثل فتاة ، فإنه لا يروق لأخيه الفتوة سماحة ، حتى تتطوع المربية بإظهار وإبراز فضائله : يحفظ القرآن ، يكتب ويعرف الحساب . " نفسه - ٤٩٣" .

كيف يتفاعل الصغار مع الكتاب وعالمه الجديد عليهم وهم الوافدون من البيوت والشوراع ؟! وأى انطباع يخرجون به بعد لقائهم الأول مع معهد العلم ؟!.

ربما تصلح تجربة قاسم عمرو لتجسيد النموذج الشائع لصدمة اللقاء : وظلت الدنيا لهوا ولعبا حتى حمل قاسم ذات يوم إلى الكتاب ليبدأ حياة جديدة وليحرم رفقة أحمد ثلثي النهار. والكتاب يقع في منحنى من منحنيات عمارة الكبابجي على بعد خطوات من البيت ، ولكنه محاط بسياج من التقاليد الصارمة تجعل منه سجنا تتلقى فيه المبادئ الالهية تحت تهديد المقرعة.. و لم تجد التوسلات ولا الدموع .. " حديث ـ ٧ ".

تقاليد صارمة وسجن ومقرعة وتوسلات ودموع !. صورة قاتمة كئيبة لا يخفف من وقعها – إلا قليلا – انتقال الطفل المباغت من لهو ولعب بلا حدود إلى حفظ وتعليم وإلتزام وجدية.

أهي دار علم وتعليم أم مكان عذاب وتعذيب ؟!.

ولكي تكتمل الصورة يمكننا أن نتوقف أمام المكانة الاجتماعية التي يحظى بها شيخ الكتاب الذى يعلم القرآن ويحفظه في عالم نجيب محفوظ . مكانة لا تختلف عما أشرنا إليه من قبل في سياق الحديث عن شخصية قارئ القرآن الكريم . وإذا كان عالم القراء يضم بعض المشاهير والنجوم ، فإن شيوخ الكتاب لا نجوم فيهم . يفصل المجتمع بين " مهنة " التعليم و" مادة " العلم . القرآن الكريم مبجل ومقدس، ومحفظ القرآن لا تبجيل له ولا قداسة فيه .

لا تجد خديجة أحمد عبد الجواد حرجا في التهكم على شيخ الكتاب في إطار سخريتها العامة من كل المحيطين بها : كما تدعو شيخ كتاب بين القصرين " شر ماخلق " لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم " وظيفته " مع قبح وجهه . " بين ـ ٢٩ ".

والشيخ العزيزى يتمثل في ذهن عزت عبد الباقي كريها منفرا : قزم مقوس الساقين أقعس الصدر ، صغير القسمات كطفل ، يتمايل في مشيته من جنب إلى جنب متوكئا على عصا قصيرة طولها ذراع أو دون ذلك ، كأنه لعبة مما تعرض في الموالد ، وهيهات أن ينسى أنه رآه في يوم ممطر وقد حمله فاعل خير على كتفه ليعبر به الطريق . " عصر ـ ٢٩ ".

والراوى في قصة " المهد " يتحدث عن تجاربه الطفولية في التقليد والمحاكاة : وسيدنا شيخ الكتاب ومقرعته ، ألف المنديل حول رأسي كعمامة ، أتربع على صندوق وتجلس الخادم على الأرض بين يدى ، أحاكي صوته وألوح بالعصا ، وألقى الدرس ، وأسمع وأعاقب آخذاً ثأرى من كل ماحققنى في يوم الثقيل . " القرار ـ ١٣" .

القبح الشكلي هو المشترك الأول بين الشيوخ الثلاثة ، وغياب المكانة اللائقة بجلال القرآن هي المشترك الثاني . الكبار والصغار يعرضون به ويسخرون منه ويقلدون حركاته ويبالغون في الوصف الكاريكاتوري الذي لا يقترب من القرآن الكريم ، ولكنه ينصب بسهام حارقة على " وظيفة " المعلم المحفظ .

هل ينجح هؤلاء الشيوخ ويصلحون لتعليم القرآن ؟!. قد ينجحون ولكنهم لا يقنعون، وقد يقومون بالتحفيظ الجبرى دون إقناع بجدوى العملية التعليمية كلها!.

لابد بل لهم قبل انتشار التعليم العصرى في المدارس ولذلك فهم يعلمون قدر استطاعتهم ويقع العبء الأكبر في مواصلة المشوار على عاتق التلميذ وأسرته .

الزعيم الوطنى أحمد عرابى من خريجى الكتاب ، ففيه حفظ القرآن صغيرا في قريته بالشرقية . " أمام - ٤٦٥ ".

وكثيرون هم - في الواقع وفي أدب نجيب محفوظ - الذين يلتحقون بالكتاب ويتعلمون ويحفظون قبل أن تتفرق بهم السبل .

لا تناقض ولا تعارض بين الكتاب والمدرسة ، فالتجهيز للمدرسة يبدأ بالكتاب، وخديجة تدفع بابنها عبد المنعم إلى الكتاب وهو دون الخامسة من عمره . " قصر - ٤٦".

ثم يواصل عبد المنعم رحلة التعليم في المدارس الحكومية وصولاً إلى الجامعة والتخرج فيها.

لاتختلف صورة التعليم القرآنى في المدارس كثيرا عن الكتاتيب .

التحق كامل رؤبة لاظ بمدرسة الروضة الأولية الأهلية ، وهو يعترف بأنه لم يتعلم شيئا على الإطلاق في السنة الأولى : ولم أحفظ في بحر عام دراسي إلا بعض السور القرآنية الصغيرة التي كنت أسمع أمي ترددها في صلاتها . " السراب - ٣١ ".

وقد تستبدل المعلمة العصرية بالشيخ القبيح، ولكن الجوهر لا يتغير. ففي قصة "جنة الأطفال " تسأل الطفلة أباها :

- ومن هو الله يا بابا ؟.

فيسأل الأب بدوره مستزيدا من المدنة :

- ماذا قالت أبلة في المدرسة ؟.

وترد الطفلة على الفور :

- تقرأ السورة وتعلمنا الصلاة ولكنى لا أعرف .. " خمارة - ٨٦ ".

أسئلة كثيرة عسيرة تطرحها الطفلة المتطلعة إلى المعرفة ، وهي أسئلة تقطع بأنها لا تتعلم شيئا يتجاوز قراءة السورة " المقررة " وتعلم الصلاة . أي اختلاف جوهري إذن بين الكتاب التقليدي بشيخه ومقرعته وإرهابه وبين المدرسة العصرية بمناهجها وأساليبها التربوية ؟!.

وفي رحلة العمر التي يستعرضها الراوي في قصة " نصف يوم " يتوقف أمام المدرسة : وشاهدنا الكرة الأرضية وهي تدور عارضة القارات والبلدان . وطرقنا باب العلم بادئين بالأرقام . وتليت علينا قصة خالق الأكوان بدنياه وآخرته ومثال من كلامه. " الفجر ـ ٣٤ ".

الدين – والقرآن في القلب منه – مادة تدرس كغيرها من المواد ، ولا تتسع الأعمال السابقة لمزيد من التوضيح للموقع الذي يحتله القرآن : سور قصيرة يحفظها كامل ، وسور مماثلة تقرأها المدرسة لتلاميذها ، و" مثال " من كلام الله يعلم مع المواد الأخرى.

الكشف الحقيقي عن دور القرآن في المدارس نجده في " بين القصرين " من خلال الحديث عن كمال عبد الجواد وعلاقته الوطيدة مع القرآن الكريم وأمه معا. درس الديانة حبيب إلى قلب كمال ، ومع بداية ظهوره في الرواية تتجلى علاقته الوثيقة مع الشيخ الذي كان يعطف عليه لإقباله على الاستماع لدروسه باهتمام بارز ، إلى حفظه للسور حفظا جيدا .." بين ـ ٤٦ ".

وكان كمال يعي أنه لا يتلقى الدروس الدينية لنفسه فحسب ، وأن عليه أن يعيد ما وعى منها في البيت على أمه – كما اعتاد أن يفعل منذ كان في الكتاب– فيلقي إليها بمعلوماته وتستعيد هي على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن أبيها الذي كان شيخا أزهريا ، ويتذاكران معارفهما طويلا ثم يحفظها الجديد من السور التي لم يسبق لها حفظها .. " نفسه ـ ٤٧ ".

يتعلم كمال في المدرسة ، ثم يتحول إلى مشروع معلم في البيت . وصورة المدرس الشيخ تختلف عن النمط الشائع من حيث أسلوب التعامل ، ولكنها لا تختلف كثيرا في جوهر العلم الذي يقوم بتلقيته : فلم تكن عقلية مدرس الديانة – كما تتكشف في تبسطه في الحديث أحيانا – لتختلف عن عقلية أمه كثيرا أو قليلا . " نفسه ـ ٦٢ ".

القرآن هو الراية التي يقف تحتها كمال وأستاذه وأمه ، ولكن تعليمه يتم مختلطا بالخرافات والأساطير والتفاسير التي تكشف عن طبيعة الثقافة الدينية الشعبية السائدة .

مع نهاية كل يوم ينفرد الغلام بأمه ، ويتناول كتاب الديانة متنقلا إلى جانبهـا وهـو يقول بصوت ينم عن الإغراء :

- استمعنا اليوم إلى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدا ..

وتستوى المرأة في جلستها وهي تقول باحترام واجلال :

- كلام ربنا عظيم كله . " نفسه - ٦٣ ".

متعة كاملة فى حفظ القرآن والمناقشات الحامية وانفراد الطفل بأمه دون شريك!.

مرحلة ذهبية فى حياة كمال ، ولكنها لا يمكن أن تدوم وتستمر . بازديـاد معـارف كمال - الدينية والدنيوية - تتضاءل علاقته القرآنية مع أمه وتقتصر الصلة بينهمـا علـى الأمومة والبنوة!.

ومحاولة بعث لعلاقة فى صورة جديدة كما تطمح خديجة مـع ابنهـا عبـد المنعـم ، لا تبشر بنجاح مماثل .

تزعم خديجة أنها تذاكر عبد المنعم دروسه بنفسها ! ، ويرد ياسين مستنكرا :

- أنت تذاكرينه ؟!

- لم لا ؟! ، كما كانت نينة تذاكر كمال ، أجالسه كل مسـاء فيسـمعني مـا يحفظونه فى الكتاب . " قصر -٤٧ ".

لا يتحقق طموح خديجة ويجهض مبكرا ، فالزمن فـى سـريانه الجبـار لا يبقـى علـى أمثال هذه العلاقات .

تقول أمينة لابنها كمال - فى شبابه - وفى قولهـا حيـاء ينـم عـن إحساسـها بتغير موقعها فى حياته :

- مضى زمن لنا لا نجد وقتا يتسع لحديثنا. " نفسه - ١٨٠".

كان القرآن محور حديثهما الذى ينتهى ، ولكن تغيرت ثقافة الطفل القديم وتبدلـت رؤيته، وانقضى ذلك العهد !.

القرآن حاميا

ما أكثر الأخطار والمخاوف التي تهدد حياة الإنسـان وتعكـر صفوهـا ، ومـا أعظـم الدور الذي يقوم به القرآن الكريم في إعادة التوازن وتحقيق التوافق .

في حياة البشر شياطين وأمراض ومخاوف شتى ، وفي بركة القرآن ما يمنـح الحمايـة والأمان لمن يأخذ بالأسباب وتصفو نيته ويصح عزمه على المواجهة المسلحة بالإيمان .

وقد يختلط تعامل البسطاء مع القرآن كسـلاح حمايـة وأمـان بالكثـير مـن الخرافـات والأساطير، ولكن الفكرة الأساس تكمن في الدافع وصدق النية : أليس الإيمان وحده ما يحرك ويدفع إلى الاستغاثة بالقرآن والاحتماء به ؟!.

العلاقة معقدة متشابكة – في الواقـع المعيش وفـي عـالم نجيـب محفـوظ معـا – بـين القرآن والعفاريت . وجود العفاريت والجن والشـياطين حقيقـة قرآنيـة لا يتطـرق إليهـا الشك ولا يجادل فيها مسلم ، و" أسلوب " التعامل مع هذه الكائنات هو الذي يتحقـق فيه الاختلاط والتداخل بين الحقيقة والوهم .

القرآن أقوى سلاح يملكـه المؤمـن ، وبـه يتفـوق الإنسـان علـى كـل مـا عـداه مـن مخلوقات . وفي مسرحية الفصل الواحد " الشيطان يعـظ " يرغـب أمـير المؤمنـين عبد الملك بن مروان في الحصول على قمقم من قماقم العفاريت ، وهي رغبة تحظـى بتعليـق دال من الشيخ التقي عبد الصمد بن عبد القدوس الصمودي :

– رغبة مولانا على الـرأس والعين ، ولكـن الله أمرنـا بالشـورى ، ومـن يمـد سلطانه بقوة القرآن فليس به حاجة إلى قوة العفاريت . " الشيطان ـ ٣٣٦ ".

ويقدم " المجنون " درسـا عمليـا فـي قهـر الشـياطين المتنكريـن فـي صـورة بشـرية . " أنيس الجليس " شـيطانة تسـبي العقـول وتـذل الرجـال وتأسـر بحبائلهـا كبـار رجـال السلطنة ، ولكن سحرها يتلاشى أمام الرجل الالهي ذي السر والإيمان : تحركت شـفتاه بتلاوة خفية . لم تسعفها المقاومة اليائسة . وزحف عليها ما يشبه النوم الثقيل . تراخت أعصابها . تركت تيار التغيير يتدفق . مضت قسمات وجهها تـذوي وتنـداح فصـارت عجينة متورمة . تقوضت القامة الفارهة وطارت منها الملاحة والرشاقة بسرعة عجيبة لم يبق منها إلا نقاط منفصلة . استحالت دخانا ثم تلاشت غير تاركة أي أثر . " ليـالي – ١٧٠، ١٧١ ".

النصر الساحق بكلمات الله الحارقة للشر والمزيلة للشياطين ، ذلـك أن قـوة القـرآن تمحق كل قوة أخرى . بالتلاوة المباركة يتحلل الشيطان ويزول تأثيره وتتعرى حقيقته وتفشل حيله ولا يبقى له من اثر أو مفعول .

الاستعانة بالعفاريت لاتشغل عوام وبسطاء المسلمين ، والانتصار الحاسم يفوق طاقتهم ، ومايشغلهم ويعنيهم هو الخوف والرغبة فـي اتقاء الأذى والشر . ولمواجهة الخوف يستعينون بالقرآن .

بعض السور القرآنية مثل الفاتحة والصمدية أكثر تأثيرا وانتشارا ، ولكن كتاب الله كله سلاح فعلا فى المقاومة .

أمينة ، فى مطلع حياته الزوجية مع أحمد عبد الجواد ، شابة صغيرة تعانى الوحدة فى انتظار عودة زوجها من سهرته الليلية ، ولا سبيل أمامها لمواجهة المخاوف فى البيت الكبير المليئ بالعفاريت والشياطين والجن إلا التسلح بكتاب الله والاحتماء به : ولكي يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مادّة يدها بالمصباح أمامها فتلقى فى أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها بإحكام ، واحدة بعد أخرى، مبتدئة بالطابق الأول منتهية بالطابق الأعلى ، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين ، ثم تنتهى إلى حجرتها فتغلق بابها وتندس فى الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة ، حتى يغلبها النوم . " بين - ٧ ".

تستعين أمينة بكلمات الله لتدخل إلى عالم النوم فى أمان وثقة ، وبقوة القرآن الذى تحفظه أمه يتسلح حمدون عجرمة غير خائف من العفاريت . فإذ يقول له صديقه الجديد وزميل الدراسة فى الكتاب عزت عبد الباقى :

– وقد يطلع لنا عفريت من القبو فمن الأفضل أن نكون معا ..

يرد فى ثقة :

– لا أقترب من القبو ليلا وأمى تحفظ القرآن. " عصر - ٣٢ ".

السلاح الدفاعى السلبى هو الابتعاد عن القبو المخيف الذى تسكنه العفاريت ، أما السلاح الهجومي الايجابى فتمتلكه الأم حافظة القرآن مانح البركة والحماية الحقيقية .

تزداد مخاوف الأطفال قبل النوم ، ويحتاجون دائما إلى الحماية والأمان القرآنى. ليس الخوف من العفاريت وحدها بطبيعة الحال ، ولكن القرآن يعالج المخاوف .

لا ينام كامل رؤية قبل أن تتلو أمه من القرآن ما يصونه ويحميه : ..... وضعت راحتها على رأسي وقرأت سورا قصارا من القرآن " كالعادة " ، حتى رنق النوم بجفنى . " السراب – ٥٠ " .

ليست القراءة استثنائية إذن ، ولكنها " عادة " يومية تمارسها والأم وينتظرها الابن .

وكمال عبد الجواد يكرر التجربة نفسها مع أمه التي حـرم بقـرار أبـوى صـارم مـن مشاركتها الفراش : توسل إليها معتلا بخوفه من وحدته فى الحجرة أو بما يتراءى له مـن أحلام مزعجة لا تدفعها إلا تلاوة طويلة للسور الشريفة . " بين ـ ٦٥ " .

وتستجيب أمينة – كالعادة أيضا – فتتلو الآيات على رأسه حتـى غافلـه الكـرى . " نفسه ـ ٦٦ " .

ليست أمينة فى حاجة إلى أن ينبهها كمال إلى مخاوفه المزعومة المصنوعة للتشبث بها واستبقائها إلى جواره ، فهى مهيأة منذ البدء للاستعانة بالسـلاح الرئيس الـذى تملكـه ولاتتخلى عنه؛ القرآن . قد لا يكون السلاح الوحيد، ولكنه الأول والأهم.

بعد تجربة كمال مع الجنود الانجليز فـى معسـكرهم ، وهـى مغـامرة مرحـة لكمـال وقصة مفزعة لأمه المسكونة بالخوف الدائم ، تبدأ أمينة فى التفكـير " العملـى " لمقاومـة ما أصاب ابنها: لم تكن ترى فى الفـزع مجـرد شـعور عـابر ، كـلا .. إنـه شـعور شـاذ تكتنفه هالة غامضة تأوى إليها العفاريت كما تـأوى الخفـافيش إلى الظـلام فـإذا أحـاط بشخص ـ خصوصا الصغار ـ مسه بضر سئ العاقبة ، لذلك فهو يسـتوجب فـى نظرهـا مزيدا من العناية والحيطة ، تلاوة من القرآن كانت أم بخورا أم حجابا ، ... " نفسه – ٣٨١ " .

القرآن هو الأول فى طليعة الأسلحة ، ثم تأتى البخور والأحجبة كأسلحة معاونـة . الفزع يطول الجميع ، وله خصوصيـة مـع الصغـار الأشـد تـأثرا والأكـثر ذعـرا؛ لأنهـم صغار.

يعرف كمال القوانين التى تحكم أمه ، وفى موقف مفـزع آخـر يتخيلـه الطفـل فـى أحلام يقظته ـ مع الانجليز أيضا ـ يتوقع رد الفعل على ضوء تجاربه ومعارفـه : ستفزع عند ذاك لحد البكاء ولا تكاد تصدق أنه حى يرزق وستتلو آيات كثيرة وهى ترتجـف . " نفسه ـ ٣٤٧ " .

القرآن هو خط الدفـاع الأول الحصـين ضـد العفـاريت والانجليز و " كـل " مايثير الفزع والخوف.

اكتشاف مقبرة فرعونية تصاحبه مشاعر رهبة فـى قصـة " يقظـة الموميـاء " والشـيخ جاد الله ـ المكتشف ـ يتلو القرآن ويردد التعاويذ قبل نزوله إليها . " همس ـ ٩٣ " .

وفى الغارة الجوية العنيفة التى تقدمهـا قصـة " الجـامع فـى الـدرب " يحتمـى الإمـام ومقيم الشعائر بركن من أركان المسجد وتنطلق أفواههم بالتلاوة . " دنيا ـ ٦٣ " .

الصغار والكبار ، الرجال والنساء ، البسطاء ورجال الدين ؛ الجميع يحتمون بالقرآن وينشلون بركته ويطلبون معونته لمقاومة العفاريت والانجليز والمجهول المخيف والغارات المدمرة.

المرض مفزع أيضا ، ولذلك فهو يستدعي تلاوة القرآن تقربا إلى الله والتماسا للشفاء .

أحمد بن طولون حاكم محبوب من رعيته باختلاف دياناتهم ، ويدلل كاتب سره موسى على حب الشعب له بقوله : لذلك فعندما اشتد عليه المرض خرج الجميع يدعون له فوق جبل المقطم، والمسلمون بقرآنهم والمسيحيون بانجيلهم واليهود بتوراتهم. " أمام ـ ١٤٥ ".

ويتخيل عزت عبد الباقي ـ في مرضه ـ أمه عين التي لن تغادر فراشه : سينهال عليه سيل فياض بالدعوات المباركات والآيات الشريفة . " عصر ـ ١٤٨ ".

وفي مرض الطفل أحمد محمد إبراهيم ، الذى أفضى به إلى الموت ، لا تكف أمه عن تلاوة الآيات . " حديث ـ ٨ ".

ليس مستغربا إذن أن يكون القرآن مصاحبا للإنسان دائما ، وأن يكون مما يهدى في المناسبات السعيدة .

القتيل المجهول في قصة " حادثة " يحمل مجلدا صغيرا من السور القرآنية . " دنيا ـ ١٨٢ ".

وأول هدية يتلقاها المولود عزيز قرة الناجى ، من عمه وخالته الكارهين له ولأبويه مصحف مذهب الغلاف . " الحرافيش ـ ٢٨٢ ".

به يظهران الحب والتمنيات الطيبة والنية وما يعتمل فى القلب من مشاعر شئ آخر.

مصحف مذهب الغلاف يهدى لمولود ، ومرآة مثبتة فى إطار عاجي موشى بالآيات. " عصر ـ ٢٢ ".

ونلمح أيضا قائما خشبيا مزخرفا بالأصداف عليه مصحف كبير . " ليالى ـ ٣٣ ".

وزكى كناشة يشيد لنفسه قبرا من الرخام النفيس المنقوش بآيات الرحمن . " صباح ـ ٩٥ ".

إنه الحضور الدائم والتوهج الذى لا يعرف الخمود فى كل مفردات الحياة اليومية والبحث الدائب عن بركته المؤكدة فى الهدايا وقطع الأثاث وشواهد القبور.

ولكن الاستعانة بالقرآن لا تمنح الأمن وتضفى الحماية دون إرادة الانسان نفسه ورغبته الجادة في التصالح مع الحياة . وكما فى قصة " المهد " : الله رحمن رحيم ،

ينشر عنايته الالهية فتحيط بكل شئ ، وقد يسر لنا مفتاح الأمن والأمان ، بالآية نتلوها، بالصلاة نقيمها، بالصوم نتقرب به إليه ، فتصفو الدنيا وتحلو .. " القرار - ٦ ".

الإنسان وحده هو المسئول عن حياته ، وبإرادته وحده يمكن أن تصفو الحياة وتحلو. لا يغني القرآن عن الأسباب ، فهو يبارك ويطهر ويساعد من يسعون ويأخذون بالأسباب .

تندهش الست عين من تورط ابنها عزت في الخطيئة الجنسية مع ابنة تابعتها ، وتتساءل عما ينقص البيت : يتلى فيه القرآن ، يعبقه البخور ، ترعاه الحسنات والنوايا الطيبة ، فكيف يندس الشيطان في أركانه ؟. " عصر - ٦٤ ".

ما جدوى أن يُتلى القرآن ويعبق البخور وتمنح الحسنات ، ولا يكبح عزت جماح شهواته ويروض غرائزه ؟. الشيطان لم يهزم القرآن ، ولكن عزت هو المهزوم المسكون بالشيطان . والقرآن لا يسعف وينقذ وينجد إلا من يسعى مخلصا إلى الخلاص دون استسلام للإغواء والنزوات .

ينصرف القرآن عمن ينصرف عنه ، وسعيد مهران ينبذ القرآن ويدير ظهره لدعوة الشيخ علي الجنيدي :

– خذ مصحفا واقرأ . " اللص - ٣٠ ".

يكرر الشيخ دعوته ، ويوالى سعيد رفضه باحثا عن بديل آخر إلى الخلاص المنشود . لقد اختار واعيا ، وعليه أن يتحمل تبعة الحرية والمسئولية .

القرآن والسياسة

في قصة " الجامع في الدرب " يجتمع المراقب العام للشئون الدينية ، وهو شخصية خطيرة من رجال السراى ، مع أئمة المساجد ، ويطالبهم بهتك أستار الدجالين ومثيرى الشغب كي يستقر الأمر لصاحب الأمر . " دنيا ـ ٥٤ ".

لا تصرح القصة ، ولكن : من يكون الدجالون ومثيرو الشغب إلا الوفديون ؟ ومن يكون صاحب الأمر إلا الملك ؟!. المعركة سياسية طرفاها الشعب والسراى ، والأئمة مطالبون ـ بحكم وظائفهم ـ أن يشاركوا في السياسة من خلال الدين .

ويجتمع ثلاثة من الأئمة : الشيخ عبد ربه محور القصة ، وصديقاه خالد ومبارك. يقول خالد متذمرا :

– لم تخلق دور العبادة للمهاترات السياسية وتأييد الطغاة .

ويقول مبارك :

– سنقتل مبدأ إسلاميا هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما الشيخ عبد ربه فيقول معارضا لرفض صديقيه :

– بل سنحيى مبدأ إسلاميا هو الدعوة إلى طاعة الله ورسوله وأولى الأمر. " نفسه ـ ٥٦ ".

خالد ينزه الدين عن مهاترات السياسة ، أما مبارك وعبد ربه فيستندان إلى القرآن معبرين به عن موقفين متعارضين : الأول يدين الديكتاتورية والثانى يؤيد ولاة الأمر . كلاهما يعتمد على القرآن ، والمصالح الشخصية والسياسية المتعارضة لا تنفى أنهما يستقيان من النصوص القرآنية ، يؤيدهما ويسعفهما !.

ألا يمثل خالد الموقف الأكثر اتساقا مع قداسة الدين والقرآن ؟!. ألا يعنى الدفع بالقرآن في معترك الحياة السياسية إقحامه ـ وهو المطلق المقدس ـ في مجال النسبى الذى يخلو من القداسة ؟!

القرآن " حمّال أوجه " كما هو منسوب إلى الإمام على بعد أبي طالب ، وباختلاف الدوافع والأهداف يتم الانتقاء والاختيار الذى " يستغل " و "يستثمر " القرآن للتبرير والدفاع دون اهتمام بإدراك الحقيقة القرآنية .

هل يدعونا القرآن الكريم إلى الاشتراك في ثورة ١٩١٩ أم ينهانا عن المشاركة في أحداثها؟!

أحمد عبد الجواد يقول لابنه فهمي غاضبا :

- إن الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك ، وقد أمرنا سبحانه بـألا نعرض أنفسنا للتهلكة ..

ود الرجل أن يستشهد بالآية التـى تـترجم هـذا المعنـى ، ولكنـه لم يكـن يحفـظ مـن القرآن إلا السور القصيرة التي يتلوها في صلواته ، فخاف أن يسهو عن لفـظ أو يحرفـه فيحمل نفسه وزرا لا يغتفر ، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه ..

ولكن ما يدرى إلا وفهمي يقول بلهجته المهذبة :

- ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا ..

ساءل فهمي نفسه فيما بعد متعجبا كيف واتتـه شـجاعته علـى مجابهـة السـيد بهـذا القول الذى فضح مادار اه من استحسان برأيـه !... لعلـه احتمـى بـالقرآن فوقـف وراء معنى من معانيه مطمئنا إلى أن أباه سيحجم في تلك الحال عن مهاجمتـه ، وقـد بوغـت السيد مباغتة شديدة بجرأة ابنه وحجته معـا ، ولكنـه لم يستسـلم للغضـب لأن الغضـب ربما أسكت فهمي ولكن لن يسكت حجته ، فتناسى جرأته إلى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال ، وله بعد ذلـك أن يعـود إلى محاسبته كيفما شاء .. " بين - ٤٠١ ".

في احتماء فهمي بالقرآن من غضب أبيه مايؤكد أن القرآن هو الحـامي الأكـبر مـن المخـاوف، ومـا يعنينـا هنـا هـو الاختـلاف الجـذرى بـين الأب وابنـه علـى الرغـم مـن استنادهما معاً إلى القرآن الكريم .

الأمر القرآني صريح لا يقبل الجدل : " وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بـأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ". " سورة البقرة ، الآية ١٩٥ ".

السؤال : هل " التهلكة " التي يقصدها القرآن وينهى المؤمنين عن إلقاء أيديهم إليهـا هي التهلكة التي يعنيها أحمد عبد الجواد ويحذر ابنه فهمي منها ؟!.

ألا يحث الله المؤمنين على الجهاد ؟!. أليس فـى القـرآن نفسـه مـا يدعـو إلى الجهـاد ويبشر بأعظم الجزاء للمجاهدين والشهداء ؟!.

لقد بوغت الأب بمنطق ابنه القرآني فعجز عن الرد وانشغل بالبحث عن حجة " من القرآن نفسه " . وفتح الله عليه بقوله :

- ذاك كان جهادا في سبيل الله .

وهو قول لا يعجز فهمي الذى يرد ببساطة :

- جهادنا في سبيل الله كذلـك ، كـل جهـاد شـريف فهـو فـى سـبيل الله . " نفسه - ٤٠١ " .

الخوف الأبوى المشروع يقف وراء استشهاد أحمد عبد الجواد بالقرآن ، والوطنية المشروعة تقف وراء تشبث فهمي بالقرآن أيضا . كلاهما يجتذبي النص القرآني ما يعبر عن رؤيته ويتوافق مع موقفه ويدافع عن رأيه . أليس الحوار تطبيقا عمليا لمقولة أن القرآن حمّال أوجه ؟!.

المصلحة الشخصية تدفع الشيخ عبد ربه وأحمد عبد الجواد إلى التوقف عند الآيات القرآنية التى تحض على طاعة أولى الأمر وتجنب التهلكة ، والمصلحة الوطنية تبرر استشهاد الشيخ خالد وفهمي بالآيات القرآنية التى تعلى من شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله .

القرآن حقيقة خالدة ، والبشر هم المتغيرون الزائلون . القرآن راسخ ، والسياسة هشة. ومن هنا خطورة الزج بالقرآن المقدس في ساحة المهاترات السياسية .

معارضو السلطان شهريار من الشيعة والخوارج يحررون " الصحائف السرية " التى تطفح بتحريم السلطان والولاة وتطالب بالاحتكام إلى القرآن والسنة . " ليالى ـ ٤٧ ".

وبعد هزيمة ١٩٦٧ ترتفع الأصوات وتتداخل ، ومن هذه الأصوات اتجاه يعلى من شأن الدين والقرآن : الدين .. الدين .. الدين ، ما انتصرت إسرائيل إلا بالتوارة فالحرب يجب أن تكون بالقرآن . " الباقى ـ ٩٦ ".

كيف يكون الاحتكام إلى القرآن والسنة ، ومن يجزم بأنهما يؤيدان شهريار أم خصومه؟، وكيف تكون الحرب بالقرآن ؟!.

شعارات سياسية فضفاضة بلا تحديد صارم ، وهو ما يصل إلى ذروته عند جماعة الإخوان المسلمين الذين يمثلون تيار الإسلام السياسى المنظم والأكثر انتشارا فى العصر الحديث .

عبد الوهاب إسماعيل فى " المرايا " قريب الشبه بالمفكر الإسلامى والزعيم الإخوانى المعروف سيد قطب ، يقول للراوى بكل ثقة كاشفا عن يقين لا يتزعزع:

– يجب أن يحل القرآن مكان كافة القوانين المستوردة . " المرايا ـ ٢٦٢ ".

كيف ؟!. بعودة المرأة إلى البيت ، وبنبذ " الخبائث " الشائعة مثل الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوربية والعلم !.

من حقه أن يدلى برأيه ويدافع عنه ، ولكن الخطورة أن تنسب آراؤه إلى القرآن. كيف تتحول اجتهادات البشر إلى قواعد قرآنية وهى محض اجتهادات تستدعى وتستحق الخلاف والاختلاف ؟!.

وما يقوله عبد الوهاب اسماعيل فى إيجاز دال نجده بمزيد من التفاصيل فى "السكرية" حيث يتحول القرآن الكريم عند جماعة الإخوان المسلمين إلى راية وشعار وأسلوب حكم وحياة .

يقول داعية الإخوان الشيخ علي المنوفي لتلاميذه وأتباعه :

– لقد من الله علينا بكتابه فتجاهلناه ، فحقت الذلة علينا ، فلنعد إلى الكتاب، هذا هو شعارنا ، العودة إلى القرآن . " السكرية ـ ٩٩ ".

كيف تكون العودة إلى الكتاب ؟، وكيف يتحول القرآن الكريم إلى سلاح فعال لنجدة المسلمين وعلاج أمراضهم ؟!. الشيخ يتحدث كثيرا ويسهب في الشرح ويؤكد مقولة الاعتماد على القرآن وحده ، ولكنه لا " يترجم " الشعار العام إلى برنامج واضح محدد الملامح .

الإسلام عنده عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية ومصحف وسيف .. " نفسه ـ ٣٥١ ".

والسياسة هي شغله الشاغل إذ يدعو إلى الانتظار إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية : وعندما يهتف الداعى فى الوقت المناسب يهب الإخوان وكل مدرع بقرآنه وسلاحه ..

وكلمات عبد المنعم ليست إلا امتدادا لكلمات أستاذه : فلن نغمد السلاح حتى نرى القرآن دستورا للمسلمين أجمعين .. " نفسه ـ ٣٥١ ".

مالتفاصيل ؟!، وكيف يتدرع الإخوان بالقرآن والسلاح ؟!، وكيف يجعلون من القرآن دستورا يحكم العالم الإسلامي كله ؟!. ألن يتم ذلك بمعرفة مسلمين يفسرون القرآن ويستنبطون منه المبادئ والأحكام في شئون السياسة والاقتصاد وكافة مناحي الحياة الإنسانية ؟. إذا كانت كلمتهم هي الأخيرة الملزمة ، فكيف إذا اختلف معهم فى تفسير وتأويل القرآن مسلمون آخرون ؟!.

ألا يرفض أحمد عبد الجواد مشاركة ابنه فى ثورة ١٩١٩ ويصر الابن على المشاركة، وكلاهما يعزز رأيه بالقرآن ؟!.

ألا يميل الشيخ عبد ربه إلى تأييد الطغاة الذين يرفضهم الشيخ خالد ، وكلاهما يبرر موقفه مستندا إلى القرآن ؟!.

ألا يدعو الخوارج الى الاحتكام للقرآن فى صراعهم مع السلطان شهريار وهم الذين اختلفوا مع الإمام علي بن أبي طالب من قبل وطالبوا بالاحتكام إلى القرآن ، فكانت كلمة الحق التى يراد بها باطل ؟!.

القرآن ملك للجميع ، والسياسة تحدد ما يتم اختياره وهجره من القرآن . لن يعجز كل صاحب مصلحة عن التفتيش في القرآن عن آيات تؤيده وتبرر موقفه وتدحض خصومه وأعداءه .

أليس الأجدى إذن أن ننزه القرآن عن المهاترات السياسية ؟!.

أيهما أسوأ : من يدعي الالوهية عن جهل أم من يطوع القرآن لخدمة أغراضه الشخصية ؟! " رحلة - ٧٠ ".

كلاهما في السوء سواء !.

تفسير القرآن

لا يختلف المسلمون حول حقيقة النص القرآني الذى لا يعرف التبديل والتحوير، ولكنهم يختلفون كثيرا حول تفسيره . مرد الاختلاف إلى تباين الثقافة الدينية من ناحية وتناقض المصالح والأهداف الدنيوية من ناحية أخرى . ولقد أشرنا من قبل إلى نماذج للاختلاف في التفسير بين مسلمين لاشك في إيمانهم : أحمد عبد الجواد وابنه فهمي يختلفان بحدة حول الموقف من ثورة ١٩١٩ ويقدم كل منهما تفسيرا لآيات قرآنية تعينه وتسعفه ، والأئمة الدعاة في قصة " الجامع في الدرب " يختلفون جذريا حول الموقف الصحيح من الحكومة الديكتاتورية والمعارضة الشعبية ويقدمون البراهين والحجج من القرآن مفسرا بما يتوافق مع آرائهم .

الاحتكام إلى القرآن إذن يعني ما نفهمه منه – حسب قدراتنا – أو ما نريد أن نفهمه وفق مصالحنا .

بسطاء الناس لا تتجاوز حاجتهم إلى التفسير الإستفسار عن معنى آية وشرحها المباشر الظاهر ، وهو ما يفعله حسنين بياع عصير القصب المواظب على دورس العصر التي يلقيها الشيخ عبد ربه قبل انحرافه السياسي : وكان قليل السؤال إلا أن يكون ذلك عن معنى آية أو استيضاح لشأن من شئون الفرائض . " دنيا ـ ٥٣ ".

وبسطاء العلم من الغارقين في الطموحات المادية والدنيوية هم الذين يجعلون من التفسير عملا يعفى المفسرين – أو ينبغى أن يعفيهم – من التدخل في شئون الحياة !. هذا ما تمارسه حميدة المستهينة باعتراض السيد رضوان الحسيني على أن تخطب للسيد سليم علوان وتفسخ فاتحتها مع عباس الحلو : فلا تسألى السيد عن زواجى وسليهن إن شئت عن تفسير آية أو سورة. " زقاق ـ ١٤٢".

عليه أن يقنع بالتفسير ويترك الحياة لأصحابها ، وفى رأى حميدة استهانة واضحة بالشيخ والتفسير معا !.

الأكثر علما يخوضون في التفاصيل ويختلفون بلغة تعز على العوام الذين لا يشهدون مجالسهم ، يقدم رضوان الحسيني تفسيرا لمفهوم الانتقام الالهى مستشهدا بالقرآن وشارحا باستفاضة وحماس ، ولكن تفسيره يقابل باعتراضات كثيرة من حاضرى مجلسه الذين يفوقونه علما : فتمسك البعض بالنص ، وأوّل البعض التفسير ، ورد آخرون الانتقام إلى الرحمة .. " نفسه ـ ٢٧٣ ".

العاديون من الناس يبحثون عن المعنى والمصلحة ، والعلمـاء المتخصصـون يتجـادلون ويختلفـون فـى التفـاصيل ، والتجـار أيضـا يتعـاملون مـع كتـب التفسـير كسـلعة تبـاع وتشترى.

قصة " فنجان شاى " تترجم المنشور في الصحيفة اليومية مـن خـلال قـراءة الـراوى لها، ومن وراء الستار يخرج حامل كتب وهو يصيح بصوت عريـض رنـان: مـن ذخـائر التراث ، تفسير القرآن ، طبعة أنيقة مع تعلقيات بأقلام كبـار الأسـاتذة ، والثمـن جنيـه واحد . " شهر - ٧٣ ".

" سلعة " كقوارير الويسكي المعروضة للبيع في المشهد !.

القصة حلم يقظه طويل ممتد ، وفى أحلام النوم أيضا يرى سعيد مهـران عالما يمـوج بالاختلاط ويمتلئ بالتناقض الذى يعبر عن الارتباك والحيرة في واقع كابوسي يتبخر منـه كل ثابت مستقر راسخ ليسود كل مستهتر كاذب مشعوذ . فـى حلـم سـعيد الغرائبـى يظهر الصحفى الانتهازي رءوف علوان واعدا بتقديـم تفسـير جديـد للقـرآن الشـريف يتضمن كافة الاحتمالات التى يستفيد منها أى شخص فى الدنيا تبعا لقدرية الشرائية!.

ويقول سعيد - فى الحلم - إنه مستعد أن يعمل أمينا للصندوق فى إدارة التفسير الجديد .. " اللص - ٨٥ ".

لا قوانين تحكم الأحلام ، ولكن مادة الحلم تكشف عـن قوانـين الواقـع بشـكل غـير مباشر. أليس فى تحول أمثال رءوف إلى مفسرين للقرآن ما يكفى للتدليـل علـى مـا آل إليه الواقع من تدهور وانهيار ؟!.

القرآن والإعلام

ثمة علاقة وثيقة بين القرآن الكريم والاعلام المسموع والمرئى ، الإذاعة والتليفزيون .

مع بداية انطلاق الارسال الإذاعى فى مصر كان محتما أن يحتل القرآن مكانة بارزة فى البث ، وهو ماأثر كثيرا على المسلمين وحظى بنسبة استماع عالية .

لعل رؤبة لاظ ، بحكم طبيعة شخصيته وسلوكه غير الدينى ، هو آخر من يقبل التأثر بالقرآن الكريم وأول من يثبت – إذا تأثر – خطورة الدور الذى تلعبه الإذاعة فى نشر الوعى الدينى والثقافة القرآنية . وفى حوار له مع ابنه كامل يدافع عن نفسه وممارساته قائلا : وهم يقولون عادة أنى مخطئ ، وأنا أقول إنهم لمخطئون ، فالله يفصل بيننا يوم القيامة.

من أين له هذا الاقتباس القرآنى وهو الغارق ليلا ونهارا فى الخمر ؟. هو نفسه يتولى مهمة الشرح والتوضيح : لا تدهش إذا سمعتنى أقتبس من القرآن !، فإنما الفضل فى ذلك إلى الراديو .. " السراب ـ ١٤٢،١٤٣".

الفضل فى الراديو الذى يذيع التلاوة القرآنية والبرامج الداينية ، ولا يستطيع رؤبة أن ينجو من التأثير "اللغوى " على الأقل !.

لا تقتصر برامج الراديو على القرآن وحده بطبيعة الحال ، وأذواق الناس تتطلب التنوع بقدر ما أن حريتهم تحتم الاختيار .

لقد دخل الراديو إلى منزل السيد أحمد عبد الجواد ، وانطلقت منه الأغانى التى لا تحبها أمينة : ولم تكن أمينة ترتاح إلى هذه الأغانى إلا فى النادر . إن فضيلة الراديو الأولى فى نظرها أنه أتاح لها سماع القرآن والأخبار . " السكرية ـ ٩ ".

القرآن للدين والأخبار للدنيا ، والأغانى خارج دائرة الاستماع !. المميزة الأولى فى الراديو تتمثل فى إذاعته للقرآن ، وعندما يتقدم الإنسان فى العمر وتصعب قدرته على الحركة ويضمحل نشاطه ، فإن الراديو والتليفزيون هما السلوى ، والقرآن والأخبار هما أفضل ما يعين على قضاء الوقت وقهر الوحدة . ومحتشمى زايد هو أكثر شخوص نجيب محفوظ استماعا للقرآن فى الراديو والتليفزيون .

مع بداية ظهور محتشمى زايد فى الرواية نتعرف على برنامجه اليومى : ... واستمع إلى قرآن الصباح فى الراديو . " يوم ـ ٦ ".

محتشمي طامح إلى الولاية والمعجزات بقدر عشقه للدنيا ومباهجها ، ولذلك فهو لا يقتصر على الاستماع إلى القرآن وحده : أمضي وحدتي مستمعا للقرآن والأغاني والأخبار في رحاب الراديو أو التليفزيون . " نفسه - ٨ ".

إذا كانت أمينة مولعة بالقرآن والأخبار وحدهما ، فإن محتشمي يضيف إليهما الأغاني ويجمع بين الراديو والتليفزيون . وهو إذ يفعل ذلك يصل إلى صياغة موجزة تنم عن إدراكه لخطورة الدور الذي يلعبه الجهازان في حياة أمثاله : القرآن والأغاني . طوبى لكم يا من اخترعتم الراديو والتليفزيون . " نفسه - ٢٢ ".

طوبى لهم ، فلولا ما اخترعوا لضاقت الدنيا وتجهمت أكثر مما هي ضيقة ومتجهمة!.

تتنوع المواد الإذاعية ، ولخطورة القرآن وجلال تأثيره وعظيم شعبيته فإنه ينفرد بإذاعة خاصة تمثل جزءا من البرنامج اليومي للسيد طيب المهدى في قصة " الرجل القوى " : ولم يبق له إلا السمر مع زوجته ومؤانسة التليفزيون وقراءة الصحف وسماع القرآن في إذاعته الخاصة . " القرار - ١٣٧ ".

وإذا كنا قد توقفنا فيما سبق عند الدور الذى يلعبه القرآن في الإذاعة والتليفزيون وتأثيره على الأفراد ، فإن دورا آخر للقرآن – يتجسد من خلال الإذاعة والتليفزيون – كمؤشر سياسي رسمي في المناسبات المتعلقة بالموت . نجد تفاصيل هذا الدور عند الموت المفاجئ للرئيس جمال عبد الناصر : فذات مساء تغير وجه الإرسال التليفزيوني فاقتصر على إذاعة القرآن الكريم . ولفّت الحيرة الناس من كل جانب . قال البعض :

– هذا لا يكون إلا لموت عظيم في الدولة .

– أو موت أحد ضيوفنا العرب !

– غير مستبعد أن يكون الملك حسين قد قتل .. " الباقي - ١٢٥".

لا يعنينا هنا أن الأذهان لم تقترب من مجرد التفكير في الموت جمال عبد الناصر ، ولكن ما يلفت النظر هو الاتفاق على وجود " حالة موت " مهمة تستحق أن يتغير وجه الارسال من أجلها حتى يقتصر على القرآن الكريم وحده .

الموت " الرسمي " إن صح التعبير - يتم التمهيد له من خلال إذاعة القرآن في الراديو والتليفزيون ، وهذا ما حدث عند موت عبد الناصر ثم عند اغتيال السادات .

محاولة الاغتيال تعقبها إذاعة الأغاني والأناشيد الوطنية ، ويتلهف الجميع على معرفة الحقيقة. ويتساءل أحدهم :

– هل نسمع القرآن بعد الأناشيد ؟!. " يوم - ٨١ ".

إنه لا يذكر الموت صراحة ، ولكن إذاعة القرآن تعنى الموت !. ربما كان يسخر أو يتفكه أو يتمنى ، ولكن التوقع صح : وتحملنا الوقت على تقله حتى صحت النكتة وبدأت التلاوة . " نفسه - ٨١ ".

وتأكد خبر الموت قبل إعلانه !.

القسم بالقرآن

كيف يبرهن المرء على صدقه ؟!. بالقسم . وهل يوجد ماهو أعظم قداسة وجلالا من القرآن الكريم لكى يتأكد السامعون أن الحالف لا يحنث فى قسمه ولا يقول إلا الصدق ؟!.

فى قصة " المسطول والقنبلة " يصيح المتهم البرئ أيوب حسن طمارة فى المحقق :

- أنا برئ .. وحق كتاب الله برئ .. " خمارة - ٢١٣ ".

وإذا كان أيوب يقسم بـ "حق كتاب الله" أنه برئ ، فإن آخرين يمارسون القسم بالكتاب الكريم المقدس للبرهنة على صحة ما يصعب تخيله وتصديقه .

هل يصدق أحد أن الفتوة الذى يقود جيشا من الأتباع فى قصة " الخلاء" هو شرشارة الذى أُجير فى الزمن القديم على تطليق زوجه ليلة زفافه حتى يتزوجها الفتوة لهلوبة ؟!. عم زهرة لا يصدق أن العائد القوى هو صبيه القديم ، وكأنما يقنع نفسه عندما يصيح :

- شرشارة ؟!.. وكتاب الله هو شرشارة ولا أحد غيره !. " نفسه - ٣٧ ".

وهل يصدق أحد أن الصعلوك المتشرد عصام البقلى فى قصة " خطة بعيدة المدى " قد تحول فى لحظة واحدة إلى مليونير يملك نصف مليون من الجنيهات ؟!. المليونير عصام البقلى.. بعد الصعلوك المتسول عصام البقلى . كل من بقى على قيد الحياة من الأصدقاء القدامى هتف " أما سمعتم بما حصل للبقلى؟ " ، " ماذا حصل للصعلوك ؟ " ، " البيت القديم اشترته شركة الانفتاح بنصف مليون ؟" ، " نصف مليون !! " ، " وكتاب الله ". " الفجر - ٧٨ ".

وهل يصدق أحد أن ماسح الحذية العجوز عشماوى - وعمره يتراوح بين السبعين والثمانين - قادر على مضاجعة زوجه مرتين فى ليلة واحدة :

- مرتين ؟!

- وحق كتاب الله !. " الحب تحت - ٣٦ ".

أفعال أقرب إلى الخوارق والمستحيلات : الضعيف يتحول إلى فتوة ، والفقير الصعلوك إلى مليونير ، والعجوز إلى فحل ؛ والقسم بكتاب الله هو الأداة الوحيدة لإثبات أن هذه التحولات والعجائب ليست من باب الأكاذيب والإشاعات !.

وقد يأتى القسم لتأكيد انتفاء المجاملة فى الأمور النسبية وغير الخطيرة .

أم كامل رؤية لا تحتاج إلى القسم وهى تمدح جمـال ابنهـا وأناقتـه ، ولكنهـا تفعـل: كالقمر وحق كتاب الله !. " السراب ـ٧٥ ".

في النماذج السابقة جميعا يأتي القسم بدوافـع ذاتيـة لا إجبـار فيهـا ، وفـى حـالات أخرى يطلب القسم بالقرآن ليطمئن الطالب ويتيقن من صدق ما يسـأل عنـه . للقـرآن قداسته ومكانته في قلوب المسلمين جميعا ، فمن ذا الذى يجرؤ أن يقسم كاذبا ؟!.

أم أمينة ، العجوز الضريرة ، تفعل ذلك مع جاريتها صديقـة : ولم يكـن بالنـادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن إلى صحة تقاريرها عـن غسـل الحمـام والأوانـى وتنظيـف النوافذ . " بين ـ ١٩٨".

وواحد من أعوان المرشح ابراهيم فرحات يخاطب ناخبي زقاق المدق أثناء اجتمـاعهم في قهوة المعلم كرشة قائلا : لكم ما تريدون ، ولنا القسم بكتاب الله ، وبالطلاق .. " زقاق ـ ١٥٠ ".

والأم في قصة " الحاوى خطف الطبق " تقول لابنها الذى يدعى ضياع القرش منه :

– تقسم على المصحف أنك لم تشتر به شيئا ؟

ويرد الطفل الواثق من صدقه :

– أقسم . " تحت ـ ٥٨ ".

هل تكذب الجارية صديقة في ادعاء التنظيف ؟، وهل يكذب الناخبون في وعودهم بتأييد المرشح ؟، وهل يكذب الطفل في زعمه بضياع القرش ؟. القسم على القرآن هـو الفيصل والحكم .

في هذا السياق يمكننا أن نفهم الحرج الذى استشعرته عائشة عبد الجواد ودفعهـا إلى الصمت عندما طلبت حماتها " شهادتها " في الصراع الحامي المستعر بينها وبين خديجة. إذ تحس المرأة العجوز أن غريمتها خديجة قد نالت بعض العطف ، تقول بتحد :

– هاكم عائشة أختها !، إنى استحلفك بعينيك ، أستحلفك بالقرآن الشريف إلا ما شهدت بما سمعت ورأيت .. " قصر ـ ٢٦٤ ".

هل تشهد عائشة بالحق وتغضب شقيقتها ، أم تشهد بالباطل وتخسر ضميرها الدينى وحماتها معا ؟!. مأزق لا مهرب منه إلا بالصمت .

أما الذروة فنجدها في الصراع غير المتكافئ بين أحمد عبد الجواد وابنـه فهمـى أثنـاء اشتعال ثورة ١٩١٩.

الصدفة وحدها هى التى قادت أحمد عبد الجواد إلى آكتشاف أن ابنه فهمى "مجـاهد" يعرفه المجاهدون ممن يعملون معه في لجنة واحدة ، ونصائحه لإبنه بالكف عن أى نشاط

ثورى لا تجد معارضة حقيقية من فهمي . ولكن الأب لا يقنع بالوعود الصامتة ، ويفكر في إجراء " مضمون " ليتأكد من التزام ابنه بالابتعاد عن موارد التهلكة والأنشطة المميتة : قام الأب فجأة واتجه إلى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئا ثم عاد إلى مجلسه حاملا القرآن ، ونظر إلى فهمي مليا ثم مد يده بالكتاب إليه وهو يقول :

– أقسم لى على هذا الكتاب ..

وتراجع فهمي بحركة عكسية ندت عنه قبل أن يتدبر أمره ، كأنما يفر من لسان لهب امتد إليه فجأة ، وتسمر في موقفه وهو يحملق في وجه أبيه مرتبكا مذعورا يائسا، فلبث السيد مادا يده بالكتاب وهو ينظر إليه في غرابة وإنكار ، ثم أحمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف ، وتساءل في ذهول وكأنه لا يصدق عينيه :

– ألا تريد أن تقسم ؟!

ولكن لسان فهمي انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد حراكا ، فتساءل الرجل بصوت هادئ تخللته رعشته متهدجة أنذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينذر البرق بقعقعته الرعد:

– أكنت تكذب عليّ ؟. " بين ـ ٤٠٣".

تصرف أحمد عبد الجواد يوحي بإدراكه أن القسم على الكتاب سيمنع فهمي من المشاركة في نشاط الثورة ، ورد فعل الأبن " كأنما يفر من لسان لهب امتد إليه فجأة"يكشف عن إدراك الشاب الجامعي الثورى لخطورة أن يقسم ويحنث – لو أطاع وأقسم لوجب عليه الالتزام والامتناع عن النشاط ، وليس في مستطاعه – وهو المتدين ذو الضمير الحي – أن يقسم ويستمر في العمل الذى تعهد – والقرآن شاهد – أن يكف عنه ويمتنع .

ولقد فهم أحمد عبد الجواد حيلة ابنه الذى لا يرى حرجا في أن يكذب بلا قسم ، ولكنه يجد الحرج – كل الحرج – في أن يقسم بالقرآن ويحنث . لذلك يستمر الصراع، ويتناول الأب الكتاب مرة أخرى :

– أقسم .. آمرك بأن تقسم ..

ونهض السيد والكتاب في يده فاقترب خطوة منه ثم زعق ..

لم يملك فهمي عند ذاك إلا أن يبكي .. " نفسه – ٤٠٤ ".

البكاء هو السبيل الوحيد للخروج من حصار الصراع العنيف المشتعل في قلب الابن: الاستمرار في الثورة الوطنية ، تجنب إغضاب أبيه ، الإصرار على عدم القسم الكاذب . ثلاثية مدمرة تحاصره ولا تنفيس إلا بالبكاء كخلاص مؤقت .

لم يحاول فهمي بعد بكائه وهروبه أن يسترضي أباه ويصالحه : خشية أن ينكأ الجرح دون أن يسعه أن يلأمه ، لأنه قدر أن يدعوه السيد إلى القسم تكفيرا عما بدر منه فيضطر مرة أخرى إلى الا متناع مؤكدا عصيانه من حيث أراد أن يعتذر عنه . " نفسه - ٤٦٦ ".

وأحمد عبد الجواد نفسه يبدو مشغولا ومهموما بـ " عصيان " أبنه كما يتجلى في قوله للشيخ متولى عبد الصمد : ولكنى دعوته إلى أن يحلف على المصحف بألا يشترك في أى عمل من أعمال الثورة فبكى .. " نفسه - ٤٤٧ ".

يتجنب فهمي مصالحة أبيه خوفا من مواجهة الامتحان الرهيب من جديد ، ولا ينسى أحمد عبد الجواد " عصيان " أبنه وإن " تجمل " حتى لا يواجه نفسه - قبل الآخرين - بأن أحد أبنائه - وأفضلهم - قد خالف له أمرا !.

اى تأثير سحرى للقرآن ؟! وأى أثر يتركه في القلوب والعقول ؟! وأى مغزى عميق الدلالة في ميل فهمي إلى احترام القرآن وقداسته على حساب طاعة أبيه التى تمثل فرضا تقليديا في تربيته ؟!. انتهت الثورة ، ونجا الإبن من أهوالها قبل أن يموت في المظاهرة السلمية التى نظمت ابتهاجا بنجاحها ، و لم ينس أحمد أن ابنه قد أمتنع عن طاعته : امتناعه عن القسم لا يزال يحز في نفسي . " نفسه - ٤٦٨ ".

فهمي ضمير حى معذب ، ولكن فاقدى الضمير لا يعبأون بشئ . وهل أدل على ذلك من أن المهندس على بكير يقول لصديقه سرحان البحيرى بعد أن انتهى من ترتيب إجراءات السرقة:

- أنا المهندس المختص وأنت المشرف على حسابات القسم ، سواق اللورى مضمون ، وكذلك الخفير ، لم يبق إلا أن نجتمع للقسم على القرآن ..

يضحك سرحان رغما عنه ، وينظر إليه على بكير متسائلا قبل أن يدرك " النكتة " التى أفلتت منه بلاقصد . ضحك بدوره ، ثم قطب قائلا:

- ليكن ، إنه مال بلا صاحب .. " ميرامار - ٢٠٨ ".

كيف يكون القسم على القرآن لتنفيذ عمل غير مشروع ؟!، وكيف يبحث المهندس فاقد الضمير عن تبرير للنكتة فيزعم أن المال بلا صاحب ؟!.

القرآن يتغلغل في نفوس الجميع ، حتى عتاة اللصوص !.

نهاية المطاف

يلعب القرآن الكريم دورا محوريا في بناء عديد من شخصيات نجيب محفوظ، ويتم ذلك بأساليب مختالفة تتوافق مع طبيعة الشخصية : مأمون رضوان فى " القاهرة الجديدة"، عاكف أفندى وابنه أحمد فى " خان الخليلى "، رضوان الحسينى فى " زقاق المدق "، كامل رؤبة لاظ فى " السراب "، حسنين كامل فى " بداية ونهاية "، الشيخ علي الجنيدى فى " اللص والكلاب "، عامر وجدى فى " ميرامار "، محتشمى زايد فى " يوم قتل الزعيم ".

يتجسد المؤثر القرآنى من خلال سور وآيات بعينها عند بعض هؤلاء الشخوص ، وهو ما نتوقف عنده تفصيلا فى متن الدراسة ، ويتجلى التأثير بشكل عام عند شخصيات أخرى . وما يعنينا هنا هو ارتباط القرآن بنهاية العمر ، حيث يمثل السلوى الوحيدة والأمل الأخير عند العجائز والعاجزين الذين يقتربون من محطة النهاية . أليس هذا ما يفعله العجوزان عامر وجدى ومحتشمى زايد !.

محتشمى يبدو واضحا وهو يهيئ نفسه لملاقاة ربه معتزا بأنه لم يقدم أذى لإنسان فى العالم الحافل بالأذى والشيخوخة قضيتها جوّلا بين كلماتك وأنبيائك وأوليائك " يوم ـ ٧٦ ".

ولا يتعارض طموح محتشمى إلى الكرامة والولاية مع تشبثه بالحياة وولعه بمتابعة أحداثها ، فهو يقضى أيامه الأخيرة موزعا بين الدين والدنيا دون إحساس بوجود تناقض بينهما : اليوم يمضى بين العبادة والتلاوة والطعام والأغانى والأفلام . " نفسه ـ٤٢ ".

محتشمى زايد وعامر وجدى عاشا حياة حافلة توجت بالقرآن ، أما عاكف أفندى فيمثل نموذجا مثاليا لما نعنيه بالتفرغ الكامل لقراءة القرآن قرب نهاية العمر ، وهو عمر خامد لا حيوية فيه ولا توهج .

قطع عاكف صلته بالحياة والأحياء عن اضطرار وعجز ، ومنذ بداية الرواية نجده متربعا على سجادة الصلاة والمصحف بين يديه يتلو ما تيسر منه فى صوت مسموع ، غير منتبه إلى أخطاء القراءة العديدة التى يتتابع عثوره بها . " خان ـ ٢٣ ".

السجادة والمصحف هما الملاذ والملجأ بعد أن أغلقت أبواب الحياة أمامه وهو فى قمه رجولته . ليس الدافع هنا هو العجز والاستسلام للموت ، ولكنه اليأس من التواصل مع الحياة والأحياء : وفرض على نفسه عزلة قاسية عقب إحالته على المعاش وهو فى

أواسط العمر ومشرق الأمالي ، وبهذا كأنه كرس حياته للعبادة وتلاوة القرآن . " نفسه ـ ٢٣ ".

القراءة حافلة بالأخطاء التي تنم عن محدودية ثقافة الرجل بما لا يؤهله للمقارنة مع محتشمي وعامر المثقفين الكبيرين ، والقراءة تعبير عن إفلاس الرجل وقلة حيلته وعجزه عن مواجهة الحياة بخلاف العجوزين المتوهجين بثراء لا حدود له ، والوجود الروائي لعاكف أفندي ـ وهو محدود باهت ـ لا ينفصل عن السجادة والكتاب . " نفسه ـ ٧٦ ".

استغراقه في العبادة والتلاوة لا يحول بينه وبين العالم ، ولكن بقدر محدود . فإذ يبث الراديو محاضرة عن مرض السل ، وهو المرض الذي يهدد حياة ابنه رشدي ، يرفع رأسه عن القرآن الذي يتلوه ويميل نحو النافذة ليستمع . " نفسه ـ ٢٣٤ ".

إنه في حالة سكونية لا تثير دهشة أحد ممن حوله ، ولكنه قد يواجه ببعض الامتعاض من زوجه المقبلة على الحياة والمحبة للمرح والسخرية : .. كان صدرها يضيق إذا رأت بعلها مكبا على القرآن ، وبكرها عاكف على مكتبه ، فتصيح بهما : " هلا علمتماني القراءة لأحاور معكما ! ". " نفسه ـ ٢٥".

لا يمثل عاكف أهمية خاصة في عالم نجيب محفوظ ، ولكنه يسجد نمطا من البشر يتفرغون للعبادة والقرآن قرب نهاية العمر .

حسن وهبي ، القتيل الأول في قصة " ضد مجهول " ، نموذج مماثل بقدر ما نعرف عنه من تفاصيل محدودة . مدرس بالمعاش ، فوق السبعين، يعيش وحيدا ، ونظامه اليومي لا يزيد عن قراءة الجرائد وتلاوة جزء من القرآن بصوت مسموع . " دنيا ـ ١٠١ ".

وشيوخ قهوة " الكرنك " لا يختلفون كثيرا عن عاكف أفندي وحسن وهبي ، وفي ثرثرتهم اليومية يتبادلون النصائح والوصفات التي تنتهي بمقولة شاملة جامعة : وبعد كل شئ وقبل كل شئ قراءة القرآن . " الكرنك ـ ٣٢ ".

ويقف صادق صفوان في منطقة وسطى بين التوهج والخمول . لقد أمضى حياته عاملا في دأب وإصرار ، وسعى قدر طاقته إلى الجمع بين الدين والدنيا ، ولكن مع قرب النهاية يتخذ موقفا يحتمه عليه الكبر والمرض : باع دكانه ، وتفرغ لتربية نهى ، ومهادنة الروماتيزم ، وقراءة القرآن والحديث . " قشتمر ـ ١٢٧ ".

ولا تختلف دنانير عن صادق . عاشت حياتها عاملة وحيدة : حتى أحيلت على المعاش وأوت إلى ظلمة ظلمات الوحدة . ولم يعد لها من عزاء في هذه الدنيا سوى العبادة وتلاوة القرآن . " حديث ـ ٨٩ ".

لماذا يمثل القرآن ملاذا عند التقدم في العمر ؟!. لأن العجز عن التمتع بالحياة يمثل دافعا قويا للانكباب على العبادة . إذا تحقق مثل هذا العجز في ريعان الشباب ، وإذا اقترب الموت قبل المألوف والمعتاد لأسباب مرضية ، تصبح العبادة واجبة والتلاوة ضرورة وسلوى وأملا .

تعرض رشاد نعمان الرشيدى لإصابة خطيرة في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وبترت ساقاه: صلى وعزم على الصيام والزكاة ومضى يقرأ القرآن والبخارى ويزداد تقبلا لقدره ورضا عنه . " الباقي ـ ١٤٤".

شاب هو ، ولكن لا يحمل مؤهلات الشباب من الحركة والحيوية . وفي سكونه يماثل العجائز ويقتدى بهم .

أما رشدى عاكف فيستفحل مرضه حتى يتيقن من النهاية ، وإذا بالشاب المليئ بالحيوية والنشاط يصل إلى نهاية المطاف ويلوذ بأحضان القرآن تائبا مستغفرا كاشفا عن جوهر شخصيته المؤمنة ، على الرغم من اللهو والعبث والخمر والقمار والنساء : واستيقظ في صباح اليوم الثاني أهدأ نفسا وأهدأ قلبا . لما جاء أحمد يصبح عليه طلب إليه أن يعيره القرآن . وأتى الرجل بالكتاب الشريف فتناوله الشاب بسرور وسأله :

– أليس من الحرام أن ألسمه ولما أستحم منذ أشهر ؟!

فقال له مبتسما :

– عذرك مقبول عند الله ..

ومضى يقرأ الكتاب ، ولولا خوف السعال ، لتلاه بصوته العذب . ووجد في القراءة لذة وسلاما ، واطمأن بذكر الله قلبه ، ونسى به الحنين إلى الماضى السعيد ، والحسرة على مافات منه ، والندم على ما فرط منه فيه ، بل نسى به التوجع الدائم لما صار إليه حاله ، واليأس من الشفاء الذى قبض قلبه منذ أمس ، والخوف من النهاية التى تتخايل لعينيه ، وفر أخيرا من آلامه ومخاوفه لائذاً بالاستسلام والتسليم والصبر والتوكل على الله. ووجد ارتياحاً في الإذعان المطمئن إلى إرادة الله وقضائه . " خان ـ ٢٣٥، ٢٣٦ ".

لا يملك مصحفا فيضطر إلى استعارته من أخيه ، ويتساءل عن جواز أن يلمس القرآن دون طهارة ، ويندمج في القراءة مدركا ما في القرآن من لذة وسلام . بالتلاوة

فى اللحظات الروحية الخالصة ينسى ما فات ويندم على الإفراط ويتوافق مع واقعه ويصل إلى راحة اليقين ومتعة الاستسلام للموت .

قد لا يكون عجوزا بشهادة الميلاد ، ولكنه يواجه اللحظة التى تقترن دائما بكبار السن الذين تحاورهم أشباح الموت وتسيطر عليهم هواجسه .

القرآن والفكاهة

يمكن التمييز بين نمطين من الفكاهة المرتبطة بالقرآن : النمط الأول يقترن بآيات محددة وهو ما تعرض له في متن الدراسة ، والنمط الثاني يدور حول عموم القرآن الكريم دون تحديد لآيات بعينها وهو ما يعنينا هنا .

القرآن نفسه ليس موضوعا للفكاهة بطبيعة الحال ، ولكن ممارسات البشر هي التي تفجر المفارقات الباعثة للسخرية والفكاهة .

لا يستطيع عثمان بيومي أن يغادر غرفة العاهرة قدرية بعد اشتداد المطر وجعجعة الرعد : ولما طال الوقت تناول من جيبه مذكرة مدونا بها ملاحظات من دروسه وراح يقرأها - كعادته - بصوت مسموع . وسألته قدرية :

- قرآن ؟

فهز رأسه بالنفي وهو يبتسم . " حضرة ـ ٤٤ ".

كل قراءة بصوت مسموع هي قرآن عند العاهرة . وليست المفارقة في الخلط المبرر بالجهل بين القرآن والمواد الدراسية ، ولكن في أن الأمر كله يدور في بيت دعارة !.

وعباس فوزي يرصد غاضبا ما جناه أحد تلاميذه من أرباح نتيجة تأليف كتب دينية عن النبي والقرآن ، ويتساءل في أسى :

- كيف فاتني ذلك الباب الذهبي ؟!.

ويسأل الراوي :

- أتعلم ما هي الثروة الحقيقية في بلاد العرب ؟

وأجاب بنفسه :

- ليست البترول ، ولكنها السيرة النبوية والقرآن .. " المرايا ـ ٢٣٦ ".

كلمات غاضبة حانقة كأنه يتحدث عن سلعة وتجارة وليس عن القرآن ، وتزداد المفارقة باندماج عباس - وهو ملحد - في استثمار الكتابة عن الدين والقرآن ليحقق ربحا بالمشاركة مع ملحد مثله !.

قدرية وعباس لا يسخران من القرآن ، ولكنهما يتوقفان أمام ممارسات غير سوية مرتبطة به : قراءة عثمان في مذكراته الدراسية التي تظنها قدرية قرآنا ، ومتاجرة تلميذ عباس بالقرآن والدين في صورة كتب تدر أرباحا خيالية !.

وقد تتوجه السخرية إلى أشخاص يتشبثون بالقرآن ، وهي سخرية من أشخاص دون الكتاب نفسه .

يرفض رضوان الحسيني أن تفسخ أم حميدة فاتحة إبنتها مع عباس الحلو وتنتقل إلى سليم علوان ، ولا تروق هذه " الفتوى " لحميدة فتعلن الحرب على الرجل الذى يقف في طريق سعادتها وتشكك في قدرته على فهم أمور الحياة : فلا تسألى السيد عن زواجي وسَلْيه إن شئت عن تفسير آية أو سورة !. " زقاق - ١٤٢ ".

حدود رضوان في القرآن وتفسيره ، أما الزواج فيتجاوز علمه وقدراته !. تستهين حميدة بمدارك الشيخ وتأبى إلا أن تضرب برأسه - فتواه - عرض الحائط !.

وليلة زواج عبد المنعم شوكت من نعيمة ، يستدعى أحمد عبد الجواد حفيده إلى مقابلته : وطلب إليه أن يتعهد بإتمام دراسته ، فتكلم عبد المنعم كلاما جميلا مرتجلا مستشهدا في أثناء ذلك بالقرآن والحديث ، فترك في نفس جده آثارا متباينة من الإعجاب والسخرية . " السكرية - ١٤٤ ".

الاستشهاد بالقرآن والسنة مثير للإعجاب ، أما طريقة عبد المنعم بما فيها من مبالغة فتثير الامتعاض والسخرية !.

ولكمال عبد الجواد في طفولته ممارسات ومواقف فكاهية تتعلق بالقرآن .

إنه يخاف أباه أكثر مما يخشى العفاريت ، وله منطقه : فالعفاريت لا سبيل لها على من يدرع بآيات الله ، أما أبوه فلن يدرأ غضبه عنه إذا ثار أن يتلو كتاب الله كله .. " بين - ٥٠ ".

طفل يحكمه منطق الأطفال وما يعيه من قوانين الواقع المعيش . بالفاتحة والصمدية ينجو كمال من العفاريت ، أما غضب أبيه فلا يفلح القرآن كله في ترويضه !.

وكمال المولع بالغناء يجد نفسه مضطرا إلى الكذب خوفا من أبيه ورغبة في إرضائه، فليلة فرح عائشة يسأله محمد عفت صديق أبيه الحميم :

- الا تحب أن تسمع شيئا ؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه :

- القرآن الشريف .

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأت له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلا :

- إن صح هذا فالغلام ابن زنا . " نفسه - ٢٤٤ ".

الإجابة لا تستهدف الحق ، ولكنها تروم رضا الأب . ويعلم كمال أن في إعلان حبه لسماع القرآن ما يرضي الأب وإن أغضب الحقيقة . أحمد عبد الجواد نفسه يعلم

كذب ابنه ، وكذلك يعرف الأصدقاء، ولكن كمال نفسه لا يفكر إلا في الإجابة المناسبة المنقذة من الغضب وما يترتب عليه من عقاب !.

وثمة فكاهة أخرى ترتبط بسلوك أشخاص يحظون بالسخرية التي تتخللها الإشارة إلى القرآن .

إسماعيل قدرى موظف بسيط فى دار الكتب ذى دخل محدود ، ومناجاته لإمرأة في شارع الجبلاية يثير تعليقات شتى من أصدقائه ، ومن هذه التعليقات ما يقوله حمادة الحلواني لتفسير قدرته المالية :

– أراهن أنه اختلس المصاحف الثرية من دار الكتب وباعها.." قشتمر ـ ٨٦".

ليست سرقة عادية ، ولكنها سرقة المصاحف الأثرية !.

وربما كانت هذه السرقة المتوهمة أقل إثارة للدهشة مما يقوله المهندس على بكير لشريكه سرحان البحيرى بعد ترتيب كافة الإجراءات الخاصة بسرقة الشركة التى يعملان بها :

– لم يبق إلا ان نجتمع للقسم على القرآن . " ميرامار ـ ٢٠٨ ".

القسم على القرآن من أجل السرقة !.

عثمان بيومى الموظف المجتهد وقدرية العاهرة وعباس فوزى عالم التراث الملحد ورضوان الحسيني المتدين الورع وحميدة المادية الطموحة وأحمد عبد الجواد متعدد الوجوه وعبد المنعم الإخوانى وكمال عبد الجواد الطفل وحمادة الحلونى الثرى العاطل وإسماعيل قدرى السياسى البائس وعلى بكير المهندس المختلس ؛ جميعهم يشاركون فى فكاهات تتعلق بالقرآن ولا تسخر منه . البطولة فى فكاهاتهم لسلوكيات وتصرفات وأفعال يدخل القرآن الكريم طرفا فيها .

مرة واحدة ينتقل الأمر من الشخوص إلى الروائى نفسه عندما يختتم تقديمه الأول لشخصيته الشيخ درويش قائلا : بيد أنه رجل محبوب مبارك ، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرا، ويقولون عنه إنه ولى من أولياء الله الصالحين ، يأتيه الوحى باللغتية العربية والانجليزية . " زقاق ـ ١٥ ".

" يقولون عنه " ، وينقول الراوى ما يقال . الوحى من المفردات المرتبطة بالقرآن ، ودرويش – المجنون باللغة الانجليزية – يأتيه وحى خاص باللغتين معا !.

القسم الثانى

دراسة معجمية

تعرضنا في التمهيد لعموم الموقع الذى يحتله القرآن الكريم فى عالم نجيب محفوظ ، وفي القسم المعجمي نتوقف أمام السور القرآنية بترتيب ورودها في المصحف .

كيف استخدم نجيب هذه السور فى عالمه ؟

وكيف تعاملت شخصياته معها ؟

وكيف تأثرت الأحداث بها ؟

وهل تم التواصل مع النص القرآني بشكل مباشر أم غير مباشر ؟

كل هذه الأسئلة يجيب عنها متن المعجم ، وفى الإجابات ما يبرهن على صحة ما سعى التمهيد إلى إثباته من حيث مكانة القرآن الكريم فى الواقع المصرى وارتباطه الوثيق بكافة مناحى الحياة اليومية .

وقد رأيت أن يرد نص الآية موضوع التحليل كاملا مع الإشارة إلى رقمها فى السورة، ثم يأتى التحليل بعد ذلك . ومن البدهى أن الدراسة لا تكتفي بما ورد كاملا من الآيات فى أعمال نجيب محفوظ ولكنها تتعامل مع كافة الإشارات والإحالات والتضمينيات التى تمت بصلة واضحة إلى آيات القرآن الكريم . وفى حالة تكرار معنى الآية في سورتين مختلفتين ، نقنع بالتوقف أمام السورة الأولى على أن يشار إليها بإيجاز عند الوصول إلى السور التالية التى تضمنت المعنى نفسه .

" بسم الله الرحمن الرحيم "

"بسم الله الرحمن الرحيم" بداية السور القرآنية ، وهى بداية لكل بداية ومدخل لكل مدخل ، أو كما يقول الرحالة قنديل محمد العنابى الشهير بابن فطومة : وكل فعل جميل أو قبيح يستهل باسم الله الرحمن الرحيم . "رحلة ـ ٥ ".

كل فعل جميل أو قبيح يبدأ بالبسملة ؟. لا تخلو المقولة من مبالغة ، ولكنها لا تخلو أيضا من الصواب . وفى عالم نجيب محفوظ ما يدلل على الصدق النسبى لما يقوله الرحالة.

ينتقل أحمد عاكف من " السكاكينى " إلى " خان الخليلى " وأول دخول له إلى المسكن الجديد يبدأ بالبسملة: ثم اقتحم الباب مغمغما " بسم الله الرحمن الرحيم ". " خان ـ ٨ ".

وبها أيضا يبدأ تناول الطعام كما نجد في إحدى لوحات " أصداء السيرة الذاتية " : ودعاني للعشاء فجلست .

وماكدنا نبسمل حتى ترامي إلينا .. " أصداء ـ ٧٨ ".

" بسم الله الرحمن الرحيم " مراودة للبركة فى المسكن والمأكل ، وهما مما يدخل فى باب الافعال الجميلة . وبالبسملة نفسها تتضح بدايات الحب والهزل عند آخرين .

يضع رشدى عاكف راحتيه حول قذاله كمن ينوى الصلاة ويتمتم قائلا : " بسم الله الرحمن الرحيم ، نويت الحب ، والله المستعان ! ". " خان ـ ١١٤،١١٥".

وبهذا الطقس الهزلى الكاريكاتورى الغريب ، يفتتح رشدى علاقته العاطفية الجديدة مع جارته !.

ويحتج عبد الرحيم باشا عيسى على رغبة " ضيفيه " الجميلين رضوان ياسين وحلمى عزت فى الانصراف المبكر، وثلاثتهم فى الشذوذ الجنسى سواء ، لأن السهرة لم تكد تبدأ بعد : لم نقل إلا باسم الله الرحمن الرحيم .. " السكرية ـ ٨٧ ".

المقصود أنهم فى " بداية " السهرة ، والنهاية الموعودة لم يصلوا إليها بعد !.

وعلى جانب آخر تمثل البسملة أداة لبث الطمأنينة ودفع الخوف عند من يواجهون موقفا صعبا أو أزمة مرعبة .

أم حنفى تحذر أحفاد أحمد عبد الجواد من الحديث عن البئر أو الاقتراب منه : لا تذكروا البئر ، وقولوا معى : " باسم الله الرحمن الرحيم ". " قصر ـ ٢٩ ".

البئر مسكون بالعفاريت ، ولا نجاة إلا بالبسملة .

والتصرف نفسه يمارسه الجندى الذى يستشعر خطر الموت فى قصة " ثلاثة أيام فـى اليمن". " تحت ـ ٧٢ ".

وفي مسرحية " الشـيطان يعـظ " يعتزم الشيخ عبـد الصمـد القادرسي أن يخوض مغامرة غير مأمونة فى " مدينـة النحـاس " الأسـطورية ، وهـو يستعين علـى المخـاوف والأهوال بالبسملة :

– سأقدم على مغامرة ، بسم الله الرحمن الرحيم .. ثم رافعا صوته " يا هوه.. يا عباد الله .. " الشيطان ـ ٣٣٩ ".

وقد ترتبط البسملة بالشخصية دون موقـف معين ، وهـو مـا نجـده عنـد عـم عبـده حارس العوامة . " ثرثرة ـ ١٥٨ ".

ولكن لوحات البسملة المعلقة على الجدران هـي الأكـثر شيوعا وانتشـارا فـى عـالم نجيب محفوظ، ووجودها ليس دليلا على التدين والانضباط والسـلوكى بقـدر مـا هـو " عادة " اجتماعية قد يلتزم بها أبعد الناس في حياتهم اليومية عن الالتزام الدينى .

نعمـة الله الفنجـرى فـى قصـة " أهـل الهـوى " شـيطانة فـى صـورة أمـرأة قويـة ، وشـهواتها مسيطرة وموجهـة لسـلوكها ، ولكـن حجرتهـا الأنيقـة التـى تشـتعل فيهـا مغامرات الجسد : مزينة الجدران بسجاد صغير وبسملة مذهبة . "رأيت ـ ٢٣".

والفتوة موجود في الديناري فـي قصـة " الرجـل الثـانى " يعلـق هـو الآخـر بسـملة مذهبة. " الشيطان ـ ٩ ".

وفي منزل المرحوم محمد رضوان ، ولابنته مريم وأمها تاريخ حـافل ، يطـالع ياسـين عبد الجواد على الجدار المواجه لباب غرفة الاستقبال : البسملة في إطار أسود كبير. " قصر ـ ١٣٢".

بل إن ياسين يلجأ إلى البسملة ليوحى لأم مريم بأنه مستغرق فـى تفحـص اللوحـة المعلقة وليس فى تأمل تفاصيل جسدها الضخم الذى أذهله . " نفسه ـ ١٣٩" .

نعمة الله الفنجرى " الشيطان " وموجود الدنيارى " الفتوة " وأم مريم " الشهوانية" يعلقون البسملة على جدران منازلهم ـ فى إطارات مذهبـة أنيقـة ـــ كجـزء مـن الأثـاث وكأداة للزخرفة، ولا علاقة للأمر بالدين أو القرآن .

والبسملة تصاحب السيد أحمد عبد الجواد في دكانه منذ بدايـة ظهـوره فـى الثلاثيـة حتى اعتزاله للعمل.

مع بداية تعرفنا على دكانه ومحتوياته تظهـر البسـملة : وفـي منتصـف الجـدار فـوق المكتب على إطار من الأبنوس نقشت بداخله البسملة مموهة بالذهب .. " بين ـ ٣٦ ".

ولأنها من المعالم الراسخة للدكان ، فإن تحديد مكان صورة سعد زغلول يقترن بها في قول أحمد لوكيله جميل الحمزاوى :

- علق صورة سعد تحت البسملة . " نفسه - ٤٦٠ " .

وقد تتغير صورة سعد ، ولكن البسملة ثابتة لا تتزحزح ولا يتبدل مكانها : وفوق رأسه صورة سعد زغلول في بدلة الرياسة معلقة في الجدار تحت إطار البسملة القديم .. " قصر - ١٢١ ".

ويقترب الرجل من النهاية والبسملة كما هى : ... وهو منكب على دفاتره تحت لافتة البسملة . " السكرية - ١٨".

بركة وزينة وعلامة على الدين دون ارتباط به !.

الفاتحة

﴿ الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين . أهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . ١-٧

تحتل فاتحة الكتاب موقعا بالغ الأهمية فى عالم نجيب محفوظ، وتتمثل أهميتها فى عدة محاور يمكن تحديدها على النحو التالى :

. الفاتحة والزواج
. الفاتحة والموت
. الفاتحة كأداه للتمنى والمقاومة
. الفاتحة والفكاهة
. الآية الأولى من الفاتحة : " الحمد لله رب العالمين " .

هذه المحاور مجتمعة تمثل محاولة للتوقف التفصيلى أمام الدور الذى تلعبه الفاتحة عند نجيب محفوظ ، وهو دور يمثل قمة التجاورية بين الدين والدنيا. فبالفاتحة نتزوج ونترحم على الموتى ونراود الأحلام ونقاوم المخاوف ونضحك ونتمثل بالآية الأولى : " الحمد لله رب العالمين " التى تمثل جزءا نابضا فى لغة الحياة اليومية .

الفاتحة والزواج

قراءة الفاتحة - وبخاصة فى الأوساط الشعبية - جزء أساس من منظومة الزواج . وقد لا تكون زنوبة العوادة ربيبة العوالم حجة فى الكشف عن العادات والتقاليد والطقوس الاجتماعية الراسخة ، ولكنها تقدم أفضل صياغة فى عالم نجيب محفوظ للموقع الذى تحتله الفاتحة فى عملية الزواج وهى " تترجم " كلمة " اللقاء " التى يقولها ياسين قاصدا بها الاتصال الجنسى : الواحد منكم يطلب بكل بساطة " اللقاء ".. كلمة صغيرة.. ولكنه يعنى بها عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس إلا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز والمأذون . " بين - ٢٣٣ ".

بعد السؤال والشفاعة ، تأتى الفاتحة . سابقة للمهر والجهاز ؛ والتتويج بالمأذون .

قد تكون الفاتحة " خبرا " عاديا ، ولكنه " خبر " يستقبل عند المهتمين كمرادف لكلمة " الزواج " ومقدمة له . وذلك تترتب عليه أخطر النتائج كما نجد في الحكاية رقم " ٣٨ " من " حكايات حارتنا " التي تبدأ على النحو التال ي:

وأنا ألعب في الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديب .

أكثر من صوت يتساءل :

– خير إن شاء الله .

فيبشرنا أحدهم قائلا :

– قرئت فاتحة نعيمة السقاف على شيخون الدهل . " حكايات ـ ٨٣ ".

ثم يأتي رد فعل فتحية قيسون العنيف الشرس لتكتمل الحكاية . وليس رد الفعل هذا إلا بمثابة النتيجة المنطقية لإدراك المرأة أن خبر قراءة الفاتحة يقود بالضرورة إلى الزواج .

مع من تقرأ الفاتحة ؟!.

شمس الدين عاشور الناجي يقرأ الفاتحة مع دهشان شقيق عجمية التي يرومها زوجة له :

– ما قولك يا دهشان ؟

– يا له من شرف لم أحلم به يا معلمي ..

فمد له يده قائلا :

– أذن فلنقرأ الفاتحة . "الحرافيش ـ ١١٣".

وهذه القراءة "الثنائية " تثير غضب أم شمس الدين المستبعدة من عموم العملية :

– أما كان يجب أن تشاورني قبل أن تفعل ؟. " نفسه ـ ١١٤".

أما سماحة الناجي فيقرأ الفاتحة مع أم العروس مباشرة . " نفسه ٢٠٧".

ولكن الأكثر اتساقا مع الأعراف والتقاليد هو ما يفعله صادق صفوان :

لقد سألت والدتي أن تقرأ الفاتحة مع ست فاطمة أم إحسان. " قشتمر ـ ٤١".

الفاتحة تمهيد ومقدمة للزواج ، والأولى – تبعا لذلك – أن تعامل كبديل أو مرادف للخطوبة . و " العطف " بينهما نجده في معرض الحديث عن وفاة الشيخ معاوية القليوبي: ولكن لم يتسن للشيخ شهود الزفاف فقد وافاه الأجل بعد أسبوع من إعلان الخطبة و" قراءة الفاتحة " . " حديث ـ ١٥٦ ".

فعلان متداخلان متشابكان تربطهما " واو " العطف .

وإذا تعذر إعلان الخطوبة ، فلتكن الفاتحة بديلا لها ودلالة على " حجـز " المخطوبـة حتى لا يتقدم لها آخر .

صغر السن يجعل إعلان خطوبة سهام محمـد حـامد برهـان علـى ابـن عمتهـا رشـاد نعمان الرشـيدى " مضحكـا " ، والبديـل هـو قـراءة الفاتحـة عائليـا حتـى يحـين الوقـت المناسب :

- وسهام هدية أيضا ولكن إعلان الخطوبة الأن أمر يدعو للضحك ..
- هل ترفض ؟
- أبدا .. لنقرأ الفاتحة .. ليكن حجز حتي يجـئ الوقـت المناسـب .. " البـاقى ـ ٧٠ " .

وإذا كان إعلان خطوبة سهام ورشاد وهما في سـن المراهقـة يبـدو مضحكـا عنـد الطبقة الوسطى المثقفة ، فإننا نصادف قـراءة الفاتحـة في المهـد عنـد الطبقـات الشـعبية . زهيرة في " الحرافيش " قرئت فاتحتها منذ مولدها وحجزت لعبد ربه الغران كما تقـول أمها :

- فاتحتها مقروءة منذ مولدها . " الحرافيش ـ ٣٢٦ ".

ولأن قراءة الفاتحة ترادف الخطوبة وتعني وعدا صريحا بالزواج واتفاقا لا تراجع فيـه، فإن النكوص عنها يمثل عقبة ومشكلة متعددة الجوانـب .

قد يكون عزت عبد الباقى هو أغنى أغنياء الحارة ، وقد تكون أمـه " السـت عـين " ذات مكانة فريدة ، ولكن قراءة فاتحة حبيبته بدريـة المناويشـي يمثـل حـاجزا منيعـا أمـام طموحه.

في مرحلة الأحلام والتفكير السلبي عرف في الحارة أن عبد الحميد الكومي خطـب بدرية وأن الفاتحة قد قرئت . " عصر ـ ٥٦ ".

ولأن الفاتحة التزام وميثاق ، فإن محاولة عـزت الفرديـة لا قتنـاص بدريـة بعـد قـراءة فاتحتها تصطدم بأبيها الذى ينبهه إلى الأعراف والتقاليد الصارمـة : لقـد قرأنـا الفاتحـة ، وكان بوسع والدتك أن تتكلم لو توفرت لها الرغبة . " نفسه ـ ٥٧ ".

وليس أدل على خطورة قراءة الفاتحة وما تمثله من التزام ، من طـلاق أم بدريـة بعـد أن هربت ابنتها المخطوبة المرتبطة بالفاتحة مع حبيبها الحقيقي حمدون عجرمة !.

والأزمة في النموذج السابق فردية تنتهي بهروب بدريـة وطـلاق أمهـا ، وثمـة أزمـة مماثلة نجدها في " الحرافيش " وتنتهي بتراجع مشين للشـقيقين الخـاطبين بعـد أن تغـيرت أحوالهما المالية .

فى مرحلة الفقر قرئت فاتحة عاشور وضياء على فتحية وشكرية ابنتى محمد العجل . " الحرافيش ـ ٥٢٢ ".

ثم هبطت الثروة من السماء ، وتبدلت الأحوال بحيث لم يعد الشقيقان متوافقين مع المشروع القديم : واعترضت الطريق المنبسط عقبة كالحة ، هى قراءة فاتحة شكرية وفتحية!. فرضت نفسها عليهم من أول يوم .. " نفسه ـ ٥٢٧ ".

سرعان ما أعلن ضياء تراجعه مديرا ظهره للفاتحة المقروءة ، أما عاشور – بضميره الدينى والتزامه الأخلاقى – فقد عانى تمزقا قاسيا موجعا بين ما قطعه على نفسه من عهد ومايحسه من تغيير . سألته أمه :

– وأنت يا عاشور؟

فاجاب مغلوبا :

– لقد قرأنا الفاتحة . " نفسه ـ ٥٢٨ ".

ولقد أبى والد المخطوبتين أن يزوج احداهما دون الأخرى وفسخ الفاتحتين معا ، وبذلك استراح ضمير عاشور وتحقق مراده معا . ولكنه استحق وأسرته توبيخا مناسبا من الفتوة :

– انكم أنذال يا آل الناجى . " نفسه ـ ٥٢٩ ".

ليست الفاتحة لهوا وعبثا ، فهى " عقبة كالحة ". وعاشور يبدو " مغلوبا " وهو يحافظ على فاتحته التى يدرك مدى قوتها وأهميتها ، والفتوة نفسه يترجم خطورة النكوص بأسلوبه الخاص متهما المتراجعين بالنذالة !.

ولكن المفارقة العجيبة بحق نجدها فى قصة " الخوف " . فاتحة بدرية فى " عصر الحب " وفتحية وشكرية فى " الحرافيش " لاتتجاوز – فيما تثيره من مشاكل – الإطار الذاتى الضيق الذى يمس أفراداً معدودين محددين ، أما " قضية " فاتحة نعيمة بنت الليثى فى "الخوف" فمعقدة وتهدد مصير حارة كاملة .

البنت جميلة ، ويرشحها جمالها – متعانقا مع فقرها – لزيجة عادية تبدأ كالمألوف بقراءة الفاتحة : ومالبث أن قرأ عم الليثى العجوز الفاتحة مع شاب بياع بطاطة يدعى الحملى . " بيت ـ ٨٩ ".

لا جديد ولا مثير ، ولكن الغرابة تبدأ بتدخل الاعور الفتوة وإظهاره الطمع فى نعيمة مما يضطر الأب إلى قراءة فاتحة جديدة معه : مددت يدى وأنا لا أدرى وقرأت معه الفاتحة!.

– وفاتحة الحملى ؟

- قابلته واعترفت له بوكستي ..

تراجع مبرر ، فلا مجال للمقارنة بين بياع بطاطة وفتوة خطير ، وفسخ الفاتحة الأولى مما يسهل غفرانه في ظل موازين القوى . ولكن الكارثـة التي تتجاوز الأب وابنته إلى الحارة كلها تبدأ مع ظهور فتوة جديد وقراءة فاتحة جديدة :

- بعد فاتحة الأعور بساعتين وجدت جعران فتوة الحلوجي أمامي ..

....

- ثم اضطررت أن أعترف له بفاتحة الأعور .

....

- ومددت يدي وأنا لا أدري وقرأت الفاتحة .

- وفاتحة الأعور؟

- هذه هي المصيبة فأغيثوني . " نفسه ـ ٩٠،٩١ ".

فاتحة الحملي يمكن التخلي عنها ، أما فاتحتا الفتوتين فخطر يهدد الحارة ويمثل الخط الرئيس في بناء القصة وتطور أحداثها . لا مجال لإرضائهما معا ، ولا قدرة على الاختيار بينهما !.

ضاع الحملي وتبخرت فاتحته بسبب قوة منافسيه الخطيرين ، أما عباس الحلو فقد أو شكت فاتحته أن تتبخر بسبب ثروة منافسه السيد سليم علوان . رضيت حميدة بعباس – دون حب أو اقتناع – لأنه الأفضل نسبيا وإن لم يرق إلى مستوى طموحها . مشروع زيجة تقليدية انتهت خطوتها الأولى بقراءة الفاتحة وشرب المشروبات . " زقاق ـ ١٠٣".

سافر عباس للعمل في معسكرات الانجليز وبقي السيد سليم في الزقاق يدير وكالته. أيهما أحق بالفتاة : الذي قرأ الفاتحة وسافر ليوفر تكاليف الزواج أم صاحب الثروة المقيم؟!. عباس هو الأولى بالمنطق والعرف والارتباط الذي تمثله الفاتحة ، وسليم هو الأولى بفضل الثروة . ما أن يعلم الرجل بـ " خبر " الفاتحة من أم حميدة حتى أصفر وجهه غضبا ، وقال بحدة وكأنه ينطق باسم حشرة قذرة :

- عباس الحلو..!

فقالت المرأة بعجلة ولهوجة :

- رباه لقد قرأنا الفاتحة.

قطب السيد سليم قائلا في غضب وازدراء :

- ذلك الحلاق الشحاذ ..

فقالت أم حميدة كالمعتذرة :

- قال إنه سيشتغل في الجيش ، ليجمع ثروة ، وسافر بعد أن قرأنا الفاتحة .. " نفسه - ١٣٤ ".

حدة الرجل وغضبه ، ثم ارتباك الأم واعتذارها ، ممارسات توحي بخطأ عباس وحرمه . قوانين المنفعة والمصلحة دون أعراف وقيود والمجتمع هي التي تدفع أم حميدة إلى التراجع السريع واستبعاد ابنتها بالتبني من الأمر كله :

- لا شأن لإبنتي بهذا الأمر ! وما حدث لا يعدو أن جاءني الحلو يوما مصحوبا بعم كامل ثم قرأنا الفاتحة . " نفسه - ١٣٥".

تراجع الأم لا يعني زوال المشكلة ، فالمسألة وثيقة الصلة بالأعراف والتقاليد التي تختلط مع القداسة الدينية للفاتحة بحيث يمثل الموقف هما - ولو شكليا للأم . لا تهتم حميدة اهتمام أمها ، فالفتاة الطموحة المتمردة تتساءل باستنكار كأن ما تطرحه أمها قضية بالغة البساطة والتفاهة :

- ماذا أرى ؟!

- أجل ماذا ترين ، فليس الأمر مما يسهل الفصل فيه ، أنسيت أنك مخطوبة ؟! وإني قرأت الفاتحة مع الحلو ؟. " نفسه - ١٣٩".

السيد رضوان الحسني هو الأكثر ورعا وإدراكا لخطورة الأمر ، وعندها تستشيره أم حميدة يرفض باصرار أن تفسخ الخطوبة . وهو موقف تفسره حميدة بما يتوافق مع مصلحتها:

- فسعادتي أنا لا تهمه في كثير أو قليل ، ولعله تأثر بقراءة الفاتحة كما ينبغي لرجل يرسل لحيته مترين .. " نفسه - ١٤٢ ".

إنها تفسر موقفه بتدينه وتغفل أن القاعدة الاجتماعية - كما يتجلى في حيرة أمها غير المتدينة - ترفض إهانة الفاتحة المقروءة وتجاوزها !. لاخلاف حقيقي بين حميدة وأمها ، ولكن أم حميدة تبدو حريصة على إظهار رأيها المعارض دون نية حقيقية في المعارضة وعرقلة " المشروع " الجديد الذى سيعود بالخير عليهما ! ، وهي تقول ملفوعة برغبة في "إغاظة" الفتاة والانتقام من سوء خلقها :

- ولكنك مخطوبة ..

فضحكت حميدة ساخرة وقالت :

- إن الفتاة حرة حتى يعقد عليها ، وليس بيننا وبينه إلا كلام وصينية بسبوسة .. !

- والفاتحة ؟

- المسامح كريم ..

- الفاتحة ذنبها كبير .

فصاحت باستهانة :

- بليها واشربى ماءها !. " نفسه ـ ١٤٢".

هاهى حميدة تنتبه إلى ما اباحه لها الدين من حرية الاختيار ، وهاهى تتنصل من الكلام والبسبوسة والفاتحة !. الرأى العام تمثله الأم - غير الجادة - فى حديثها عن ذنب الفاتحة، والمصلحة الشخصية تجسدها حميدة مستهينة إلى الدرجة التى تدفعها إلى السخرية من الفاتحة!.

حسم الأمر ، وذهبت أم حميدة عند ضحى اليوم التالى لتقرأ الفاتحة مرة أخرى . " نفسه ـ ١٤٣ ".

ولم يفسد " المشروع " الجديد والفاتحة الجديدة إلا مرض سليم علوان وإلغاء الفكرة من أساسها !.

لا يشغل مشروع الفاتحة الجديدة التى لم تتم بين سليم وحميدة ، على أنقاض الفاتحة الأصلية ، إلا صفحات قليلة من الرواية "١٣٤ : ١٤٣" ، ولكنها صفحات معبرة خير تعبير عن الدور الذى تقوم به الفاتحة - لمزيج من الأسباب الدينية والاجتماعية - فى الزواج المصرى الشعبى . وهى صفحات كاشفة ـ من ناحية أخرى ـ عن طبيعة الشخصيات كما ينعكس فى تعاملها مع الفاتحة : رضوان الحسينى وورعه ، سليم علوان وشهواته ، حميدة وطموحها ، أم حميدة وطمعها ، عباس الحلو الغائب المظلوم دائما !.

وثمة وجوه غرائبية أخرى لقراءة الفاتحة - بنية الزواج - فى عالم نجيب محفوظ .

من ذلك أن تقرأ الفاتحة في حالة سكر بيّن كما يفعل المعلم جعلة فى قصة " نحن رجال". فى ذروة السُكْر يقول جعله بلسان ملتو :

- نحن رجال .. الرجل بغير زواج ناقص .. الزواج فرض وسنة ، شلبية المصونة بنت عم طلبة جارنا وعمنا .. ياعم طلبة أقرأ الفاتحة .. " همس ـ ١٧٠".

فاتحة بين السكارى ، والخاطب والمخطوب منه والشهود الذين يهللون للخبر، لايعرفون شيئا !.

وتتحول الفاتحة إلى " مشروع استثمارى " من ولى الأمر الذى لا يبالى بالمصلحة والاستقرار قدر اهتمامه بالعائد المالى السريع !.

للزواج من مروانة يتوجه جعفر الراوى إلى كبير قومها وولى أمرها ، وهو طاعن في السن حتى الموت . لايتحدث العجوز سليل الإجرام عن التفاصيل والمؤهلات ، ولكنه يقول :

- عشرة جنيهات في يدى هذه .

وبسط يده ، فتحركت أم مروانة حركة غامضة ، فقطب العجوز قائلا :

- بلا جهاز .

ويقول جعفر الراوى :

- لنقرأ الفاتحة .

وانطلقت الزغاريد . " قلب ـ ٧٥".

لا أهمية للأصل والعمل والأخلاق ، فالبطولة للجنيهات . وتأتي الفاتحة بلا تأخير بعد دفع الثمن !.

والمصلحة أيضا هى التى تقف وراء زواج المعلم شمس الدين من ابنة الفتوة سمعه الكلبشي . شمس يبحث عن الحماية ، والفتوة يتطلع إلى أموال العريس . السؤال الأول - والوحيد - عن المهر ، وبعد تحديده بخمسمائة جنيه ، يمد الفتوة يده قائلا :

- لنقرأ الفاتحة .. " الحرافيش ـ ٤٧٥".

أهى فاتحة من أجل الزواج ، أم فاتحة لمشروع وصفقة ؟!

أما الوجه الغرائبى للفاتحة عند كمال عبد الجواد فيتمثل فى تصوره لمفارقة بين شخصية عايدة وثقافتها وما يمارس من طقوس عند زواجها : وباسم الحب تعنو ربيبة باريس لشيخ معمم يتلو فاتحة الكتاب . " قصر ـ ٢٨٦".

لا غرابة في زواج عايدة المسلمة وفق أصول الشريعة الإسلامية ، وكمال العاشق وحده هو الذى يبحث عن تناقض بين الثقافة الباريسية والشيخ والفاتحة !.

ولعل أطرف ما يتعلق بالفاتحة - من حيث ارتباطها بالزواج - هو ما نجده فى قصة " نور القمر " . الفتوة سنجة التزام يقترح على الضابط المتقاعد أنور عزمى أن يتزوج ، وبعد اقتراحه الذى لم يجد استجابة وقبولا لا يقوم بزيارة أنور في منزله ويسأل ببرود :

- ومتى تفى بوعدك ؟

- أى وعد يا معلم ؟

- ألم نقرأ الفاتحة ؟

وإذ يحملق فيه الضابط بذهول نابع من أنه لم يلتزم بشيء و لم يقرأ الفاتحة ، يقول الفتوة مستدركا :

- قرئت بالقلب ، أم وجدتنا دون المقام ؟!. " الحب فوق - ٢٦".
لا وعد بالزواج ولا فاتحة ، ولكن الفتوة يضيف جديدا غير مسبوق وهو القراءة السرية بالقلب دون اللسان !.

الفاتحة والموت

للفاتحة ارتباطها الوثيق بالموت ، فالأحياء يقرأونها كثيرا ترحما على أرواح موتاهم .
قد تتم قراءة الفاتحة في مواجهة الجثة مباشرة كما يفعل صابر الرحيمي مع أمه : أنا لم أر ميتاً قط ، حتى جثة أمي أغمضت عيني وأنا أقرأ عليها الفاتحة .. " الطريق - ١٣١".
والأكثر انتشارا هو قراءة الفاتحة على القبور عند زيارة الموتى .
من ذكريات الطفولة التي يستدعيها كامل رؤبة : موقفنا - أنا وأمي - على قبر جدتي في المواسم نكلله بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترحمين . " السراب - ٢٠".
وإذا كان كامل يشارك أمه في قراءة الفاتحة ويكتسب منذ طفولته تقليدا دينيا اجتماعيا ، فإن عثمان بيومي - بعد توظفه - يقف على قبر والديه الضائع بين قبور لا حصر لها ويقرأ الفاتحة . " حضرة - ٢١".
ويعاود قراءة الفاتحة مرة أخرى عند انصرافه . " نفسه - ٢٤".
وفي قصة " الخندق " يتحول مدفن الأسرة إلى مسكن للأغراب ، ويقنع المالك الشرعي بالمروق إلى قبري والديه ليتلو الفاتحة . " التنظيم - ١٧١".
الأباء والأمهات في القبور والقلوب معا ، والفاتحة تنطلق من قلوب الأحياء المحبين لتشارك الأحبة الساكنين في القبور وحدتهم تبعث إليهم برسالة الرحمة والمودة .
لا يملك المرء أن يعوض والديه ويستبدلهما ، ولكن تعويض الزوج متاح وميسور !.
في قصة " إصلاح القبور " تواظب الأرملة على زيارة قبر زوجها الراحل في إخلاص ودأب ، وبظهور زوج جديد يتراجع الاهتمام ويتغير " مكان " قراءة الفاتحة : وقرأت هذه المرة الفاتحة على البعد وقالت لنفسها : إن البعد لن يمنع رحمة الله من أن تؤنس الثاوي في قبره . " همس - ٦٤ ".
الهدف من القراءة إذن هو مؤانسة الموتى ، وعند الأرملة المهيأة لزواج جديد تنتصر الحياة ويفوز الحي على الميت ويتغير " مكان " قراءة الفاتحة من " القبر " إلى " البعد "!.

وتلعب قراءة الفاتحة أثناء المرور على القبور دورا مهما في بناء رواية "خان الخليلي" وتشكيل طابعها الشجني من خلال علاقة الحب التي لم تكتمل - بسبب المرض والموت - بين رشدي عاكف ونوال كمال .

تتوثق العلاقة بينهما في رحلتهما اليومية إلى المدرسة ، والطريق إليها يحتم المرور على المقابر: وأشار رشدي إلى مقبرة خشبية ذات فناء صغير ، تقع على جانب الطريق الأيمن ثالثة المقابر وقال :

- مقبرتنا !

فنظرت الفتاة إلى حيث يشير فرأت المقبرة الصغيرة وقالت باسمة :

- فلنقرأ إذن الفاتحة !

وقرءا الفاتحة معا .. " خان ـ ١٥٦ ".

" باسمة " وهي تقترح قراءة الفاتحة لأن الحب لا الموت هو مايشغلها ويدفعها إلى الاقتراح والتنفيذ ، وقراءة الفاتحة ترحما علي من لاتعرفهم من الموتى إنما يتم لحساب الحبيب الحي - المستقبل دون أهله الموتى - الماضي !.

يأتي المرض بأعبائه ومتاعبه فيتعثر انتظام الرحلة ويتخلف رشدي ، وعندما تعود المسيرة ويمران بالمقبرة ، تقول الفتاة لحبيبها وكأنها تذكره بالتاريخ القريب وذكرياته :

- أنتم مدينون لي بمائة رحمة على الأقل ، لأنني أقرأ الفاتحة لمقبرتكم كل صباح!. " نفسه ـ ٢٠٣".

لمن تقرأ ؟!. للحبيب الغائب بالمرض وليس لأهله المغيبين بالموت !. الحياة هي الدافع للقراءة والترحم .

ولكن رشدي نفسه - متأثراً بمرضه وهواجسه - يتعامل مع المسألة على نحو آخر : ثم امتد بصره إلى المقبرة فسرعان ما خطر له خاطر مخيف كأنه شيطان انشقت عنه أرض الموتى، هل يجرى القضاء غدا بأن تقرأ فتاته - وهي آخذة طريقها هذا - الفاتحة على روحه هو ؟!. " نفسه ـ ٢٠٣ ".

نوال تحب وتلهو وتتطلع إلى الحياة والمستقبل في إطار مرح تتخلله الفاتحة ، أما رشدي فيغيره المرض وتؤثر عليه فكرة الموت فتدفعه إلى التعامل بجدية والتفكير في المستقبل الذى يرقد فيه داخل المقبرة التي يمران عليها والتساؤل عن موقف فتاته منه ساعتها ، وهل تقرأ على روحه الفاتحة ؟!.

بازدياد المرض تنقطع النزهة اليومية التي تمر بالعاشقين على القبور ، ويكون آخر العهد برشدي في علاقته مع القبر ومداعبته لنوال هو ماراوده من هواجس حول الموت

ومدى وفاء نوال له !. تتحول مقبرة آل عاكف من أداه للمرح والتعبير عن الحب إلى مؤشر للتدهور والسقوط . والمؤكد أن نوال قد مرت على المقبرة بعد دفن رشدى فيها، ولكن الرواية لا تكشف عن موقفها الذى لا يحتاج توقعه إلى كبير مجهود : الحياة بأحيائها وصخبها تنتصر دائما!.

ليس محتما أن تُقرأ الفاتحة فى مواجهة الموتى وقبورهم ، فمن الممكن أن تُقرأ على البعد كما تفعل الارملة المهيأة لزواج جديد .

يتذكر كامل رؤبةلاظ جده وأيام الرغد والهناء التى قضاها معه ، فيقرأ الفاتحة - وهو فى الترام - على روحه المحبوبة . "السراب - ١٦٤".

وفى زيارة أحمد عبد الجواد وابنيه ياسين وكمال لمسجد الإمام الحسين بعد انقطاع طويل، يقول الأب :

- لم نجتمع هنا منذ ذلك اليوم !

مشيراً بذلك إلى آخر اجتماع لهم أثناء ثورة ١٩١٩ بحضور ابنه الشهيد فهمى ، ويرد ياسين بتأثر :

- الفاتحة على روح فهمى ..

وتليت الفاتحة . " قصر - ٤٥٥".

فى الترام وفى المسجد تقرأ الفاتحة على روحى الجد والشهيد ، وتؤنسهما الفاتحة على البعد دون مواجهة مباشرة للقبر .

فى "السراب" و " قصر الشوق " تحديد واضح لشخصيتى المرحومين المقصودين بالفاتحة، وفى مواضع أخرى تكون الفاتحة موجهة إلى جموع تتجاوز الفرد الواحد المحدد.

فى " قهوة الأمراء " تتوالى التعليقات بعد إعلان السلطان شهريار توبته وتوقفه عن سفك دماء العذارى والمعارضين لسياسته الدموية ، وأول هذه التعليقات :

- الفاتحة على أرواح الضحايا . " ليالى - ١١".

ليس شخصا بعينه هو المقصود بقراءة الفاتحة ، ولكن " كل" الضحايا الذين فتك بهم الطاغية قبل التوبة والكف !.

وقد تكتسب الدعوة الى قراءة الفاتحة " تلميحا " ينفى الهدف الشائع من القراءة .

الشيخ عفرة صاحب فضل على عاشور الناجى ، ودرويش على نقيض أخيه شرير لامروءة فيه . لا يتورع درويش عن طلب نقود من عاشور ، وهو يأخذها غير شاكر قائلا بنبرة ذات مغزى :

- لنقرأ الفاتحة على روح أخي عفرة .

ويقرأ عاشور الفاتحة ويقول :

- لم أنقطع عن زيارة قبره .. " الحرافيش ـ ٢٩ ".

لا يترحم درويش على روح أخيه بالدعوة إلى قراءة الفاتحة ، ولكنه يذكر عاشور بفضل الرجل عليه . وعاشور يسايره في القراءة ويعود ليؤكد أنه لم ينس ويعرف أغراض درويش وألاعيبه !.

الارتباط الوثيق بين الفاتحة والموت هو ما جعل الفاتحة جزءاً من تكوين شعبي شائع يعني اقتراب الموت ، فمعنى " أقرأ الفاتحة على روحك " أو " سنقرأ الفاتحة على روحك " أن الموت قريب . وهذا ما نجده بعد انتصار الضابط عثمان على الفتوة جعران في معركة ثنائية . يتراجع الأعوان وبعضهم يصيح في وجهه:

- قريبا سيقرأون على روحك الفاتحة ..!. " بيت ـ ٩٦".

والترجمة الحرفية : إنك لن تفلت بفعلتك ، وستموت ، وتقرأ الفاتحة على روحك بعد موتك !.

....

هل تقتصر الحكاية المصرية على الأحياء والموتى فقط ؟!.

ثمة فريق ثالث ينتمي إلى الموتى والأحياء معا ، ونعني بذلك الأولياء من أصحاب الأضرحة. هم أموات ، ولكنهم يمارسون من التأثير ما يفوق ملايين الأحياء وقراءة الفاتحة لهم ، وفي حضرتهم عند زيارتهم ، من التقاليد الشعبية الراسخة .

للسيدة زينب وجودها المؤثر في حياة كامل رؤبة ، وهو يتعامل معها كشخصية حية تعرف عنه كل شئ حتى ما يخفيه في أعماقه من أسرار وآثام !. وفي زيارات كامل المتعددة لضريحها ـ مع أمه أو بمفرده ـ تظهر الفاتحة دائما .

يذهب للزيارة مع أمه ليتوب عن معصيته بشرب الخمر : ودخلنا ونحن نقرا الفاتحة . " السراب ـ ١٢٦ ".

وفي سياق مختلف يزورها بمفرده فيطوف بالضريح قارئا الفاتحة . " نفسه ـ ٢٧٨ ".

ويتلو الفاتحة مرة أخرى قبل مغادرته الجامع . " نفسه ـ ٢٧٩ ".

والدور الذي يلعبه الإمام الحسين ، مسجدا وضريحا ، في حياة كمال عبد الجواد وأمه أمينة والملايين غيرهما من المسلمين في كافة العصور ، لا يختلف عن دور السيدة زينب في حياة كامل .

في طفولته لا ينقطع كمال عن المرور بمسجد الحسين في الصباح والمساء : لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرر ذلك منه مرات في اليوم الواحد .. " بين - ٤٨".

وعندما تقوم أمينة بمغامرتها الكبرى فتزور مسجد الحسين في غياب زوجها وبدون إذنه، لا تتطلع ابنتها خديجة إلى مصاحبتها وتقنع بالقول :

– الفاتحة أمانة . " نفسه - ١٠٦ ".

وأثناء الزيارة يشترك كمال وأمه في قراءة الفاتحة أمام الضريح . " نفسه - ١٦٣ ".

وإذا كانت خديجة تحمل أمها " أمانة " قراءة الفاتحة في الحسين ، فإن الأم بدورها تكلف ابنها كمال بالمهمة نفسها في زيارته الأسبوعية للضريح بعد صلاة الجمعة بصحبة ابيه وأخويه. يتطلع كمال ملهوفا إلى : ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة أصالة عن نفسه وإنابة عن أمه كما وعدها . " نفسه - ٣٩٣ ".

وبعد أن تتحرر أمينة ، بفعل متغيرات الزمن ، وتتاح لها الزيارة كما تشاء ، فإنها تقترح على ابنتها المنكوبة عائشة أن تزور الحسين معها : ضعي يدك على الضريح واتلى الفاتحة تتحول نارك إلى برد وسلام . " السكرية - ٢٣٤ ".

وأحمد عبد الجواد أيضا لا يدخل مسجد الحسين إلا وهو يقرأ الفاتحة .. " نفسه -١٦٩".

كامل وأمه وكمال وأمينة وخديجة واحمد عبد الجواد يؤمنون بالسيدة زينب والإمام الحسين ويتعاملون معهما كأحياء مقدسين قادرين على بث السلوى وتعويض الحرمان . وليست قراءة الفاتحة في المسجد والضريح إلا التحية الواجبة المتوافقة مع عظمة وجلال ساكني الضريحين .

لا مخالفة لروح الدين بمفومه الشعبي يفعلون ، ولكنه التعبير البسيط العفوى عن الإيمان والاحترام والحب .

لا تخلو حياة كامل وأحمد عبد الجواد من أخطاء وخطايا وشرور وذنوب ، وكمال تخلى عن إيمانه بالدين بعد أن تجاوز الطفولة ، وأمينة وخديجة وزينب أم كامل بلاثقافة دينية حقيقية، ولكنهم – في ممارستهم لقراءة الفاتحة – لايدعون ولا يفتعلون ولا يكذبون.

ربما يكون الأمر أقرب إلى العادة الاجتماعية التى تكتسب مزيداً من الرسوخ بما يخالطها من روح دينية . والتاجر الثرى عزيز الناجي "من عادته" صباحا أن يمضى

بالدوكار إلى الحسين فيقرأ الفاتحة ثم يميل إلى السكة الجديدة فالصاغة فالنحاسين ثم ينتهي إلى المحل . " الحرافيش - ٣٢٥ "

عادة تشحن الروح وتمثل طقسا يوميا لا ضرر فيه ، ولكن الخطر هو الاستغناء بالأضرحة وساكينها وقراءة الفاتحة عن التعاليم والفروض الدينية جميعا !.

حامد عمرو عزيز يستسلم لأمه وطقوسها ولأخيه وشطحاته : ثم يجول في ربوع الصبا ويزور الحسين قارئا الفاتحة، وكان ذلك يمثل الغاية والنهاية في حياته الدينية. "حديث -٥٩".

الخلل أن يقتصر الدين على زيارة الأضرحة والاستسلام للرقى والخرافات وقراءة الفاتحة للحسين ، أما الزيارة والقراءة مع ممارسة الشعائر والفروض فشئ آخر لا خلل فيه ولا انحراف.

الفاتحة كأداه للتمني والمقاومة

الفاتحة وسيلة ناجحة لتحقيق الأحلام والأمنيات ومواجهة المتاعب والكوابيس ، وبقدر تعدد الأحلام وتنوعها فإن الكابوس الوحيد الذى تظهر فيه الحاجة إلى الفاتحة هو العفاريت!.

تلوح مصحة الأمراض الصدرية في حلوان التي يقصدها رشدى ، فيقول أحمد لشقيقه المريض بالسل :

– الفاتحة إنّ ربنا يأخذ بيدك ويمن عليك بالشفاء ويخرجك من هذا المكان مجبور الخاطر . " خان - ٢١٠ ".

بركة الفاتحة لمواجهة المرض الصعب ، وبركتها لمراودة النسيان والتخلص من أوجاع الفراق بعد الموت في قول عمرو أفندى لابنه قاسم عظيم التأثر بوفاة ابن شقيقته :

– اقرأ الفاتحة يبرد قلبك .

لكن قلبه لم يبرد . " حديث - ١١ ".

قراءة الفاتحة لن تغير الأقدار بطبيعة الحال ، ولكنها وسيلة يتذرع بها الإنسان لطلب الرحمة واللطف من الله . على الرغم من قراءة الفاتحة مات رشدى وعجز قاسم عن النسيان، ولكن الفوائد المعنوية للفاتحة لا تنتهى .

بالفاتحة تستعين أمينة عند استيقاظ كمال المفاجئ والأسرة تتحدث حول فراشه بعد إقامة الانجليز لمعسكرهم قرب البيت : فاقتربت من فراشه وربتت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة .. " بين ـ ٣٥٢ ".

الفاتحة وسيلتها المتاحة لبث الطمأنينة وتحقيق الأمان لطفلها ، أما في الحكاية رقم "٤٩" من " حكايات حارتنا " فيحلم كل صغير في الحارة أن يطوف به في منامه زائر الليل . ويقول لهم الكبار في ليالي المواسم والأعياد :

– استحم وادخل فراشك فاقرأ الفاتحة وتمن ما تشاء واستسلم للنوم فربما أسعدك الحظ بمجئ زائر الليل ليحقق لك أمانيك .. " حكايات ـ ١١٠ ".

قراءة الفاتحة بعد الاستحمام وقبل التمني ، وبتوسطها هذا تستطيع أن تحقق المأمول الذى لا يتحق أبدا !.

إنها وسيلة للتفاؤل بالمستقبل والمراهنة على ما فيه من خير يعوض كآبة الواقع ، ولذلك تقرأ والواقع يحسم .

خديجة عبد الجواد تقرأ الفاتحة في سرها قبل أن تدخل على الزائرات اللاتى تعتقد أنهن جئن لخطبتها . " بين ـ ١٤٣ ".

والجنود الانجليز يقمعون المظاهرات الوطنية ويسببون الرعب ويجلبون الموت في ثورة ١٩١٩ ، ولكن علاقة كمال ـ الطفل ـ الإنسانية ببعضهم تدفعه إلى تمنى السلامة لهم : يبسط كفيه واللورى يبتعد بهم صوب النحاسين داعيا لهم بالسلامة ثم تاليا الفاتحة . "نفسه ـ ٤١٤ ".

لا يشفي رشدى ، ولا يسلو قاسم ، ولا يطمئن كمال ، ولا يطوف زائر الليل بالأطفال ، ولا تخطب خديجة ، ولا يعود كل الجنود الانجليز سالمين؛ ولكن الفاتحة تبقى دائما سلاح من لاسلاح له . ما الذي يملكه أحمد عاكف وعمرو أفندى وأمينة وأطفال الحارة وخديجة وكمال ؟!. لاشئ غير قراءة الفاتحة لمراودة الأحلام والأمنيات التى يعز تحقيقها في الواقع المتجهم الكئيب . لا تخيب الفاتحة ولا تخذل قارئيها ، ولكن الواقع يتجاوز أحلام الحالمين !.

وعند الخوف تظهر الفاتحة أيضا .

جعفر الراوى يحفظ " قل هو الله أحد " ولا يحفظ الفاتحة . وإذ يسأله جده عن السبب ، يقول في بساطة تبرر تقديمه للصمدية :

– لفائدتها في إخضاع الجن . " قلب ـ ٣٣ ".

لا يرى جعفر فائدة للفاتحة فى إخضاع الجن ومواجهة العفاريت ، والعكس صحيح عند أمينة وكمال . الأم وأبنها يراهنان دائما على قدرة الصمدية ، ولكنهما لا يغفلان أهمية الفاتحة .

لا مغيث لأمينة من الشياطين - وهي وحيدة فى البيت الكبير - إلا أن تتلو الفاتحة والصمدية . " بين - ٧ ".

وفى زيارة أمينة الأولى للحسين يلعب كمال دور المرشد ، ويشير أثناء سيرهما إلى قبو قرمز المشهور الذى يجب - قبل الدخول فيه تلاوة الفاتحة ، وقاية من العفاريت التى تسكنه. " نفسه - ١٦١".

للفاتحة دورها فى مقاومة الجن والعفاريت . وقد تكون الصمدية هى الأكثر أهمية ، ولكن الفاتحة تقاوم أيضا وتفيد !.

الفاتحة والفكاهة

وللفاتحة نصيب فى الفكاهة التى يذخر بها عالم نجيب محفوظ .

أول ملامح هذه الفكاهة نجدها عند حسن كامل على فى "بداية ونهاية " .

شاب مستهتر تلقى تربيته فى الشارع ، ولا علاقة له بالدين والسلوك السوى ؛ ولكنه يحفظ الفاتحة !. والطريف أن مغامرته مع أصحابه الذين يماثلونه فى الأخلاق ، تبدأ عادة بقراءة الفاتحة لمنع الغش والغدر !. حسن هو الأكثر فوزا وربحا : لمهارته من ناحية ولخفة يده وعينيه من ناحية آخرى . لهذا يقول أحدهم قبل البدء فى اللعب :

- لا نريد غشا ..

فقال حسن :

- طبعا..

فقال الشاب :

- فلنقرأ الفاتحة ..

وقرءوا الفاتحة جميعا بصوت مسموع ، ولعل حسن تعلم حفظها حول هذه المائدة . "بداية - ٣٣ ".

ما يقوله أحدهم عن قراءة الفاتحة يخلو من الفكاهة العمدية ، فهو يتحدث جادا ، ولكن الموقف كله مشحون بالمفارقة والغرابة التى تدفع الروائى إلى التعليق الساخر الكاشف عن طبيعة الشاب ورفاقه ، الشاب الذى حفظ الفاتحة حول المائدة !.

يختلف الأمر بالنسبة لشلة أخرى مكونة من كمال عبد الجواد ــ في مرحلة إيمانه الديني ـ والأشقاء حسين وعايدة وبدور الذين لا يبدون أدنى أهتمام بالدين وتعاليمه في المأكل والمشرب والسلوك .

يلتقي الأصدقاء للقيام برحلة لزيارة الأهرام ، وفي الطريق يقول حسين شداد مداعبا:

– نحن ذاهبون إلى زيارة قرافة جدنا الأول .

ويرد كمال ضاحكا :

– لنقرأ الفاتحة بالهيروغليفية . " قصر ـ ١٩٧".

لا يخلو التعليق الضاحك لكمال من طرافة وسخرية ، ولكنه يبدو متناقضا مع شخصية الشاب المتدين إلى درجة الصرامة . وعندما يصدر التعليق نفسه من شخصية هشة العلاقة بالدين ، فإن الغرابة تزول . في رحلة مماثلة يقول الممثل السينمائي رجب القاضي :

– نحن نزور الآن قرافة فرعونية قديمة فلنقرأ الفاتحة . " ثرثرة ـ ١٤٥".

التعليق واحد تقريبا ، ولكن التأثير مختلف . لا تتناسب المقولة مع كمال ، وتتوافق مع رجب .

في الممارسات الجادة تقرأ الفاتحة ترحماً عند المرور بالمقابر ، وفي السياق الفكاهي – الذي لا يخلو من خلل بالنسبة لكمال – يأتي الاقتراح الساخر المستحيل أن تُقرأ الفاتحة باللغة السائدة في عصر الأجداد القدامى ، وأن نترحم عليهم بالفاتحة وهم غير مسلمين!.

ومن القمار ومقابر الأجداد الفراعنة إلى الا تفاق والوفاق الجنسي بمعزل عن الزواج الشرعي !.

قراءة الفاتحة مقدمة للزواج الشرعي الرسمي كما أشرنا من قبل ، والفاتحة نفسها مدخل للسخرية وتفجير الفكاهة عندما يكون التفاوض حول الاتصال الجنسي وحده دون زواج وإشهار .

لا يرغب ياسين أحمد عبد الجواد في الزواج من زنوبة ربيبة العوالم ــ وإن يكن قد تزوجها في مرحلة تالية ـ ولكنه يروم " اللقاء " ما اللقاء ؟!. إن ما تشرحه زنوبة نفسها في مزيج من المرارة والسخرية النابعين من الوعي بقوانين الحياة وشهوات الرجال: الواحد منكم يطلب بكل بساطة " اللقاء "... كلمة صغيرة .. ولكنه يعني بها

عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس إلا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والهمر والجهاز والمأذون ... " بين - ٢٣٣ ".

ليس ما يطلبه ياسين من زنوبة إلا امتدادا لما يطلبه الأب ويحصل عليه من السلطانة أستاذة زنوبة . العوادة زنوبة مع ياسين ، والسلطانة زبيدة مع أحمد عبد الجواد . الأب أكثر جرأة واقتحاما وسخرية - على الرغم من يقظة ضميره الديني - في حواره التمهيدي مع المرشحة لمرافقته ، فهو يستغفر في سره " مقدما " ثم يتساءل :

- نقرأ الفاتحة ؟. " نفسه - ٢٧٨ "

يستغفر الله " مقدما " لأنه يعي ذنبه ويعرف أن الفاتحة أجلّ مقاماً من أن تقرأ تهكما من أجل الحرام وغير الشرعي ، ولكنه الوعي أيضا بضرورة المرح والإصرار على التشبث بالدين والدنيا معا !.

في السياق نفسه يبدو الغلام رسول الغرام بين حسن كامل وسناء ، حريصا على طلب الدعاء ذي المغزى الجنسي متكئا على الفاتحة . فهو يصل بحسن إلى غرفة العاهرة: ودفع الباب قليلا وتنحى جانبا فتقدم حسن إلى الداخل وقبل أن يرد الباب وراءه شعر بيد الغلام تربت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد :

- اقرأ لنا الفاتحة .. " بداية - ١٧٢ ".

إذا كان طلب قراءة الفاتحة في الجاد من الأمور يستهدف رغبة الوصول وتخطي الصعاب بفضل بركة فاتحة الكتاب ، فلا بأس عند الغلام الناشئ من طلب مخالف يستهدف طموحا آخر يتوافق مع طبيعة واقعه وحدود أحلامه وطموحه .

** الحمد لله رب العالمين **

على الرغم من أهمية الدور الذى تلعبه الفاتحة فى عالم نجيب محفوظ ، فأنها لا ترد كاملة فى أى من أعماله . كلمة " الفاتحة " تغنى عن نصها ، والآية الوحيدة التى تتكرر كثيرا هى: " الحمد لله رب العالمين " ، ذلك أنها تستخدم كجزء من لغة الحياة اليومية وكتعبير شائع مألوف لا يقترن عند كثير من مستخدميه بالنص القرآنى .

تستخدم الآية للتعبير عن الشكر لله بعد النجاة من مأزق والخلاص من أزمة والوصول إلى بر الأمان والسلام .

انتهت ممارسات شهريار الدموية ونجت شهرزاد وأنقذت معها بنات جنسها ، وحق للوزير دندان أن يشعر بالسعادة ويبدى الشكر لله فى قوله لابنتيه شهرزاد ودنيازاد :

– ينوء ظهرى بالسعادة فالحمد لله رب العالمين . " ليالى ـ ٧ ".

ويتعرض السندباد لفخ شيطاني يروى تفاصيله للسلطان ، وبالنجاة يختتم قصته شاكراً حامدا : فالحمد لله رب العالمين . " نفسه ـ ٢٥٣ ".

وتستخدم الآية تعبيراً عن الشكر بعد الاستجابة لطلب عزيز المنال أو تحقيق أمنية صعبة .

يعود سماحة الناجي بعد غياب طويل ، ويعبر خضر عن عظيم سعادته قبل أن يعرف أنها عودة مؤقتة :

– طالما حلمت بيوم النجاة فالحمد لله رب العالمين . " الحرافيش ـ ٢٥٦ ".

أما شيخ الحارة جبريل الفص فينتشى بنجاح مسعاه وموافقة زهيرة على الزواج من المأمور الذى اتخذه رسولا له ، ويقول :

– الحمد لله رب العالمين . " نفسه ـ ٣٧٣ ".

وقد تأتى الآية فى سياق التعبير عن التواضع والزهد كما يفعل معروف الاسكافى الذى يتوهم شهريار أنه يمتلك خاتم سليمان ويأبى الاستيلاء على عرشه :

– إنك مؤمن حقا ، والخاتم في يد المؤمن عبادة !

– الحمد لله رب العالمين . " ليالى ـ ٢٣٦ ".

لا يملك معروف الخاتم ولايستطيع أن يفعل شيئا ، ولكنه فى مواجهة المد لا يملك إلا الادعاء معتمدا على الآية فى إظهار إيمانه وورعه !.

ويرتبط الاستخدام بطبيعة الشخصية ودرجة تدينها ، فالسيد رضوان الحسينى يعلق على ما يقول سليم علوان من أنه نجا من الموت بأعجوبة ، فيقول :

- الحمد لله رب العالمين . نجوت بأعجوبة ، وتعيش بأعجوبة . " زقاق ـ ١٧٧ ".

إنه لا يقنع بترديد الآية كما يفعل غيره ، ولكنه يشرح ويفسر ويسترسل فى التدليل على ما يستحق الحمد لله .

ومع اقتراب نهاية العمر يزداد الاستخدام .

فى الظهور الأول للشيخ متولى عبد الصمد ، يندفع إلى مكتب السيد أحمد عبد الجواد وهو يتمتم " الحمد لله رب العالمين " . " بين ـ ٣٧ ".

وفى الحكاية رقم " ٢٨ " من " حكايات حارتنا " يصل محسن إلى محطة النهاية بعد حياة حافلة ، وبكلماته التى ينهى بها الحكاية والحكاية ـ الحياة ، يعلن رضاه عن مسيرته ونهايته :

- لست نادما ، أبدا ، الحمد لله رب العالمين . " حكايات ـ ٦١ "

وتبدأ قصة " الرجل القوى " بتقديم بطلها وهو فى نهاية رحلة الحياة : أعتقد السيد طيب المهدى ساعة من الزمان أن مهمته فى هذه الدنيا قد انتهت ، وغمغم فى ارتياح عميق وأسى خفيف " الحمد لله رب العالمين " . " القرار ـ ١٣٧ ".

الآية ممارسة معتادة عند الشيخ متولى عبد الصمد ، وموقف من الحياة عند محسن ، وتتويج للنهاية المتوقعة عند طيب المهدى . الرجل يجمع فى غمغمته بين الارتياح والأسى ، فهو ليس قانعا بالنهاية ومستسلما لها . ومثل هذا النمط يتحقق بتمامه عند أحمد عبد الجواد .

فى " بين القصرين " و " قصر الشوق " لايستخدم أحمد الآية ، ولكنه فى " السكرية " - التى يموت بعد منتصف أحداثها بقليل - يستخدم الآية ثلاث مرات . مع النهاية الاجبارية والسكون الاضطرارى يأتى الاستخدام مشوبا بدرجة من الضجر وعدم الارتياح . ذلك أن عينه على الدنيا وتشبثه بها لا ينتهى ، وأحلامه فى مسراتها لا تخمد .

يتجرع أحمد الدواء بوجه مقطب متقزز ، ثم يتمتم " الحمد لله رب العالمين ". " السكرية ـ ١١ ".

وفى حوار تتخلله الشكوى مع أصدقاء العمر ، يتساءل على عبد الرحيم :

- ورحمة ربنا ؟!

فيرد أحمد على الفور :

- الحمد لله رب العالمين . " نفسه ـ ١٧١ ".

ومع زيادة التدهور يعز عليه الخروج إلا يوم الجمعة بصحبة كمال : ولكن على أن أنتظر يوم الجمعة ، ثم لابد من العصا ، ولابد من كمال ليصحبني ، الحمد لله رب العالمين . " نفسه - ٢٠٢ ".

أهو الرضا أم الاضطرار ؟!. فى نبرة أحمد شكوى واحتجاج وتذمر ، وفى حمده الاستدراكى استسلام وخنوع . لاشك فى إيمان الرجل ، ولاشك أيضا فى حبه الجارف للحياة . من الإيمان والحب تتشكل ممارسته : شكوى من زوال المسرات ، وحمد لاستمرار الحياة !.

سورة البقرة

** وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ** (٣٠)

خلافة الإنسان في الأرض هي محور الآية ، والمشيئة الإلهية تُواجه بأسئلة ملائكية – من قبيل التعلم لا الإعتراض – عن حكمة وجود مثل هذا الكائن المهيأ بحكم طبيعته المادية للسلبيات والآثام : الإفساد وسفك الدماء .

ماالذي ننتظره من ملحد يتظاهر بالإيمان ؟! وما الذي نتوقعه من خائن غادر يشتعل داخله نفاقاً ويعاني من ازدواجية مدمرة ؟!. إنه يحول " خلافة الإنسان " الى موضوع للسخرية !.

لبيب داود الناطورجي هو ذلك الرجل في قصة " الحب والقناع " ، وزوجه المتدينة الملتزمة فتحية سليمان هي موضوع سخريته الباطنية . إنه يتهمها – في أعماقه – بالجنون ، ويسخر من اطمئنانها وما تستشعره من توافق بفضل إيمانها : وهذه الزوجة المحبوبة التي لا تخلو من شعرة جنون . كم تبدو مطمئنة متألقة كما يجدر بالخليفة الله في أرضه . " الشيطان ـ ١٧١ " .

سخرية لبيب ترجمة لما قالته الملائكة عن لإنسان الذي يفسد ويسفك الدماء ، ولبيب نموذج للسقوط في دوامة عداء البشر وافتقاد الإحساس بالإنسان كجوهرة إلهية متألقة . أليس هو الذي يتقزز من الإنسان باعتباره كائناً قذراً ذا افرازات كريهة لا حصر لها . " نفسه ـ ١٧٥ ".

ليس عجباً اذن أن يسخر من زوجه ومن خلافة الإنسان على الأرض ! .

وفي المقابل ينهض الرجل الإلهي الشيخ عبده التائه ، وهو الذى يكتنفه غموض شفيف ، ليؤكد وجهة النظر الآلهية ويقدم النموذج الضد لشخصية لبيب الناضورجي .

وعند الشيخ – الرمز تفسير مختلف للآية : أثار الشيخ عبد ربه التائه عجب بعض المريدين بإغراقه فى الحياة الدنيا ، فقال لهم : " افعل ما تشاء بشرط ألا تنسى وظيفتك الأساسية وهى الخلافة " ." أصداء –١٤ " .

وظيفة الإنسان – كخليفة – هى إعمار الأرض لا إهمالها ، وهى مواصلة الإبداع وليس الزهد فى الدنيا .

**** قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ** (٦٩)**

ينفرد محجوب عبدالدائم - صاحب فلسفة " طظ " وممارسها - بأنثى حقيقية لأول مرة في حياته : تحية حمديس . كيف يفكر وهو معها في سيارة حمديس بك الفارهة ؟ ! . لفته الداخلية تجسد شخصيته وتكشف عن طبيعة تفكيره الذى يغلب عليه الشذوذ عن المألوف : هذه اول مرة يخلو فيها إلى أنثى تستحق أن توصف بالأنوثة حقاً . وأين ..؟ في سيارة فخمة تحزن الحاسدين - فضّل هذا التعبير عن تسر الناظرين ..... " القاهرة - ٧٠ "

الأمر لا يتعلق ببقرة إسرائيل والجدل اليهودى العقيم ، ولكن بسيارة عصرية ومحجوب الممزق المريض . تتوارى الأنثى وتتصدر السيارة الفارهة دائرة الإهتمام . قد يحق للإنسان السوىّ أن يرى في السيارة أداة " تسر الناظرين " ، وهو التعبير القرآني في وصف بقرة بني إسرائيل ، ولكن الشخصية غير السوية تؤثر تعبيراً آخر : " تحزن الحاسدين " . أليس محجوب مولعاً بإحزان الآخرين دون إسعادهم ؟! . ألا يظن أن الجميع مثله في المبادرة إلى الحسد والحزن دون السرور النابع من النظر والإستمتاع بالجمال بصرف النظر من الإمتلاك؟!.

**** بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ** (١١٧)**

ما جرى لصفات الجمالي لا يصدقه العقل ، وفي مقهى الأمراء يجتمع الرواد بعد تنفيذ الإعدام في الرجل الذى تغير مصيره بفعل العفاريت وألاعيبهم . ويبدأ النقاش بمقولة لحمدان طنيشة المقاول :

- الله خالق الملك وصاحبه ، المتصرف في شئونه بما يشاء ، يقول للشيء كن فيكون ، من منكم كان يتصور هذا المصير لصنعان الجمالي ؟ صنعان يغتصب بنتا في العاشرة ويخنقها ؟ ، صنعان يقتل حاكم الحى في اول لقاء معه ؟!. " ليالى - ٣٥ " .

إنه يرد الأمر كله لله . هو وحده صاحب الأمر والنهى ، وهو وحده القادر على تغيير المصائر وتبديل الأوضاع . في إطار الوعى بهذا القانون يبدو أى وكل شيء قابلاً للاستيعاب والفهم والتصديق وإن خفيت الحكمة وعز الإدراك .

تتوالى الآراء والتعليقات بمعرفة إبراهيم العطار والطبيب عبدالقادر المهيني ومعروف الإسكافي وعجر الحلاق وإبراهيم السقاء وسحلول تاجر المزادات والتحف وشملول الأحدب مهرج السلطان وجليل البزاز وكرم الأصيل المليونير . وتغلق دائرة الحوار بالمقاول حمدان طنيشة الذى يعود ليكرر جوهر وخلاصة مقولته الإولى بلا تفاصيل .

– يقول للشيء كن فيكون . " نفسه – ٣٦ "

وينتهى الحوار ، لأن الكلمة الفصل قد قيلت !.

**** سيقـــول السفهـــاء مـــن النـــاس مـاولاهم عـن قبلتهـم التى كـانوا عليهـا قـل لله المشـــرق والمغـرب يهـدى بـه مـــن يشـــاء إلى صراط مستقيم ** (١٤٢)**

لعل العجوز محتشمى زايد هو اكثر شخصيات نجيب محفوظ تمثلاً بالقرآن الكريم . وقد تحقق له الإيمان بعد رحلة نبيلة شاقة تقلب خلالها بين مختلف الإتجاهات حتى وصل إلى الإستقرار : إيمان موروث ، شك ، إلحاد ، عقلانية ، لا ادرية ، ثم إيمان . " يوم – ٢١ "

ومن منطلق هذه الرحلة يكتسب استشهاده بالقرآن مغزى ينم عن وعى كبير بالدين والدنيا معاً .

طالت خطبة حفيده علوان فواز أكثر مما ينبغى بسبب الأزمة المادية ، وتحتم أن تنتهى . تولى الجد مجبراً حزيناً مهمة إقناع الحفيد ومناقشته ، وبعدها : جالت بنفس الآية الكريمة " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم " . " نفسه – ٣٤ ، ٣٥ "

تغيرت قبلة الرسول ليرضى ويستقر ، وتكالبت الظروف القاسية على الشاب التعيس علوان لتغيير قبلته بما يحول دون إستقراره ورضاه .

تناقض كامل بين الموقفين ، والمشترك الذى دفع بالآية إلى ذهن العجوز يتمثل فى " السفهاء " الذين – لابد – سيسارعون إلى القول والثرثرة والتشهير .

الأب والأم ، وهما الأقرب إلى الجد والحفيد والأكثر إدراكاً لطبيعة المشكلة ، كانا السابقين إلى القول والتبرير . قال الأب :

– الخطبة تعرقل الاثنين .

وقالت هناء :

- لو سمع كلامى من أول الأمر ما انتهى بنا الأمر إلى هذه الخاتمة المهينة .
" نفسه - ٣٤ "
وما أوسع المجال للسفهاء من خارج الدائرة اللصيقة ! .

** الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله
وإنا إليه راجعون ** (١٥٦)

البشرى للصابرين الذين يستقبلون المصائب بالتسليم ، والموت هو المصيبة البشرية الكبرى التى يسعى الإنسان إلى التماسك أمامها فلا يجد ما يردده إلا الجزء الأخير من الآية دليلاً على الإيمان وبحثاً عن التماسك والصبر والتبرير المقنع : إنا لله وإنا إليه راجعون .

النموذج المثالى لاستعمال الآية نجده عند المعلم كرشه عندما يتلقى من ابنه حسين خبر قتل ابن الزقاق عباس الحلو . يضرب المعلم كفا بكف ويقول :

- إنا لله وإنا إليه راجعون . " زقاق - ٢٨٥ "

ليس أمام المعلم إلا أن يقولها . وقد لا ننسى أنه مدمن مخدرات وشاذ جنسياً وفاجر لاتربطه بالدين صلة متينة او واهية ، ولكن الآية أقرب إلى المقولات الشعبية التى يرددها الجميع عند الموت ، وربما لا يدركون أنها جزء من آية قرآنية !.

وثمة نموذج آخر نصادفه فى الحوار الذى يدور بين أحمد عبدالجواد والشيخ متولى عبدالصمد عن شهداء ثورة ١٩١٩ : كان الشاب يوزع سلاطين اللبن الزبادى فصادف فى طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالإشتراك فيها بلا وعى ، وما هى إلا ساعة أو نحوها حتى خر صريعاً فى ساحة الأزهر ، لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون . " بين - ٤٤٧ " .

يصدر التعليق فى الروايتين عن شخصيتين لا علاقة قرابة أو صلة حميمة تربطهما بالميت ، ولكنه التأسى بالموت نفسه . ذلك أن الموت - دونا عن كل المصائب الآخرى - يتضمن فكرة الرجوع إلى الله واهب الحياة ومستردها .

ولذلك قد يغيب " الميت " ويظهر " الموت " مقترناً بالآية . وفى زيارات كامل رؤبه لاظ - الطفل - لقبر جدته مع امه ، يطل الموت وتسود أحاديثه . ويتأثر كامل بما تردده أمه من عبارات تدور حول حتمية الموت : ولشد ما كان يحز فى نفسى أن أسمعها تردد : " إنا لله وإنا إليه راجعون " أو " آخرتنا التراب " أو " الموت نهاية كل حى " ... " . " السراب - ٢٠ " .

الآية الراسخة هي أول ما تـردده الأم ، ثـم تظهـر تعليقـات هـي أقـرب إلى الترجمـة المفسرة والمبسطة للمعني : آخرتنا التراب ، الموت نهاية كل حي .

ويغيب الموت أيضاً – وإن اطلت أشباحه وعلاماته – عندما يتوهـم سـليمان الزيني موت جاريته المحببة إلى قلبه . ينحني فوق الصنـدوق الـذى حمـل مـا يعتقـد أنـه جثتهـا مردداً في حزن : " إنا لله وإنا إليه راجعون " . " ليالى – ١٧٦ " .

لم تمت الجارية ، وإن تم السعي إلى ذلك وفشل ، ولذلك يبدو الموت الموهوم موقفاً مأساوياً قبل إنفراج الأزمـة وتكشـف الحقيقة . وعلى النقيض مـن ذلـك تسـود روح الفكاهة عندما يتصور عم كـامل – قليـل الصلة بالحياة وأحداثها – ان السرادق المقام للحفل الانتخابي هو سرادق لميت ! : وانزعج عـم كامل وظنـه سـرادق ميـت فهتـف بصوته الرفيع " إنا لله وإنا إليه راجعون " . " زقاق – ١٤٤ "

في السرادق المنصوب مصيبة سياسية لا تقل هولاً عن مصيبـة المـوت التـى يقـام لهـا سرادق مماثل ، ولكن الرجل الطيب الساذج لا ينزعج إلا للمـوت المـادى الـذى يعرفـه ويغفل عن الدعارة السياسية المميتة التى تقتل الوطن ومستقبله ولا تتلقى العزاء !.

**** إن فـــى خلـــق السمـــــوات والأرض**
واختـلاف الليـــل والنهـار والفلـك التـى تجـرى
فـى البحـر بمـا ينفـع النـاس ومــا أنـــزل الله مـن
السماء مـن مـــاء فأحيـا بـــه الأرض بعـد موتهـا
وبـث فيهـا مـن كـل دابـــة وتصريـف الريـاح
والسحاب المسخر بين السـماء والأرض لآيـــات
لقوم يعقلون ** (١٦٤)

ينفرد العجوز محتشـمي زايـد بنفسـه . وفـي وحدتـه يرصـد أن الربيـع لطيـف نـادر الخماسين ، وفي مرحلته السنية المتقدمة يتوقع ضيفـاً حتميـاً هـو المـوت ويتمنـى حسـن الختام . من مزيج الوحدة والتقدم في السن يصل محتشمي إلى قانون وليد الخبرة والوعي : ودنيا الله جميلة خليقة بكل حب فأى روح شـريرة قـد حلـت بهـا . السـماء والنيـل والأشـجار وأسـراب الحمـام وهـذا الصـوت المليـح " إن فـى خلـق السـموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفـع النـاس ومـا انـزل الله مـن السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيهـا مـن كـل دابـة وتصريـف الريـاح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون " . " يوم – ٤٢ " .

الآية التـي يسـمعها محتشـمي ويعيـش فيهـا تتوافـق مـع حالتـه وعلاقتـه مـع الكـون والوجود والواقع . الربيع اللطيف جزء من الظواهر الطبيعية التى تبدأ بها الآية ، والدنيـا الجميلة الجديرة بالحب تجد انسجامها مع نعم الله التى تتعدد مظاهرها فى الآية لحسـاب الإنسان وخيره وصالحه . اما الروح الشريرة التى تهدد العالم وتفسده فمـتروك علاجهـا لختام الآية التى تقدم الآيات والعبر للقادرين على الإدارك والوعى : لقوم يعقلون .

العجوز يسمع الآية وينتشي بها ويمارسها ويترجمها وينتصر - قدر طاعته المحدودة - لعظمة وجلال الإنسان بقواه الكامنة الخفيـة التـى يعيبهـا أنهـا لا تتدبـر ولا تتـأمل ، أو تفعل ذلك كله بعد فوات الأوان !.

** كتب عليهم إذا حضـر أحدكـم المـوت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربـين بالمعـروف حقـاً على المتقيـن ** (١٨٠)

فى تفاعل الواقع الإجتماعى مع النص القرآنى يظهـر نـوع مـن التحريـف والتحويـر الذى يحول مسار الآية لتكتسـب فـى الوجـدان الشـعبى واللغـة الدارجـة مسـاراً مختلفـاً ومعنى بديلاً وإن لم يكن بالضرورة مضاداً او مناقضاً لروح الآية .

الحاج مصطفـى فـى قصـة " جـوار الله " سمسـار ورجـل أعمـال " شـعبى " يتسـم بالدهاء وسعة الحيلة والقدرة على التصرف بمرونة ، وخاصة إذا قورن بموظـف تقليـدى ثقيل الحركة وقليل الخبرة بالحياة مثـل عبدالعظيـم أفنـدى . ثمـة منـزل آلـت ملكيتـه إلى عبدالعظيم وشقيقته ، وإذا لم يكن بد من البيع والشـراء ، وإذا لم يكـن بـد مـن وجـود سمسار وسيط يظفر بالغنيمة ، فمنطق الحاج مصطفى انه الأولى كما يقول لقريبه : فكر على مهلك ، وإذا قررت البيع فأحضر بنفسك أى سمسار كمـا تشـاء حتـى تقبـل عـن رضى الثمن المعروض ولك على بعد ذلك ان احد لها شـارياً بنفـس الثمـن ، والأقربـون أولى بالمعروف ! . " دنيا - ٥٠ "

قد يكون المعنى الذى تعنيه الآية مختلفاً ، وقد يكون المثـل الشـعبى المحور عـن الآيـة والمستمد منها صائباً وصحيحاً ، ولكن ما يعنينا هنا هو التأكيد على التفاعل الحميم بين النص القرآني والواقع المعيش . يعطي النص للواقع ولا يأخذ منه ، ولكنـه لا ينجـو مـن التأويل الشعبى والتحريف اللغوى والتغيير الذى يبدو طفيفـاً أحيانـاً وشـديد البعـد عـن النص فى أحيان أخرى.

** أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ** (١٨٧)

علامة فاصلة لنهاية الإفطار وما يباح فيه وبداية الصيام وما يتحتم الإمتناع عنه : حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

يظهر التأثير القرآني على لغة نجيب محفوظ وهو يصف سهرة تقليدية من سهرات المعلم كرشة وأصحابه : وصعدوا جميعاً إلى حجرة خشبية على بيت سطح بيت السيد رضون ، وتحلقوا المجمرة ، وبدءوا سهرة جديدة لا تنتهي حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . " زقاق – ١٣ "

لن يتغير المعنى الذى يستهدفه الروائى إذا كانت الصياغة البديلة – عل سبيل المثال – هي : لا تنتهى حتى الفجر . ولكن لغة نجيب – وبخاصة فى أعماله الأولى – تذخر بالصياغات والأساليب التى يتجلى فيها الأثر القرآنى حتى أنه فى المقتبس الذي أشرنا إليه يستعير جملة قرآنية كاملة ، وفى سياق الحديث عن سلوك لا علاقة له بالدين أو القرآن !.

•

** وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين **

(١٩٥)

ليس من الحكمة فى شيء أن يلقى الإنسان بنفسه إلى ما فيه هلاكه ، ولكن السؤال الذى يبحث دائماً عن الإجابة المراوغة : ما الحكمة ؟ ، وما التهلكة ؟!. من الذى يحددهما ، وما الدليل – اليقين على صواب تحديده ؟ !.

قصة حب رومانسية حالمة بين رشدى عاكف وجارته نوال ، وتتوج القصة بما يشبه الخطوبة غير الرسمية . وأصيب رشدى بمرض السل ، فهل الحكمة أن تتجنبه نوال ؟ ،

وهل التهلكة أن تتمسك به وتغض الطرف عن مرضه الخطير المعدى ؟!. يستدعيها الأب كمال أفندى خليل ويقدم لها صورة واقعية وافية عن حالة رشدى خاتماً بما يشبه الأمر في صورة النصيحة عن ضرورة هجره :

- يؤسفني ان أصارحك أن الشاب مصاب بالسل ، وهو مرض كما تعلمين فظيع ، ورحمة الله واسعة ، بيد أن على الإنسان واجباً نحو نفسه لا يجوز أن يفرط فيه أو يستهين به لأى داع مهما جل شأنه ، فلندع لصديقنا العزيز بالشفاء ، ولنذكر قوله تعالى " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . " خان - ٢٢٧ "

على نوال أن تقنع بالدعاء من بعيد وأن تتجنب المخالطة المؤذية ، والآية التي يختتم بها الأب حديثه تذكر لتأكيد المعنى الذى يراوده ويلح عليه . ألم ينه الله عن طريق التهلكة ؟!. أليس مرض رشدى " الفظيع " مهلكاً مؤذياً ؟!. لا سبيل إذن - كما يقول النص القرآنى - إلا تجنب ما يقود إلى التهلكة .

ربما لم تقتنع نوال بحكم اشتعال عواطفها ، ولكنها لم ترد . وفي مواقف أخرى يتوارى المرض وتظهر السياسة . كلاهما - المرض والسياسة - قد يفضى إلى الموت الذي يسعى الإنسان إلى تجنبه ما أسعفته الحيلة .

اشتعلت ثورة ١٩١٩ وانغمس فهمي أحمد عبدالجواد فيها . لا تعرف أمه شيئاً عن نشاطه الثورى ، ولكنها تتكلم فى " مجلس القهوة " عن المتظاهرين المتهورين فى الوقت الذى يتكلم فيه فهمي عن الفئة نفسها باعتبار أنهم مجاهدون فدائيون !. ويقع كمال الطفل في الحيرة التي لا مخرج منها : كثيراً ما تساءل عن حقيقة أمرهم . أهم كما تدعي أمه " متهورون " لايرحمون أنفسهم ولاأهليهم ملقين بأرواحهم إلى التهلكة أم هم كما يصفهم فهمي أبطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟!. . " بين - ٣٤٤ "

الأم تتكيء على آية والإبن يستند على آية أخرى ، وبينهما يقف كمال منهولاً عاجزاً عن الوصول إلى يقين وحكم نهائى .

استشهد فهمي وتحققت مخاوف الأم التي لم يبق لها إلا كمال ، ولكن المظاهرات تعود من جديد وتعود معها المخاوف وتتجدد الأحزان وتطل العبارة القديمة : اللهم قنا العذاب ، فلنتركهم لغضب القهار ، هذه هي الخطة المثلى ، اما أن تلقى بأنفسنا إلى التهلكة فهو الجنون والعياذ بالله !. " قصر - ١٨٥ "

ليست أمينة وحدها التي تعرف الخوف على فهمي وكمال وترى الابتعاد عن الخطر مستشهدة بمعنى الآية دون نصها . زوجها احمد عبدالجواد أيضاً يمارس التجربة نفسها

ويواجه فهمي في وضوح أكبر يكشف عن أهمية النص القرآني في الإقناع بقدر ما يكشف عن خطورة الخطأ في استدعاء النص الكامل الصحيح وهو ما يدفع إلى الإستشهاد بالمعنى دون التورط في الاعتماد على الذاكرة التي لا تسعف دائماً . إن أحمد عبد الجواد يشم رائحة الخطر عندما يوصف ابنه في مسجد الإمام الحسين بأنه من " المجاهدين " وسرعان ما يستدعي فهمي ليحاوره ويناقشه ويقنعه بالابتعاد عن المهالك مسلحاً بالآية القرآنية .

يهتف السيد بغلظة وكأنه يداري خوفه على ابنه بحدة الغضب :

- إن الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك ، وقد أمرنا سبحانه بألا نعرض أنفسنا للتهلكة ..

ود الرجل أن يستشهد بالآية التي تترجم هذا المعنى ، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن إلا السور القصيرة التي يتلوها في صلواته ، فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزراً لا يغتفر ، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه ... " بين - ٤٠١ "

" معنى " الآية حاضر في ذهن أحمد عبدالجواد ، اما " النص " فغائب لضعف محفوظاته واقتصارها على قصار السور . الأب حريص على النصح المؤيد بحجة قرآنية مساعدة ، والضمير الديني يمنعه من التورط في الإستشهاد بما لا يحفظه حتى يتجنب الوقوع في الوزر الذى لا يُغتفر !.

لقد وقع كمال في حيرة بين نصين قرآنيين : الأول ينهي عن التورط فيما يهلك ، والثاني يامر بالجاهد ومقاومة الأعداء . وها هو فهمي يصطدم بحجة أبيه فينهض ليقارعه الحجة بالحجة ويذكره بأن الله أيضاً يحث على الجهاد ! .

كمال لا يعرف إلا الحيرة ، اما الأب فيملك السلطة التي تسعفه لإلغاء فكرة المناقشة وعدم الدخول في الحيرة والجدل !.

و لم يكن أحمد عبدالجواد وحده هو الذى يتشبث بالآية ليدافع عن فهمي وسلامته ، فالشيخ متولى عبدالصمد يلجأ هو الآخر إلى الآية نفسها ويطلب من أحمد أن ينصح بها ابنه :

- قل لفهمي : أن الشيخ متولى ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة .. " نفسه - ٤٥١ "

أحمد عبدالجواد ومتولى عبدالصمد متحصنان بالآية الناهية عن إلقاء النفس إلى التهلكة ، وفهمي يتحصن بآيات أخرى تحض على الجهاد ، ومفتاح إجابة

اللغز في نسبية المعاني : ما التهلكـة ؟ وما الجهاد؟!. ونجد المفتاح أيضـاً في المصلحـة التي تبحث عن المعنى المحقق للهدف .

لقد اثبتت الحوادث للأم الحزينة أن التمسك بحياة أبنائها أهم مـن الوطـن والثـورة ، وها هو الأب يسعى - بعد سنوات كثيرة - إلى إقناع كمال بالإبتعاد عـن خطـر آخـر داهم هو " علوم الكفار " ممثلة إلى التاريخ القديم والقريب ليؤكد وجهة نظره :

- وقد نصحت قديماً " المرحوم " بألا يلقـى بنفسه إلى التهلكـة .. " قصـر - ٣٧٤ "

التهلكـة في المرض والعدوى ، والتهلكـة في السيـاسة والمظاهرات ، والتهلكة في الأفكار والنظـريات . البديل للتهلكـة يتمثـل فـي حيـاة بـاردة معقمـة ، والذيـن ينصحون بهذا النمط من الحياة لا يفكرون عادة في معنى الحياة التي تخلـو مـن مواجهـة أخطـار الأمراض والسياسات والأفكار !.

**** زُين للذين كفرو الحياة الدنيـا ويسـخرون**
من الذين آمنوا والذين اتقـوا فوقهـم يـوم القيامـة
والله يرزق من يشاء بغير حساب ** (٢١٢)

في قصة " روح طبيب القلوب " حوار بـين خـادم الضريـح والـولي الكـاذب حـول الفتاة حائزة الذهب المسروق . يتساءل مدعي الولاية :

- من أين لها هذه الحلي ؟

ويرد الخادم الجشع :

- الله يرزق من يشاء بغير حساب . " شهر - ١٠٢ "

ما يقوله الخادم هو الجزء الأخير من الآية التي نحن بصددها ، والعبارة مكررة بنصها في نهاية الآية " ٣٧ " من سورة آل عمران " ونهاية الآية " ٣٨ " من سورة " النـور " والمعنى نفسه مع تغيير طفيف لإختلاف الضمائر نجده في الآية " ٢٧ " من سـورة " آل عمران " : .. وترزق من تشاء بغير حساب .

الآيات المتشابهات تفيد معنى واحداً هو قدرة الله على أن يمنح ويرزق مـن يشـاء ، ولكـن الاستخدام البشـرى للآيـة لا يـأخذ إلا الظـاهر المباشـر وقـد يتخفـى وراء الاستشهاد ما يتم عن السرقـة والإختـلاس كما في القصـة التي يتنازع فيها مدعـى الولاية وخادم الضريح والشرطي على الكنـز المسـروق . قد تكون النية وحدهـا هـي

الفيصل فى دوافع القائم بالإستشهاد ، ولكن طبيعة الأحداث تكشف بجلاء عن الإدعاء والكذب والإستخدام المفرض المضلل للآيات القرآنية .

**** كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما إختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ** (٢١٣)**

يتساءل سليمان مبارك ، المتمسك بالحاده حتى النهاية ، في حوار له مع محتشمى زايد الذى رسا على شاطىء الإيمان :

- كيف أصدق أن مثلك يؤمن بالخزعبلات ؟

ويجيب العجوز المؤمن :

- الله يهدى من يشاء . " يوم - ٢١ "

قد تكون إجابة محتشمى منتزعة من صميم اللغة اليومية فى صياغتها الفصحى المبسطة ، ولكن المصدر الأصلى نجده في عديد من الآيات القرآنية . فبخلاف النص الذى يتصدر حديثنا هذا ، نجد الصياغة فى نصوص أخرى : " البقرة - ٢٧٢ " ، " النور -٤٦ " ، " القصص - ٥٦ " .

النص مسبوق بـ " الواو " ومتبوع بـ " إلى صراط مستقيم " فى الآية الأولى من سورة " البقرة " وفى آية سورة " النور " وهو مسبوق بـ " لكن " فى الآية الثانية من سورة " البقرة " وفى آية سورة " القصص " .

تقنع إجابة محتشمى الموجزة بالجزء الأول الدال على موقفه الحوارى فى الآيات . فكرة الهداية النابعة من الله هى محور الرد ، وبهذه الفكرة يستغنى عن السابق واللاحق معاً .

**** كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ** (٢١٦)**

قد يتوهم الإنسان فى الشر خيراً ، وقد يتخـوف فـى الخير شـراً . ذلـك أنـه كـائن محدود الوعى وعديم الإدراك بـالغيب ومـا يختبـىء فيـه . الله وحـده العـالم بمـا يتجـاوز الظاهر السطحى الذى يتوقف عنده الإنسـان .كراهيـة القتـال وإيثـار السـلام نمـوذج ، وكراهية المرض وإيثار الصحة نمـوذج آخـر . وعندمـا يُبتلـى الإنسـان بـالمرض يسـارع المحيطون به إلى محاولة بث الطمأنينة فيه فتسعفهم الآية كما يفعل عواد المليونير المشـلول عبدالحميد حسنى فى قصة " ايوب " . يتحلقون حول سريره وتتوالى التعليقات :

- كيف لنا بإدراك حكمته !
- عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

عمن تصدر هذه العبارات ؟!. التقييم للمليونير المريض : تتابعت الشـعارات الدينيـة من قوم لا يحفلون من الدين إلا بقشوره . " الشيطان - ٢٠٧ "

ليس الاستشهاد بالآيات القرآنيـة دليـل إيمـان دائمـاً فهـو أقـرب إلى " الشـعارات " و " العبارات المحفوظة " فى كثير من الأحيان !.

**** الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء مـن علمـه إلا بمـا شـاء وسـع كرسـيه السـموات والأرض ولا يئـوده حفظهما وهو العلى العظيم ** (٢٥٥)**

الآية السابقة هى آية الكرسى ، وقد جمعت أصول وصفات الحضـرة الآلهيـة . فهـو واحد حى قيوم لا يلحقه فتـور ولا نـدم ، لـه مـا خفـى مـن العـالم ومـا بطـن ، مطلـق التصرف لا يرد حكمـه شـفيع ، عـالم بمضمـرات الأمـور ولا يعلـم أحـد عنـه شـيئاً إلا بتوفيقه ، وسع علم كل شيء فى السموات والأرض ولا يشق عليه حفظهما وهو العلى العظيم .

ولآية الكرسى مكانـه كبيرة فى قلـوب المسـلمين ، وبخـاصة عنـد العـوام فـى الأوساط الشعبية . إنها بمثابـة الحصـن والمـلاذ والأداة الوحيـدة المتاحـة والمضمونـة لمواجهة المخاوف والأخطار . ينشد المسـلمون البسـطاء فى الآيـة أمانـاً مفقـوداً فـى الواقع المتجهم الذي لا يعطى بارقة أمل فى الخلاص .

ولعل سنية المهدى هى الأكثر تجسيداً لما تحتله آية الكرسى ، فإذ تستشعر القلق على حفيدها رشاد الرشيدى الضابط في الجبهة أثناء حرب الإستنزاف ، تلجأ إلى ما تملك من اسلحة لحمايته : وصدقت نيتها على تلاوة آية الكرسى عقب صلاة العشاء ، ليلة بعد آخرى ، لتحل به ورفاقه بركتها .. " الباقي – ٥ "

وإذا كانت سنية المهدى تراهن على " بركة " الآية لحماية حفيدها ورفاقه من اخطار العدو الإسرائيلى ، فإن كمال عبدالجواد – الطفل يلجأ إلى الآية نفسها للتمسك بأمه وقهر مخاوف ما قبل النوم . من عادة الأم أن تقرأ الآية على رأسه قبل أن ينام : ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسى ..

ولأن هذه الآية نذير الفراق ، فإن الطفل المتعلق بأمه – والمحروم من النوم معها – يتحايل لإطالة فترة اللقاء : و لم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيراً من أن يطلب إليها أن تتلو على رأسه – إذا ختمت آية الكرسى – سورة ثانية ثم ثالثة . " بين – ٦٥ "

كلاهما يتطلب الحماية ويلجا إلى الآية : الأم تحمى بها ابنها من كوابيس النوم ، والطفل يحمى نفسه من كوابيس الفراق !.

إذا وجد الخوف ، تظهر الآية كتعويذة اكيدة المفعول لمواجهة كافة انواع الخطر : من مطاردات الإنجليز بالرصاص لثوار ومظاهرات ثورة ١٩١٩ إلى غارات المحور الجدية في الحرب العالمية الثانية .

فى مواجهة الرصاص الإنجليزى الحاصد لأرواح المتظاهرين ، يلجأ الخائفون من الأطفال والنساء إلى دكان حمدان بائع البسبوسة ، اما حمدان نفسه فيأمرهم بالصمت ويتلو آية الكرسى " نفسه – ٣٤٨ "

ومحمد ابن الشيخ السناوى فى قصة " صباح الورد " ذو أحلام دموية مدمرة ، ولكنه يعرف الخوف فى ظل غارات الحرب . وهو ينشغل – فى المخبأ – عن اصحابه وتعليقاتهم بتلاوة آية الكرسى مستفيداً ببركتها كما علمه ابوه فى الزمان الأول . " صباح – ٧٠ "

وليست المواجهة المباشرة الصريحة للخطر هى الدافع الوحيد للاستعانة بالآية ، فالاستماع إلى حكايات وذكريات مرعبة يستدعي ذلك كما يفعل الشيخ متولى عبدالصمد وهو يتهيأ ليسمع من أحمد عبدالجواد قصته مع الجنود الإنجليز الذين اعتقلوه وسخروه فى عمل إجبارى شاق : أفزعت يا بنى "؟ كيف كان فزعك .. خبرنى .. " بين – ٤٤٥ "

وإذ يتهيأ عباس الحلو للسفر من أجل العمل - الاختياري هذه المرة - في معسكرات الإنجلز ، يودعه أهل الزقاق كل بطريقته : وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسي . " زقاق - ١٠٧ "

أليس الشاب العاشق المسالم في طريقه إلى حيث يجتمع الطموح مع الخطر ؟!.

ولأن الحياة في عمومها لا تخلو من المخاوف والأخطار ، ولأن الحياة نفسها - لأنها حياة - مخزن كبير للهموم والهواجس ، فإن تلاوة آية الكرسي تتحول إلى ما يشبه " العادة " و " الطقس " بمعزل عن وجود أسباب مباشرة ملموسة .

في قصة " كلمة في السر " تمارس فوزية - وهي زوجة تقليدية زاهدة - طقوساً معتادة في جلستها اليومية : وفيما بين أوقات الإستماع إلى الراديو تتلو آية الكرسي بصوت خافت وبعض السور القصار التي تقيم بها صلواتها الخمس . " بيت - ٨٠ "

والأمر نفسه نجده عند الموظف المهزوم المأزوم المسكون بهوس مقابلته القديمة للمدير العام في قصة " المقابلة السامية " : وكنت راجعاً إلى الأرشيف حاملاً البريد وأنا أتلو آية الكرسي عندما اعترضني موظف ... " الجريمة - ١٧٧ "

الزوجة التقليدية والموظف البائس لا يواجهان خطراً محدداً ، ولكنهما يمارسان عادة راسخة للتكيف مع عموم الحياة بمآسيها وهمومها .

وينفرد عثمان بيومي بقراءة سرية داخلية لآية الكرسي وهو يغادر مكتب المدير العام في أول لقاء يجمعهما بعد تعيينه : وهو يغادر المكان قرأ في سره آية الكرسي . " حضرة - ٦ "

المدير العام هو " إله "عثمان ، و " كرسي " المدير العام هو منتهى طموحه ، والغرفة التي يغادرها هي " قدس الأقداس " ... أهي مصادفة ان يقرأ - في سره " - آية الكرسي ؟!.

**** ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يُوفى إليكم وأنتم لا تُظلمون ** (٢٧٢)**

انظر : سورة البقرة ، الآية ٢١٣ .

**** لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن**

نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ** (٢٨٦)

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

للطاقة الإنسانية حدود ، وليس كل مأمول بمستطاع .

يأمل السيد أحمد عبد الجواد أن يستمر جميل الحمزاوى فى عمله كوكيل له فى الدكان ، ولكن رغبة الرجل فى الإعتزال نابعة من تقدمه فى السن وتدهور صحته . ولذلك يقول بحزن:

– آن لى أن اعتزل ، الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . " السكرية – ٢٠ "

الأل القرآنى : " لا يكلف الله .، وصياغة الحمزاوى " الله لا يكلف " ، ولكن نيته واضحه فى الإستعانة بالآية لتبرر وتفسير رغبته فى التقاعد وعجزه عن العمل .

والتحوير نفسه نجده فى الحوار بين عبدالرحيم باشا عيسى وتابعه الرقيع على مهران فى جلسة تسيطر عليها روح الشذوذ وأحاديث الحج !. . يمدحه الباشا فيقول :

– أرجو أن يكون وجهى قد تورد !

ويرد عبدالرحيم باشا ساخراً :

– الله لا يكلف نفساً إلا وسعها !. " نفسه – ٣٦١ "

لا طاقة لجميل الحمزاوى عل العمل لأنه مريض عجوز ، ولا قدرة لعلى مهران على الخجل لأنه رقيع صفيق الوجه ، ولا صبر لنصف الطفل " نصيبى " على الصيام لأنه جائع دائماً . وترق له أمه الست عنباية فتخاطب أباه :

– الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، دعه حتى يكبر عاماً أو عامين " رأيت – ٩١ "

جميل الحمزاوى وعبدالرحيم باشا عيسى والست عنباية " يعرفون " الآية ولا يستخدمون نصها قانعين بالمعنى بعد تغيير الصياغة . والوحيد الذى يلتزم بالنص الصحيح هو العجوز محتشمي زايد الذى تقدم به العمر حتى أنه لا يجد ما يفعله إلا الانتظار : في وحدتي أنتظر . أحبك الروب حول جسدى النحيل وأسوى الطاقيه فوق رأسى الأصلع ، أربت على شاربى وفي وحدتى أنتظر . " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " . " يوم – ١٩ "

لم يعد في وسعه إلا الانتظار ، و لم يعد فى طاقته أن يعمل ويضيف . ومحتشمي أيضاً هو الوحيد الذى لا يقنع بمطلع الآية فيواصل رحلته مع جزء آخر فيها يستدعيه في لحظة طيش وضعف طارىء يعي هو نفسه أنها لن تفضي إلى شيء : وعندما تنحنى لتعيد بسط الكليم أتصور أن أقرصها بحنان ، بمجرد تصور ، فإنني مسيطر على زمامي تماماً وهي مطمئنة من ناحيتي تماماً .كأنها رجل فى النشاط والقوة وتماسك الشخصية .
" ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .. " نفسه - ٢٠ "

دعاء من القلب للاستغفار عن وسواس لحظى يبدو أقرب إلى المغامرة المستحيلة والحلم المراوغ . لم تعد للرجل قدرة على الخطأ والخطيئة ، ولكنه لايقوى على مصادرة خياله !.

سورة آل عمران

**** من قبل هدى للناس وانزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله هم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ** (٤)**

قبل أن يسافر السيد رضوان الحسيني لأداء فريضة الحج ، يجتمع مع نفر من أصدقائه وأصفيائه المودعين له قبل سفره . يؤمن رضوان أن المصابين فى الدنيا هم أحباب الله وأولياؤه ، ويقول فى حرارة ووجد : يذهب أناس إلى أن هذه المصائب وأمثالها مما يبتلى به الأبرياء عنوان عدالة انتقامية لا يفطن لحكمتها عامة الناس ، وتراهم يقولون إنه لو تفكر الأب الثاكل مثلاً لوجد أن ثكله جزاء ذنب اقترفه هو أو أحد آبائه الأولين ، ولكن لعمرى إن الله أعدل وأرحم من أن يأخذ البرىء بالمذنب . وتراهم يستشهدون على صواب رأيهم بما وصف الله به نفسه من انه عزيز ذو انتقام ، ولكننى أقول يا سادة إن الله تعالى غنى عن الانتقام ، وإنه إنما أضاف هذه الصفة لذاته لينبه الإنسان إلى إحتذائها ....

وأثار رأيه اعتراضات كثيرة ، فتمسك البعض بالنص ، وأول البعض التفسير ، ورد آخرون الإنتقام إلى الرحمة .. " زقاق - ٢٧٢ ، ٢٧٣ "

فى حديث رضوان الحسينى وما أثاره من اعتراضات ومناقشات ، إشارة إلى ما وصف الله به نفسه من أنه عزيز ذو انتقام . وهذا الوصف نجده فى آيتين غير التى نحن بصددها : الآية الأولى فى سورة المائدة "٩٥ " والآية الثانية فى سورة إبراهيم " ٤٧ " .

ليس فى الآيات الثلاث ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن الله يأخذ البرىء بالمذنب : الآية الأولى تتوعد الكافرين المكذبين بآيات الله ، والآية الثانية تهدد - بعد العفو كما سلف - قاتلى الصيد فى الأشهر الحرم ، والآية الثالثة تؤكد قدرة الله الذى لا يخلف وعده .

إن رضوان الحسينى يرد على ما يذهب إليه بعض الناس - دون تحديد - ويعكس دفاعه ملامح شخصيته : المبتلى الصابر الذى يلتمس رحمة الله فى كل ما يصادفه من خير أو شر .

**** قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء**

وتذل من تشاء بيدك الخير إنـك على كـل شـيء قدير ** (٢٦)

يقص فاضل صنعان على صديقه الجديد عبد الله الحمـال حكـايتي صنعـان الجمـالي وجمصة البلطي ، وهما قصتان مليئتان بالغرائب والأعاجيب ، وفيهما ينتقل البشر – بلا تمهيد طويل– من القمة إلى القاع . لم يكن في المادة المروية مفاجأة لعبد الله ، وهو فـي الأصل جمصه البلطي ، ولكنه يعلق على ما يسمعه قائلاً :

– يعز من يشاء ويذل من يشاء . " ليالي – ٦٩ "

إنه يرد الأمر كله لله مالك الملك ، مانح الملك لمن يشاء ونازعه عمن يشـاء ، المعز والمعذل بمشيئته المطلقة ، القدير على كل شيء . لا يعلق عبدالله بالآية كاملـة ، ولكنـه يتوقف عند جزء منها مغيراً الضمير بما يناسب المقام فتتحول كلمتا : " تعز " و " تذل " إلى " يعز " و " يذل " .

** قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ** (٣١)

الشيخ علي الجنيدي هو الملاذ والملجـأ ، سـعيد مهـران هـو الحيرة والقلـق . الشـيخ يعيش في راحة الرضا واليقين مسلحاً بالبصيرة والوعي والإيمان ، واللص المفرج عنــه لا يذوق للحرية طعماً لأنه مسكون بالتعب الدائم . يلتقيان ولا يلتقيان . لا يكف الشـيخ الولي عن دعوته إلى الوضوء وقراءة القرآن ، ولا يسمع سعيد لأنه مشغول ببـث الهمـوم : الابنه التي انكرته ، الزوجة التي خانتـه ، الصديـق التـابع الـذي غـدر بـه وطعنـه مـن الخلف ، الأموال التي ضاعت وتبخرت .

ولا يقنع الشيخ علي بالدعوة العامة فيركز على آيات بعينها قائلاً في عتاب :

– توضـأ واقـرأ " قـل إن كنتـم تحبـون الله فـاتبعوني يحببكـم الله " ، واقـرأ "واصطنعتك لنفسي " وردد قول القائل " المحبة هي الموافقـة أي الطاعـة لـه فيمـا أمر ، والانتهاء عما زجر ، والرضا بما حكم قدّر " . " اللص – ٣٢ "

الشيخ لا يختار عبثاً ، فهو باختياره الدال المقصود يجسد موقفه الذي يعلي من شأن التوكل والاعتماد على الله طموحاً إلى الوصول إلى مرحلة الاصطفاء والعبودية الكاملة . وإذا غمضت المعاني العميقة للآيتين على سعيد المشتت المشدود إلى الدنيا والانتقـام ، فإن العبارة الصوفية المتوهجة تكشف وتفسر وتضيء .

ولكن : من أين لسعيد أن يفهم ويتنور ويهتدى وهو الغارق - حتى الأعماق - فى ظلمات الانتقام والثأر والضلال ، والمخاصم بلا هوادة للتسامح والحب والصفاء ؟!.

** فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً
حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا
المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا
قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير
حساب ** (٣٧)

انظر : سورة البقرة ، الآية ٢١٢

قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسني بشر
قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما
يقول له كن فيكون ** (٤٧)

انظر : سورة البقرة ، الآية ١١٧

** إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه
من تراب ثم قال له كن فيكون ** (٥٩)

انظر : سورة البقرة ، الآية ١١٧

** فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله
كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع
إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العاملين **
(٩٧)

يتهيأ السيد رضوان الحسينى لأداء فريضة الحج : وأبى السيد رضوان بعد ان ودع بيته إلا أن يزور قهوة كرشة مودعاً . فانعقد مجلسه محوطاً بالمعلم كرشه وعم كامل والشيخ ودرويش وعباس الحلو وحسين كرشة . وجاءت المعلمة حسنية الفرانة فقبلت يده وحملته السلام أمانه، وقد قال لهم السيد :

- الحج فريضة على من استطاع إليه سبيلاً ، يؤديها عن نفسه وعمن تقعد بهم الأعذار من الصادقين .. " زقاق - ٢٧٤ "

الحج من أركان الإسلام الخمسة ، وهو فريضة مشروطة بالاستطاعة المادية والصحية . وفى حديث السيد رضوان الحسينى استعارة للصياغة القرآنية يعبر بها عن المعنى الذى كان يمكن له أن يعبر عنه بلغة أخرى . ولكن رضوان الحسينى - على مدار

الرواية - يبدو مدعيا بتضعيم أحاديثه بما ينم عن إيمانـه وثقافتـه الدينيـة ، ولذلـك تتنـاثر الألفـاظ والمفـردات المأخوذة مـن الآيـات القرآنيـة والأحـاديث النبويـة والمصطلحـات الفقهية. وهو يفعل هذا دون إدعاء أو صناعة ، فيبدو عفوياً صادقاً مخلصاً فى لغته المعبرة عن إيمانه وتقواه .

** ولتكـن منكـم أمـة يدعـون إلى الخـير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ** (١٠٤)

فى قصة " اجامع فـى الـدرب " تتطلـب الصراعـات السياسية مـن الأئمـة والدعـاة " الموظفين " أن يطوعوا الدين والقرآن لخدمة الأغراض السياسية . والأمر ليس اختيارياً بقدر ما هو إجبارى لا فكاك منه ، وليس أمامهم إلا الطاعـة أو التشـرد . فـى مواجهـة الآمر ، الموظف الكبير ذى الصلة الوثيقة بالسراى ، لا يملك احدهم رداً !. ولكنهـم فيما بينهم وبين أنفسهم يتجادلون ويسخطون . ويقول أحدهم متذمراً شاكياً :

- سنقتل مبدأ إسلامياً هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . " دنيا- ٥٦ "

" الأمر بالمعروف والنهـى عـن المنكـر " مبـدأ إسـلامى وارد فـى عديـد مـن السـور القرآنية بصياغات مختلفة ، والصيغة الأكثر شيوعاً هى : ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

نجد هذه الصياغة فى عديد من الآيـات " الآيتـان " ١١٠ " و " ١١٤ " مـن سـورة " آل عمران " ، والآيتان " ٧١ " و " ١١٢ " من سورة " التوبة " . أما المعنى نفسه - بأشكال أخرى من الصياغة - فأكثر انتشاراً وذيوعاً مما ذكرناه .

يتسع القرآن للمبادىء الإسلامية السامية كالمبدأ الذى ذكرناه ، ولكنه يتسع أيضاً- والأمر هنا مردود للمسلمين أنفسهم دون الإسـلام - للتـأويل والتحريـف الـذى يعـدل مسار النص ويخدم ما لا علاقة له بالإسلام والقرآن . ما المعروف ؟ وما المنكر ؟ ، ومن أولو الأمر؟، ومن الدعاة الجديرون بهذا الإسم ؟!.

التفتيش عن " المصلحة " يكشف عن " الأهداف " الحقيقية التـى تتسـتر وراء ادعـاء الإيمان والعقيدة .

** كنتـم خـير أمـة اخرجـت للنـاس تـأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكـر وتؤمنـون بـا لله ولـو

آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ** (١١٠)

انظر سورة " آل عمران " ، الآية ١٠٤

** يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ** (١١٤)

انظر سورة " آل عمران " ، الآية ١٠٤

** ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ** (١٦٩)

فى الحكاية رقم " ١٥ " من " حكايات حارتنا " يستمع الراوى - الطفل إلى حوار طويل بين أبيه ومجموعة من زائريه . ويدور الحديث عن بطولات وشهداء ثورة ١٩١٩، ويقول أحدهم عن الشهداء :

- أحياء عند ربهم . " حكايات - ٣٥ "

ليس الشهيد كالميت العادى ، والآية القرآنية التى يستشهد احد زائرى الأب بجزء منها ، تنفى عن الشهداء صفة الموت وتمنحهم حياة أبدية موفورة الرزق جزاء ما بذلوه فى سبيل الله . القتيل من أجل حرية و استقلال الوطن المحتل " شهيد " عند الغالبية العظمى ، ولكن " المصلحة " أحياناً - تنفى عنهم صفة الشهادة فى سبيل الله وتصنفهم فى خانة " التهور " المفضى إلى التهلكة !.

** الذين قال لهم الناسُ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ** (١٧٣)

المؤمنون الحقيقيون لا يخشون إلا الله ولا يعتمدون على أحد سواه ، فهو كافيهم وحاميهم ونعم الحامى الوكيل .

والاستخدام الاجتماعى للآية لا يلتزم بحرفية المعنى وإن لم يفارق روحه وجوهره . الله هو " الوكيل "لكل من تعرض - بالحق أو بالباطل - للظلم والافتراء والادعاء ، والله هو " الوكيل " الذى ينتظر عنده المظلوم المغبون حسن الجزاء وخير العوض . وليست المسألة أن يكون القائم بالاستشهاد مصيباً فى ادعائه بالتعرض للظلم ، ولكن يكفى أنه يسعى إلى إثبات ذلك لنفسه أو للآخرين .

في قصة " جوار الله " غابت الست نظيرة عن الدنيا قبل أن تموت ، وتساءل الحاج مصطفى بصوت مرتفع :

- اليوم الثالث من الشهر فهل حصلّت ست نظيرة إيجار الشقق ؟!.

وسرعان ما تتوالى تأكيدات الساكنات بالدفع ، ولأن التعامل لا يتم بالايصالات ، فإن البديل الوحيد هو " الدعاء " ضد الكاذبات : وكان الشك قوياً ولكن لم يكن لدى أحد حيلة فرفع الحاج مصطفى يديه ناظراً إلى فوق وقال :

- أنت أعلم بكل شيء ، حسبنا الله ونعم الوكيل .. " دنيا - ٣٣ "

وهذا الجزء من الآية : " حسبنا الله ونعم الوكيل " ، من لوازم السيد أحمد عبدالجواد في مواقف متعددة المشترك فيها هو التعرض للإحراج : مع الشيخ متولى عبدالصمد ، ومع حليله العالمة ، ومع ابنه ياسين .

يكتسب الاستخدام لها طابعاً مرحاً في ختام مناقشة جادة " محرجة " مع الشيخ متولى عبدالصمد ، فهو يشير إلى وكيله جميل الحمزاوى ليأتى بهدية الشيخ وهو يقول مسروراً :

- حسبنا الله ونعم الوكيل . " بين - ٤٤ "

إنه يتخلص بذلك من عبء مواجهة المعاصى والذنوب التى يرتكبها ويواجهه بها الشيخ ، فكأنه يحيل الأمر كله إلى الله ليتصرف بحكمته ورحمته نيابة عنه !.

ويكتسب الاستخدام طابعاً تعجبياً احتجاجياً في مأزق آخر يواجهه أحمد عبدالجواد فى فرح ابنته عائشه . يبلغ السكر بجليلة مداه فتحرجه وتعرض بعلاقته الجديدة مع زبيدة ، ولا يملك أحمد رداً ولا يقوى على المناقشة ، فيقول :

- حسبى الله ونعم الوكيل . " نفسه - ٢٥٦ "

وثمة حرج ثالث يتسبب فيه ابنه ياسين الذى أدى سلوكه الأرعن إلى إغضاب زوجه زينب ابنة الصديق الحميم للأب السيد محمد عفت . يصر عفت على أن يطلق ياسين ، وتفشل كل محاولات أحمد عبدالجواد في ترضيته وإقناعه بالعدول عن طلبه ، وإذا به يلقى العبء كله على عاتق ياسين وتصرفاته الحمقاء :

- خيبت أملى فيك فحسبى الله ونعم الوكيل . " نفسه - ٣٨٨ "

أحمد عبدالجواد هو المسئول عن معاصيه التى يواجهة بها متولى عبد الصمد ، وهو المسئول عن علاقتيه مع جليلة وزبيدة وما يترتب عليها من مشاكل ، يتخلص من حرج المواجهة بالآية التى يستخدمها فى غير موضعها لخدمة أغراضه وتبرير أخطائه !.

أما غنيم حميدو فيجمع بين الجد والفكاهة فى استخدامه للآية وهو تحت رحمة الانجليز مجبراً على العمل الشاق . إنه يجد الشجاعة ليهمس لأحمد عبدالجواد منفساً عن ضيقه :

– حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب !. " نفسه – ٤٢٧ "

يستعين بالله على أعدائه ويوكل أمرهم إليه ، ولكنه لا ينسي واجبه فى مقاومتهم فيصفهم بـ " أولاد الكلب " !. وهذا الوصف الذى يقوله همساً هو منتهى طاقته فى المواجهة!.

وليس الرجال وحدهم من يستخدمون الآية ، فخديجة أحمد عبدالجواد تستخدمها أيضاً عندما تتعرض لمشاكسات ومداعبات أخيها ياسين ومضايقات ومشاغبات حماتها العجوز .

" ينكش " ياسين شقيقته ويستفزها ، فلا تجد بدا من مواجهته ومبادلته الهجوم :

– حسبى الله ونعم الوكيل ، لم أكن أعلم أن لى هنا حماة أخرى " قصر – ٤٦ "

إنها تهاجم ياسين بقدر ما تؤكد حقيقة مؤكدة وهى علاقتها المتوترة مع حماتها . وقد وصل التوتر إلى الدرجة التى دفعت المرأة العجوز إلى الشكوى للسيد أحمد عبدالجواد نفسه ، ومثل هذا التصرف " المرعب " لخديجه يستحق منها " تنفيساً " تغلب عليه الشكوى وإظهار ما لحق بها من ظلم واضطهاد :

– ولكنها أبت إلا أن تجعل من شئون بيتنا فضائح عامة ، حسبى الله ونعم الوكيل. " نفسه – ٢٥٤ "

تتهم حماتها بالظلم والتسبب فى الفضائح لأنها رفعت الأمر إلى أبيها وتنسى كل ما قامت به من تشهير وهجوم .

وهكذا الإنسان دائماً ، يعرف مذاق الظلم عندما يتوهم أنه لحق به ، وينسى ما يلحقه بالآخرين من مظالم !.

**** كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم**
يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة
فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور **
(١٨٥)

تحتل قضية الموت موقعاً بالغ الأهمية في عالم نجيب محفوظ ، ولا يتسع المجال هنا لمعالجتها تفصيلياً . والآية التي تتعرض لها تمثل جزءاً من هذا الاهتمام من خلال شخصيتين لا مشترك بينهما سوى الانتماء الإنساني العام : الأول هو الطفل المأزوم جلال ابن عبد ربه الفران ، الفتوة الأسطوري بجنونه ومراودته للخلود فيما بعد ، والثاني هو العجوز محتشمي زايد الذي يقف على حافة القبر .

قتلت أم جلال – زهيرة – أمام عينيه وهو طفل ، ومثلت الأم بعد موتها أزمة متعددة الأبعاد لطفلها . وإذ يصطدم جلال في الكتاب بالآية التي تؤكد حتمية الموت ، تنفجر الأزمة داخله إلى درجة الاشتعال : ويوم طولب أن يحفظ " كل نفس ذائقة الموت " سأل سيدنا :

– لماذا نموت ؟

فأجابه الشيخ :

– حكمه الله خالق كل شيء ..

فتساءل جلال بعناد :

– ولكن لماذا ؟

فغضب الشيخ . مدّه على الفلقة ثم ألهب ظهره بالجريدة . صرخ باكياً . لم يسكن غضبه طيلة اليوم . ما كان يقع له شيء من ذلك لو أن أمه مازالت تتألق بالحياة ، والحياة تتألق بها . " الحرافيش – ٣٨٧ "

السؤال برئ مشروع ، والإجابة قاسية عنيفة ، والحيرة مستمرة ومشكّلة لانحرافات عاني منها الجميع فيما بعد .

ويختلف الأمر بطبيعة الحال عند محتشمي زايد وهو يستمع إلى الآية نفسها أثناء مشاركته في وداع آخر من بقي على قيد الحياة من أصدقاء العمر . في دار المناسبات يستعرض شريط العمر المنصرم : وبدأت التلاوة " كل نفس ذائقة الموت " . سرعان ما جاء الموت بابتسامته المراوغة وجلس إلى جانبي . لا تتعجل فلم تبق إلا خطوة . موت صديقي القديم بروفة لموتي. أرى كل شيء ، الغسل والدفن والمشيعين . " يوم – ٦٥ ، ٦٦ "

لا احتجاج ولا غضب ولا أسئلة مستحيلة الإجابة . إنه الهدوء النابع من الحكمة ، والحكمة النابعة من التجربة ، والتجربة التي تؤكد الموت كحتمية كما تؤكدها الآية في تقرير يقيني لا يزعج إلا الأطفال والمجانين وصانعي الأساطير !.

**** ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير **** (١٨٩)

في مدينة النحاس الأسطورية ، يجتمع موسى بن نصير وطالب بن سهل والشيخ عبدالصمد عبدالقدوس الصمودى . ويعلق الأخير على ما يراه قائلاً :

– لله ملك السموات الأورض . " الشيطان – ٣٣٩ "

إنه يقرر حقيقة مؤكده مستعيرة لغة قرآنية ، والصياغة التي يستعملها نجدها في عديد من الآيات : المائدة " ١٧ ، ١٨ ، ١٢٠ " ، النور " ٤٢ " ، الشورى " ٤٩ " ، الجاثية " ٢٧ " ، الفتح " ١٤ " .

سورة النساء

**** وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت إيمانكم ذلك ادنى ألا تعولوا ** (٣)**

يسمح الإسلام بتعدد الزوجات ولا يأمر به ، والفارق كبير بين السماح والأمر . ولكن المسلمين - تبعاً لأهوائهم - يتعاملون مع النص القرآني كما يحلو لهم وبما يخدم ويبرر ممارساتهم .

أحمد عاكف كهل في الأربعين بلا زوجة والمعلم نونو متزوج من أربع ويعول قبيلة من الأولاد وله عشيقة !. شخصيتان متناقضتان في كل شيء بما في ذلك الزواج . كيف يكون الحوار بينهما ؟!. يتردد أحمد - ولعل التردد بسبب خجله من ناحية وعلاقته الجديدة مع المعلم من ناحية أخرى - قبل أن يتساءل :

- أزواج أربع ؟
- كما شاء الله .
- وإن خفتم ألا تعدلوا ؟
- ومن قال عني إني ظالم ؟. " خان - ٤٤ "

الآية حاضرة عند طرفي الحوار . نونو يقنع منها بما يبرر زواجه على اعتبار أن هذا التعدد " مشيئة الله " ، أما أحمد عاكف - الأكثر ثقافة - فيتوقف عند الشرط الصارم الذي تتضمنه الآية وينقله إلى المعلم في صورة سؤال : وإن خفتم ألا تعدلوا ؟!. وهذا " الإحراج " لا يمثل مأزقاً لنونو الذي ينفي عن نفسه صفة الظلم في معاملة زوجاته !. إن الأمر بالنسبة له " مبدأ " سرعان ما يتحمس له حتى لو كان متعلقاً بغيره :

- نعم الرأي . إنه لا يؤدب المرأة إلا الزواج بغيرها ، وربنا أمر بالزواج من أربع !

هل أمر الله بذلك حقاً ؟!. لقد أباحه بشروط ، ويتولى أحمد عاكف من جديد مهمة الشرح والتوضيح :

- أستغفر الله العظيم ، لم يأمر الله بذلك ولكنه أباحه على أن نعدل !

ويواصل نونو تشبثه برؤيته الراسخة المطمئنة :

- ومن قال لك اظلم ؟ . " نفسه - ١٨٣ "

آية واحدة وموقفان ، والآية نفسها يتذكرها حسنين الساخط المكبوت المحروم لينفس بها عن أزمته : انكحوا ما طاب لكم من النساء ، هذا أمرك يارب ولكن هذا البلد لم يعد يحترم الإسلام . " بداية – ٤٦ "

معلم نونو " نظرى " !. ومن الغريب أن مراهقاً مثله لا تسمح له ظروفه التعليمية والأسرية أن يتزوج أو حتى أن يخطب ، يقفز مرة واحدة إلى تعدد الزوجات !. وهو فى ثورته يحول ما سمح به القرآن – مشروطاً بالعدل – إلى أمر واجب التنفيذ ومعطل فى مجتمع لا يحترم الإسلام !!. هل " احترام " المجتمع للإسلام وتعدد الزوجات – وهو حق محترم بالعقل – يحل مشكلة حسنين ؟!. الإجابة بالنفى طبعاً ، ولكنها ثورة الغضب وانفعال الكبت !.

ياسين عبدالجواد أيضاً يستعين بالآية بعد إحساسه بالملل في حياته الزوجية . شقيقه فهمى – بمثاليته ورومانسيته – لا يفهم دوافع الملل ، ولكن ياسين الذى كان يقنع من الدين بالإيمان دون اكتراث جدى لأوامره ونواهيه ، يفهم ويستند إلى الدين فى الدفاع عن وجهة نظره :

– الدين يؤيد رأيى ، ذلك أنه سمح بالزواج من اربع غير الجوارى اللاتى كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والأغنياء ، فقد فطن إذن إلى أن الجمال نفسه – إذا ابتذلته العادة والألفة – مل وأسقم وقتل . " بين – ٣٢٠ "

لا يحفظ ياسين الآية ، ولكنه يلخص معناها كما يفهمه . ولو أنه كان أكثر فهماً واستيعاباً لأدراك ان الدين لا يؤيد رأيه الخاص بالملل من الحياة الزوجية ولكنه يضع شروطاً أخرى لإباحة التعدد . لا يعبأ ياسين بالدين وأحكامه بقدر ما يندفع بالشهوة المشتعلة داخله وراء كل ما يؤيد فكرته بمعزل عن الإحاطة والدقة .

**** يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون با لله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ****

(٥٩)

أشرنا من قبل – الآية " ١٠٤ " من سورة " آل عمران " – إلى مأزق الدعاة فى قصة " الجامع فى الدرب " . تورطوا فى الصراعات السياسية المفروضة عليهم بما يعطل المبدأ الإسلامى الخاص بـ " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " .

الذين يتحازون إلى السلطة ويسعون إلى التخلص من القلق ، يبحثون في القرآن عما يؤيد موقفهم . ويصل القصة الشيخ عبد ربه يستمع إلى صوت المعارضة ممثلاً في الشيخ مبارك :

– سنقتل مبدأ إسلامياً هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فيرد على الفور :

– بل سنحيي مبدأ إسلامياً هو الدعوة إلى إطاعة الله ورسوله واولى الأمر .

" دنيا – ٥٦ "

لو كان القول صادراً عن جاهل لا يعى دينه لهان الأمر ، ولكن الاستشهاد صادر عن متخصص يُفترض فيه العلم بالمعنى الشامل الصحيح للآية . أليست طاعة أولى الأمر مشروطة ؟!. أليس لأولى الأمر صفات وسمات ينبغي أن يُقاس على أساسها ويُقيَّم حاكمو الحاضر المراد التبشير بإطاعتهم ؟!.

الرجل لا يبغي وجه الدين ولا يروم إعلاء شأن النص القرآني ، ولكنه يبحث عن مبرر . ولو بالباطل – لتفسيرموقفه المتخاذل المخالف لصحيح العقيدة وروح النص القرآني .

** وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا **

(١٥٧)

وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

وما قتلوه يقيناً .

الأمر من الوضوح بحيث لا يستدعي – بين المسلمين – خلافاً أو اجتهاداً . يرى المسيحيون ان المسيح عيسى بن مريم قد صُلب ، وفي قصة " جنة الأطفال " تردد الطفلة المسلمة ما سمعته من صديقتها المسيحية نادية ، فيبادر الأب إلى التوضيح بالمنطق الإسلامي القرآني :

– قالت إن الناس قتلوه !

– ولكنه حي لا يموت !

– نادية قالت إنهم قتلوه ..

– كلا يا حبيبتي ، ظنوا أنهم قتلوه ولكنه حي لا يموت . " حماره – ٩٠ "
مخاطبة الأطفال تحتاج إلى لغة بسيطة واضحة ، ولذلك يقوم الأب بترجمة معنى الآية بما لا يتعارض مع جوهرها .

ولكن مسلماً آخر – طلبه مرزوق – – لا يتبنى المنطق القرآني لأنه مشغل بهمومه الذاتية النابعة من ممارسات اقتصادية موضوعية لثورة يوليو . في بنسيون " ميرامار " يقول طلبه ، وهو يشير إلى تمثال العذراء ، سائلاً اليونانية المسيحية ماريانا :

– خبريني يا سيدتي لماذا رضي الله بأن يُصلب ابنه ؟

فقالت بجد :

– لولا ذلك لحلت بنا اللعنة !

فضحك طويلاً ثم قال :

– ألم تحل بنا اللعنة بعد ؟ . " ميرامار – ٤٨ "

طلبة مسلم أوستقراطي بلا سلوك إسلامي حقيقي، وما يشغله هو التنفيس عن أزماته المتشعبة دون مراعاة لمدى توافق كلماته وتعليقاته مع دينه !

سورة المائدة

** لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء **

(١٧)

انظر : سورة آل عمران ، الآية ١٨٩

** وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير **

(١٨)

انظر سورة آل عمران ، الآية ١٨٩

** من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون **

(٣٢)

تمثيلية هزلية يخرجها ويتفق عليها إبراهيم السقاء ، والهدف هو تحقيق العدالة المفقودة. ويشارك شهرياً متخفياً في التمثيلية ، ويستمع إلى النفاع الركيك الذى يقدمه ممثل دور حاكم الحى لتفسيره تستره على جريمة إعدام علاء الدين ظلماً . يقول الحاكم – الممثل :

– غير أني ضعفت يا مولاى ، فأنا الذى حاكم علاء الدين وقضى بضرب عنقه ، خفت عواقب الكشف عن الحقيقة وإعلانها فمن قتل نفسا فقد قتل الناس جميعا ... " ليالى – ٢٠٧ "

يدرك القائم بدور الحاكم هول ما ارتكبه ، ولكـن المفارقـة فـى أنـه يغطـى خطيئتـه بخطيئة جديدة . ولو أنه صادق في التزامه لواجه الحقيقة المزعجة بتكفير فعلـى عملـى ، ولكنه يؤثر السلامة قانعاً بادعاء الندم . إنه ينتقي من القرآن ما يخدم موقفه دون اهتمام بعموم الالتزام القرآني .

** يا أيها الذين آمنوا لا تقتلـوا الصيـد وأنتـم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثـل ما قتـل من النعم يحكم به ذوا عمل منكم هديا بلغ الكعبة أو كفـارة طعـام مسـكين أو عـدل ذلـك صيامـاً ليذوق وبال أمره عفي الله عما سلف ومـن عـاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ** (٩٥)

انظر : سورة آل عمران ، الآية ٤

** يا أيهـا الذيـن آمنـوا لا تسـألوا عـن أشـياء إن تبـد لكـم تسـؤكم وإن تسـألوا عنهـا حـين ينزل القرآن تبد لكـم عفـا الله عنهـا والله غفـور رحيم ** (١٠١)

تخلو درجة سابعة لوفاة شاغلها فيتطلع الجميـع إليهـا ، وجـاءت المفاجـأة المدويـة إذ نالها شرارة النحال ، وهو الذى لم يكن من المطروحين للمنافسة .

ويهتف الراوى :

- شرارة النحال ؟!.
- نعم .
- عامل التليفون ؟!.
- نعم .
- ولكنه بالابتدائية ووظيفته خارج الهيئة !

لا منطق ولا عقل ولا قانون . والسؤال الذى يطرحه الراوى :

- كيف .... ولماذا ؟

الإجابة الخامسة تنطلق من الأستاذ عباس فوزى :

- يأيها الذين آمنوا لا تسألوا .. " المرايا - ١٧٥ "

السر فى " جمال " شرارة ، والشذوذ - المسيء هو المسئول الأول عن الترقية ، وعلى المنطق والعقل أن يتنحيا !.

عباس فوزى ، وهو عالم كبير فى التراث الذى يتربع القرآن على قمته ، ملحد تماماً . ولكنه يستشهد بالآية التى يرى أنها تقدم " شروع " و " مفتاح " الإجابة عن السر فى الترقية غير المنطقية .

لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير (١٢٠)

انظر : سورة آل عمران ، الآية ١٨٩

سورة الأنعام

** قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ** (١٦٤)

ارتقى فايز بشقيقيه ضياء وعاشور ، وبسقوطه المأساوى سقطا معه وتعرضا لعقوبة الطرد من الحارة دون ذنب ارتكباه . ويتطوع الشيخ جليل العالم شيخ الزاوية بالشفاعة لهما قائلا :

- لا تزر وازرة وزر أخرى ...

فصاح به الفتوة حسونة السبع :

- اسكت يا كافر وإلا شنقتك بشال عمتك !. " الحرافيش - ٥٤٤ "

الآية التى يدافع بها الشيخ عن الشقيقين المظلومين تنطبق على الموقف تمام الانطباق، ولكن الفتوة لا يعبأ بالقرآن والعدل والشيخ جميعاً !. للحارة حاكمها الظالم ومنطقه المختل وأحكامه الجائرة ، وفى ظل هذا المناخ لا صوت يعلو فوق صوت الفتوة ذى الكلمة الأخيرة النافذة . وعنده لا تنفصل خطيئة المخطىء عن براءة المسالم ، والآية التى تنقض رأيه يتعرض صاحبها - وهو رجل دين - للاتهام بالكفر !.

سورة الأعراف

** واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ** (١٥٥)

الشيخ علي الجنيدى هو الصوت الالهي النقى الصافى الذى يعادل بهدوئه وسموه جموح سعيد مهران وجنوحه إلى كل ما هو أرضى عكر مدنس . ينتقل سعيد من جريمة إلى جريمة ، ولا ملاذ له قرب النهاية إلا الشيخ علي . الحوار بينهما لا تواصل فيه ولا اتصال : وساد الصمت فدبت الحياة خارج الكوة التى يسيل منها القمر . ورتل الشيخ بصوت هامس " إن هي الا فتنتك " وقال سعيد إن الشيخ سيجد دائماً ما يقوله . وبيتك يا مولاى غير مأمون إن تكن أنت الأمان نفسه . " اللص - ١٦٩ "

هل يعي سعيد ما يرتله الشيخ ؟ وهل يدرك الأبعاد العميقة لكلامه وصمته ؟!. من قبل قال له الشيخ : - التوكل ترك الايواء إلا على الله . " نفسه - ١٦٨ "

لا يفهم سعيد مهران ولا يستطيع ان يتجاوز ماديته ضيقة الأفق . الأمان عند اللهو ليس عند الشيخ الفصل ، والامتحان - الفتنة من الله وليس من كلاب الأرض . لا ينتهى الفصل قبل أن يعود الشيخ إلى الآية نفسها بعد حوار دال وإن خلا من التواصل.

يقول الشيخ باسماً فى رثاء : قال سيدى : - " إنما لأنظر فى المراة كل يوم مراراً مخافة أن يكون قد أسود وجهى " !.

- أنت ؟!

- بل سيدى نفسه !

فتساءل ساخراً : - فكيف ينظر الأوغاد فى المرآة كل ساعة ؟!

وحنى الشيخ راسه وهو يرتل " إن هى إلا فتنتك " . " نفسه - ١٧١ "

يريد الشيخ أن يصعد به ويسمو ويأبى سعيد إلا الهبوط والانهيار . بعيد عنه المغزى والرمز، وبعيدة عنه راحة القلب وحلاوة الإيمان . وهيهات له أن يدرك ما يرمى إليه الشيخ من خلال الآية : " إن هى إلا فتنتك " .

ويرسب سعيد مهران فى الامتحان بجدارة ! .

سورة الأنفال

** وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ** (٤٠)

لم يكن الأميرالاى عبد الله حسن مجرد جد لكامل رؤبة ، ولكنه كان الأب والمربى والحامى والمسئول عن كل شيء فى حياته وبموته يواجه كامل وأمه مأزق الإنفراد بالحياة وجهاً لوجه . ويتذكر كامل نص الحوار الذى دار بينه وبين أمه بعد الموت والوحدة . تقول الأم فى حزن بالغ :

– ليس لنا إلا الله .

فقلت وقلبى يستشعر خوفاً لا يدريه :

– هو نعم المولى والنصير . " السراب – ١٣١ "

كان الجد هو النصير الوحيد فى عالم البشر ، وبموته يعود كامل إلى المصدر الأصلى ولا يجد له نصيراً إلا الله . إنه مؤمن ، علي الرغم من تقلباته وتصرفاته المفارقة للدين فى كثير من الأحوال ، ولكن دافعه إلى الله هنا هو الفراغ المرعب بعد موت الجد وليس الإيمان وحده !.

** إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينه ويحيا من حيا عن بينه وإن الله لسميع عليم ** (٤٢)

علم الغيب المسطور فى كتاب المستقبل عند الله وحده ، وفي كثير من الحالات لا يملك الإنسان أن يفعل شيئاً إلا أن ينتظر – إذا كان الانتظار فعلاً – ويترك الأمر للزمن وسريانه الجبار . الله هو المحرك والمغير والمبدل والمقدر لكل شيء ، وإلى أن تتحقق مشيئته ويقضى بامره ؛ فلا شيء يملكه الإنسان .

يسرف نجيب محفوظ فى إستخدام التعبير القرآنى : " يقضى الله أمراً كان مفعولاً " فى رواية " زقاق المدق " ، فنجده على ألسنة ثلاث من شخصياته فى مناسبات مختلفة.

يزعم عباس الحلو أنه ابتاع كفناً لعم كامل بائع البسبوسة ، ويجاريه الجميع فى زعمه حتى يصدق كامل ، وسرعان ما يطمع فى ثمن الكفن وهو حى !. تحولت

الأكذوبة المراد منها المزاح والفكاهة إلى حقيقة ، ولا يجد عباس من وسيلة للماطلة والتسويق إلا أن يخاطب صديقه وشريكه في المسكن بقوله :

– سيبقى الكفن في حرز حريز حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا . "زقاق –٣٠ "

أمر الله المنتظر هنا هو الموت ، ومنطق الانتظار أن الرجل الطيب البدين – بحكم تقدمه في العمر – سيموت أولاً !. ولكن مشيئة الله أن يموت عباس الحلو في معركة غير متكافئة مع الجنود الإنجليز السكارى وتموت معه دعابة الكفن الوهمي !.

و لم تجد ام حسين من تشكو له شذوذ وانحراف زوجها المعلم كرشة إلا السيد رضوان الحسيني ، ويحاول الرجل أن ينصح المعلم ويهديه إلى الاستقامة دون جدوى . وعندما تعاود الزوجة الشاكية زيارته لتعرف نتيجة مسعاه ، يهز رضوان رأسه أسفاً ويقول لها : دعيه لحاله حتى يقضي أمراً كان مفعولا . " نفسه – ٩٦ "

المنتظر هنا هو عدول المعلم كرشه – بفضل الله وهدايته – عن الشذوذ والعودة إلى الاستقامة والممارسةالسوية . لقد عجز البشر ، و لم يبق من قادر إلا الله !.

وإذ تسوء أخلاق وطباع السيد سليم علوان بعد أزمته المرضية الطاحنة ، وتتسم معاملته لزوجه وأبنائه بشراسة طارئة وحدة غير معهودة ، يتشاور أبناؤه فيما بينهم ، وقد ألفاهم الخطب قلباً واحداً في التوجع لأبيهم والإخلاص له في محنته ، وقال كبيرهم:

– نتركه وشأنه حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا ." نفسه – ٢٤١ "

حتى يشاء الله أن تزول الآثار النفسية لمحنة المرض وتستقيم الأخلاق وتتحسن المعاملة .

مجموعة من المشاكل لا يملك إلا الله وحده علاجها : أكذوبة الكفن ، شذوذ المعلم كرشة ، انحراف مزاج سليم علوان . ما الذى يملكه عباس الحلو ورضوان الحسيني وأبناء سليم ؟!. الإحالة إلى الله والمراهنة على إرادته ومشيئته .

كامل رؤبه لاظ – أيضاً – لا يملك أن يدين زوجه ويتأكد من خيانتها ولا يقوى على التيقن من أنها بريئة شريفة . ليس أمامه إذن إلا ان يراقبها من مجلسه في القهوة الشعبية المتواضعة التى تقع قريباً من مدرستها : فلأظل رهين مجلسي هذا حتى يقضى الله امراً كان مفعولا . " السراب – ٢٨٥ "

إثبات الخيانة أو البراءة صعب على كامل ، وإيجاد عمل حقيقي للموظف الجديد على عبدالستار لا يقل صعوبة بالنسبة لرئيسه في قصة " الحب فوق هضبة الهرم " . ولا يملك الرئيس إلا أن يقول :

– منظرك مقبول ، تصلح للعلاقات العامة ، ولكنك ستبقى بلا عمل حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .. " الحب فوق – ١٤٧ "

الإثبات صعب ، وإيجاد عمل في ظل غياب العمل صعب ، والله وحده هو القادر على الوصول بكامل لاظ إلى شاطىء اليقين والوصول بعلى عبدالستار إلى عمل يؤديه!.

كمال عبدالجواد هو الأكثر معاناه وإدراكاً ، ولذلك فهو الأكثر قدرة على التعبير عن عمق الآية ومغزاها الإيماني التوكلي . في كل صيف يعرف كمال لوعة فراق الحبيبة والأصدقاء حيث يصطافون في الإسكندريةورأس البر ، ولكنه بعد خطوبة عايدة يصطدم بلوعة جديدة المذاق ومعاناة مختلفة عما عهده واعتاده : وقد كان يعالج الزمن بجرعات الصبر والأمل ، ولكنه يخاصم اليوم عدواً مجهولاً وقوة خارقه غامضة لا يدرى من تعاويذها ورقاها حرفاً واحداً .. فليس أمامه إلا الصمت والتعاسة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . " قصر – ٢٩٢ "

ما أشق النسيان على البشر ، وما أيسره على الزمن .

**** وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في اعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور **   (٤٤)**

انظر : سورة الأنفال ، الآية ٤٢

**** وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفي إليكم وانت لا تظلمون **   (٦٠)**

كيف يتعامل كمال عبدالجواد الطفل مع أحداث وأبطال وشهداء ثورة ١٩١٩ ؟!. أهم كما تدعى أمه " متهوررون " لا يرحمون أنفسهم ولا أهليهم ملقين بأرواحهم إلى التهلكة .. أم هم كما يصفهم فهى أبطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟!. . " بين – ٣٤٤ "

آيتان وموقفان وحيرة يواجهها الطفل من استماعه إلى حديث أمه عن " التهور " و" التهلكة " وحديث شقيقه عن " البطولة " و " الجهاد " في سبيل الـه . ولا شك أن فهمي في أحاديثه التي يختزنها كمال كان يحيل إلى الآية ويستشهد بنصها ، وهي آية تحض على إرهاب عدو الله ومواجهته . تخلو الآية من مفردة " يجاهدون " التي يستعيض بها كمال عن " ترهبون " ، وتتحول كلمة " عدوكم " إلى " عدوهم " حتى تستقيم وتتناسق الضمائر . والموقف النهائي بعيد لأن الوصول إليه نابع من المصالح والحسابات والأفكار والاجتهادات التي لا يعي كمال - في مرحلته السنية - شيئاً منها.

**** يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قم لا يفقهون ** (٦٥)**

يكبر كمال ويعي وينشغل بهموم الحياة والثقافة والسياسة ، ويتأكد انتماؤه الوطني الوفدي ويشارك في مؤتمر الجهاد سنة ١٩٣٥ .

لم يكن مؤتمراً عادياً ، فثمة شعور عام وعارم بالتطلع إلى إعلان الثورة والتمرد على فساد الحكم الانقلابي ، وبدخول الزعيم مصطفى النحاس إلى سرادق الاحتفال تشتعل القلوب حماسة وتلتهب الأكف تصفيقاً : وتعب المشرفون على الحفل حتى نشروا السكون في الأركان، كي يسمع الناس المقرىء وهو يتلو ما تيسر من القرآن مردداً فيما يتلو " يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال " . وكأن الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى الهتاف والتصفيق حتى احتج بعض المتزمتين وطالبوا بالصمت احتراماً لكتاب الله. وأثار قولهم في نفسه ذكريات قديمة يوم كان يعد واحداً من هؤلاء المتزمتين فارتسمت على شفتيه ابتسامة ما واستشعر من توه عالمه الخاص الحافل بالمتناقضات الذي يبدو من تعارض متناقضاته وكأنه فراغ . " السكرية - ٤٣ "

من العادات المعمول بها في الاحتفالات والمناسبات السياسية أن تكون البداية بما تيسر من آيات القرآن الكريم ، وجرى العرف أيضاً على أن تختار آيات تناسب المقام والمناسبة المحتفل بها . ويأبى المكلف بالقراءة في احتفال عيد الجهاد - وهو بالضرورة وفدي أو متعاطف مع الوفد - إلا أن يشارك - قدر طاقته وبطريقته الخاصة - في المؤتمر " الثوري " . يتحول النص القرآني هنا إلى اداة تحريض ووسيلة لإشعال الحماس واستنهاض الهمم ، ومن المنطقي أن يدرك المشاركون دلالة الاختيار فينفعلون إلى

الدرجة التى تثير استياء واحتجاج " المتزمتين " ! كان كمال - قبل إلحاده وشكه - واحداً من هؤلاء المتزمتين الذيـن لا تنسيهم وطنيتهم قداسة القرآن وحتمية احترامه بالإصغاء إليه فى جلال يليق به . والجانب المهم هنا هو " توظيف " القرآن للأغراض والأهداف السياسية . قد يصادف التوظيف توفيقاً لنبل الغرض ووطنية المناسبة ، ولكن المبدأ نفسه قد يُستغل فى مناسبات أخرى ليخدم ما لانبل فيه ولا وطنية .

سورة التوبة

من اللافت للنظر أن الشيخ متولى عبدالصمد هو الوحيد ، من زوار أحمد عبدالجواد فى مرضه ، الذى يمثل الصوت الدينى فى مناخ مخالف يتحدث عن الخمر والمخدرات والنساء : الأصدقاء محمد عفت وعلى عبدالرحيم وإبراهيم الفار وغنيم حميدو ، والخواجة مانولى تاجر الخمور ومحمد العجمى بائع الكسكسى والهمايونى القواد !.
إليهم جميعاً يتوجه الشيخ متولى بخطابه :

- أدعوكم إلى التوبة والحج .

وإذ لا يجد نداؤه صدى إيجابياً وينهمك الجميع فى الغناء ، يتلو الشيخ آيات من سورة التوبة . " قصر - ٤٥٢ "

إن مفردات " التوبة " تتكرر فى تسع من آيات السورة " ٣ ، ٥ ، ١١ ، ٧٤ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١١٢ على الترتيب " ، وبحيث يستحيل استنباط الآيات التى يتلوها الشيخ ويتحصن بها منعزلاً عن عربدة البعيدين عن التوبة ! .

ولعل تحديد نجيب محفوظ لهذه السورة بالتحديد مرتبط باسمها من ناحية وبوفرة الآيات التى تتطرق فيها إلى التوبة من ناحية أخرى .

**** قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ** (٥١)**

تتوقف الحكاية رقم " ٤٦ " من " حكايات حارتنا " امام شخصية سعد الجبلى :
وإيمانه قوى عميق .

أجل يشرب كثيراً ، لا يلتزم بالفرائض ، ولكنه مؤمن حقاً ، يعتقد بأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأنه لا مفر من المكتوب . " حكايات - ١٠٤ "

قد لا يخلو الأمر من ازدواجية : الطرف الأول فيها إيمان قوى عميق ، والطرف الثانى سكر وإهمال للفرائض . ولا تفسير لهذه الإزدواجية إلا على ضوء الآية التى " يعتقد " فيها سعد إعتقاداً راسخاً يمثل مفتاح شخصيته . فهمه للآية وممارساته المترتبة على الفهم مجافية النص بقدر ما هى متوافقة مع الميل المصرى العميق إلى الإيمان بالقدر و " المكتوب " . ذلك أن المكتوب فى الثقافة الشعبية المصرية مفهوم ضارب بجذوره فى أعماق الشخصية المصرية ممثلاً لجزء أصيل فيها يتجلى فى الموروث والأمثال . من هنا

يأتى الفهم " الخاص " للآية حيث يتوارى التناقض ويحل السلام والصفاء والتعايش بين الدين والدنيا .

**** والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاوة ويأتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ** (٧١)**

انظر : سورة آل عمران ، الآية ١٠٤

**** التائبون العابدون الحامدون السبحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ** (١١٢)**

انظر : سورة آل عمران ١٠٤

سورة يوسف

**** إذ قال يوسف لأبيه يا ابتى إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ** (٤)**

فى بداية التعارف بين أحمد عاكف والمعلم نونو ، ينتبه المفكر الموظف إلى قول المعلم عن نفسه " زوجات نونو " ، فيسأله :

– كأن الله فى العون ، الظاهر أن أسرتك كبيرة ...

فقال الرجل ببساطة :

– أحد عشر كوكباً ، وأربع شموس .

ثم أشار إلى نفسه وأكمل قائلاً :

– وقمر واحد ! . " خان – ٤٤ "

محاكاة هزلية حسنة النية وتنم عن شخصية نونو الانبساطية المولعة بالمرح والفكاهة. الأبناء والبنات هم الكواكب ، والزوجات الأربع هن الشموس ، أما القمر فهو المعلم نونو نفسه !.

لا حرج عند الرجل فى استعارة مفردات حلم يوسف القرآنى ليعبر به عن حياته الشخصية كما يراها ، فهو لا يستشعر حرجاً من شيء أو أحد ، ويرفع – ويمارس – شعار الاستهانة : " ملعون أبو الدنيا " !. لا يسخر الرجل من القرآن ، ولكنه يتفاعل معه بطريقة تؤمن بالدين إيمانها بالمرح والفكاهة !.

**** قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ** (٥١)**

فى قصة " هذا القرن " يجسد نجيب محفوظ بعض مهازل ومخازى الطبقة الأوستقراطية المصرية حيث يسود التهتك والانحلال . عند عودة الباشا وزوجه من سهرتهما ، وهما ثملان إلى درجة الترنح ، يواجهان مشكلة الشاب المتهم باقتحام القصر . ويقرر الباشا أن " يتحقق " بنفسه من الاتهام :

– سأتحقق مما إذا كان سكران ..

ومال على فم الشاب يشمه ثم قال :

- " الآن حصحص الحق ... هذا الشاب سكران بغير شك " همس - ١٤٥ "

يتقمص الباشا الثمل شخصية امرأة العزيز ويستعير لغتها لتبرئة المذنب المحاصر . وقد يكون للباشا بعض الشبه مع زليخه ، ولكن الصلة مفقودة بين العاشق المتسلل بليل والنبي يوسف !.

في القصة فحيح جنسي مصدره بنات الباشا العاشقات والعنيدات معاً ، وهو ما يمثل امتداداً - على نحو ما - لزليخة العاشقة العنيدة . وربما كان صدور التعبير القرآني مفجراً موحياً بالقصة القديمة - الجديدة التي لا تنتهي !.

** وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ** (٥٣)

يحترق السيد سليم علوان شوقاً وشهوة إلى حميدة ، واشتعاله لا ينسيه ما يفصل بينهما . ممزق هو بين الرغبة وحسابات العقل ، بين حقه المشروع والشرعي في الاستمتاع بالحياة والأعراف والقوانين الاجتماعية الصارمة التي تقيد هذا الحق وتكبله : وتوقف عن العمل وجعل ينقر المكتب بسبابته متفكراً . أجل ، هي مسكينة فقيرة ولكن الرغبة لا ترحم وأسفاه، والنفس أمارة بالسوء . " زقاق - ٦٨ "

لا غضاضة - من الناحية الدينية - في زواج سليم وحميدة ، والسوء المقصود ينصرف إلى الفوارق الطبقية وحقوق الأبناء المهددة وثورتهم المنتظرة .

** قال هل امنكم عليه إلا كما أمنتكم على اخيه من قبل فا لله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ** (٦٤)

يثابر جعفر الراوي في مطاردته للغجرية مروانة وصولاً إلى مرحلة الغزل اللفظي ، ولا يغيب التطور عن عيون أم مروانة التي تتناول حصاة من الأرض وترميها صوب الجبل قائلة:

- وسيلة حكيمة لصد الزواحف والحشرات .

ويرد جعفر بارتياب :

- الله خير حافظاً .

فقالت بحزم :

- ولكن علينا أن نخاطب الشر بلغته . " قلب - ٦٣ "

الأم الغجرية تعتمد على مخزونها الشعبي الأسطوري لصد كافة الأخطار من البشر والحيوانات ، وجعفر الأزهري ذو الثقافة الدينية يلجأ إلى القرآن متحصناً به وإن لم يخل في رده من توجس وارتياب .

يتفقان على أن الله خير الحافظين كما تنص الآية ، و" لكن " الاستدراكية التي ترد بها الأم تؤكد على أن الشر في الدنيا نسبي ومتعدد الأوجه ، ويحتاج إلى وسائل بشرية في المقاومة .

**** فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم **** (٧٦)

العلم البشري محدود وقاصر بالقياس إلى الله ، وهو - على المستوى الفردي - متباين بين إنسان وآخر .

أحمد عاكف مؤمن من الناحية الدينية ، وعلى المستوى الثقافي يتصور أنه عالم ومفكر وفيلسوف مغبون الحق . وبانتقاله إلى السكنى في " خان الخليلي " يصطدم بالمحامي التقلمي ذي الثقافة الغربية الحديثة احمد راشد . بالتقائهما يكتشف عاكف ثقافته تواجه امتحاناً عسيراً لم يتعرض له من قبل واختلس منه نظرات ملتهبة بالحقد والكراهية والحنق . فماكان يظن قط أنه سيعثر في خان الخليلي على من يتحدى ثقافته ، ويجبره على التسليم بأن فوق كل ذي علم عليما . " خان - ٥٩ "

إنه مؤمن بالآية وبعلم الله الذي يفوق علوم البشر جميعاً قبل لقائه مع أحمد راشد ، ولكنه يقصد هنا علم الآخرين من البشر . فقد اعتقد واهماً انه يتربع على القمة ولا منافس له ، وها هو يلاقي من يحدثه بما لا يعلم . لم يكن علمه - وهمه إلا وليداً للانطوائية والتقوقع والبعد عن الاحتكاك والاختلاط بالمثقفين الحقيقين الجادين ، وعند أول صدام تتجلى حقيقة ثقافته القاصرة ويجد نفسه مجبراً " على " التسليم " بقصوره ومحدوديته مقارنة بالمعاصرين له .

وإذا كان أحمد عاكف يتوهم نفسه مثقفاً رفيع المستوى ، فإن جعفر الراوي يصر على أنه - في طفولته - خاطب أباه في قبره وتعامل مع الجن والعفاريت !. إصراره لا

يحظى بتصديق الروائـي - الـراوى الـذى يـرى أن محـاوره يريـد إحاطـة أسـطورته بجـو أسطورى يتوافق معها ليرضى حنين قلبه . وعلـى سـبيل المجـاراة والموافقـة المؤقتـة يتمتـم مذعناً :

- فوق كل ذى علم عليم . " قلب - ٢١ "

لا يصدقه ولا يكذبه ، ولكنه يسلم بمحدودية علمه وعلـم الإنسـان . فـوق الجميـع يتربع الله بعلمه الذى يعلو ويسمو ولا يدركه أحد .

**** يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيـه**
ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله
إلا القوم الكافرون **   (٨٧)

يتـرواح عمـــر عشماوى بين السبعيـــن والثمـانين ، ولقـد بـــدأ حيـــاته فـــتوة وانتـــهى ماسح أحذية !. يعانى من هوان الصحـة والسـمع والنظـر وزوال المجـد ، فهـل يملك رجل مثله أن يمارس الجنس ؟!.

يرفض عشماوى الحل السلمى للصراع العربى الإسـرائيلى ، ويدلـل علـى قـدرة الله بقوله للمصور السينمائى حسنى حجازى :

- ربك كبير ، اتصدق أننى ضاجعت الولية ليلة أمس مرتين ؟.

فذهل الأستاذ حسنى وهتف :

- مرتين ؟!.

- وحق كتاب الله .

- عوفيت .. عوفيت يا عشماوى ..

- فلا تيأسوا من رحمة الله .. " الحب تحت - ٣٦ "

فى الحوار مرح وفكاهة ، وفى عقل الفتوة المتقاعد قياسـات غريبـة لا تقـل مرحـاً . قدرة الله لا تحدها حدود ، ولا مجال لليأس من رحمته . قدرة مـن فـى مثـل سـنه علـى المضاجعة تبرهن - من منظوره البسيط - أن الحل السلمى مـع إسـرائيل ليـس الاختيـار الوحيد !.

سورة الرعد

** له معقبت من بين يديه ومن خلفه يحفظونـه
من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مـا
بأنفسهــم وإذا أراد الله بقوم سـوءاً فـلا مـرد لـه
ومالهــم من دونه من والٍ ** (١١)

تحت عنوان " البحث " تأتي لوحة مـن لوحـات " أصـداء السـيرة الذاتيـة " : لـدى المساء قصد المدفـن الـذى يجتمع فيه مع بعض الأقران للسمر والمرح وتبادل أنات الشكوى . وسأله أحدهم :

- كيف انتهى سعيك هذا اليوم ؟

فأجاب بفتور :

- كالأيام السابقة .

فقال آخر :

- أنك تضيع وقتك بين أوغاد ، وعندنا أقصر طريق للرخاء .

فقال بامتعاض :

- وهو أقصر طريق إلى السجن أيضاً !

فقال الآخر ساخراً :

- الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ." أصداء - ٢٩ ، ٣٠ "

ثمة غموض شفيف يغلف اللوحة ويتعانق مع مـا فيهـا مـن مفارقـة ليعـود الأمـر فـى المنتهى إلى العنوان : " البحث " .

عن أى شيء ، ولماذا ؟!. عن البديل من أجل التغيير للأفضل . الإرادة البشـرية هـى التى تحدد الآفاق ، ولكن الجوهر الإيجابي فى الآية يتعكر فى الحوار بشبهة الاختيـار - المقامرة -، والبديل - المغامرة : الرخاء أم السجن ؟!.

تختلف الصورة تماماً في ذهن أحمد عبدالجواد المهموم بمشاكل أسرته ، وفى مقدمتهم الابن الأكبر ياسين : وليس المشكل أن يبحث له عن زوجة أخرى ، ولكن الله لا يغـير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ." قصر - ١٢ "

فشلت زيجة ياسين الأولى بسبب سلوكه المعوج وأخطائه الفادحة فـى إحكـام السيطرة على زوجه ، وكل زواج جديد مهدد بالفشل والانهيار مـا لم يغير الابـن مـن

ممارساته وأساليبه. إرادة البشر " مقدمة " لابد منها ، وبعدها - وبفضلها - يأتي التدخل الالهي لإلحاق التغيير وتعديل المسار .

ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب (٣٨)

لكل أجل كتاب .

ينصرف المعنى إلى الموت دائماً عبر عدة تنويعات : الله وحده هو المتحكم في الأعمار والآجال ، ضرورة التوافق مع الحياة دون إفسادها بشبح الموت الذى ينبغي تركه لله ، الاستماع إلى خبر موت الآخرين واستدعاء الآية للعظة والرحمة ، الاستهانة بالشكوى من التعب الذى قد يفضي إلى الموت ورد الأمر - في مزيج من الجدية واللامبالاة - إلى الله .

الله وحده هو المتحكم في الأعمار والآجال ، والظاهر قد ينبيء ويوحي بأشياء لا تتحقق لأن إرادة الله تقتضي العكس . أيهما أقرب إلى الموت بمفاهيم وخبرات البشر : أحمد عبدالجواد الذى يعاني من مرض خطير أم علي فهمي الصحيح المعافى القوى المتمتع بشبابه وصحته ؟!.

على منطق البشر أن يتنحى ليسود ما قدره الله وأراده كما يرصد أحمد عبدالجواد بعد مغادرته فراش المرض متوجهاً لزيارة الحسين والصلاة في مسجده شكراً لله . وكان نبأ وفاة علي فهمي كامل قد نشر في الصحف ، فتأمله السيد أحمد طويلاً وخاطب ابنيه - وهم يغادرون البيت - قائلاً :

- سقط ميتاً وهو يخطب في جمع حافل ، وها أنا أسعى على قدمي بعد رقاد كدت أرى فيه الموت رؤية العين ، فمنذا يستطيع ان يعلم الغيب ؟!. حقاً إن الأعمار بيد الله، وأنه لكل أجل كتاب . " قصر - ٤٥٢ "

لا عالم للغيب ، ولا متحكم في الموت ، ولا مقدر للآجال والأعمار ؛ إلا الله وحده . الأجل عنده ، والظواهر التي قد ينخدع بها البشر ، لاتمثل شيئاً بالنسبة لقا ر"ه .

وفي قصة " الرسالة " هارب من الثأر اسمه الحقيقي عليش الباجوري واسمه البديل سالم عبدالتواب . الهروب من الثأر هروب من الموت ، وفي رحلة الهروب الطويلة يسيطر الشعور الدائم بالمطاردة ويتبخر الإحساس بالأمان . وثمة لحظة جدية تحمل هاجساً بعبثية الموت أثناء الحياة وحتمية مواجهة الخوف لمواصلة الحياة التي ستمضي

غداً كما مضت أمس : ثم أليس لكل أجل كتاب ؟ . وأن تستسلم للمقادر أخف من أن تشقى دواماً بعذاب الخوف . " الشيطان- ٢٨٩ "

الأخذ بالأسباب واجب لا يعارض الإيمان ولا يناقضه ، ولكن المبالغة تنقلب إلى خوف مرضي يفسد الحياة ويعني - موضوعياً - شعور الهارب الخائف بأنه قادر على تحدي الموت الذى لا يملك أمره إلا الله . التغيير إذن يبدأ من الإيمان - الممارسة بأن " لكل أجل كتاب " ، والاستسلام الكامل لقدر الله هو البديل عن الارتماء فى أحضان الخوف الذى لا نهاية له ولا معنى .

المؤمن الحقيقي هو من يعي قوانين الموت الالهية كما يفعل أحمد عبدالجواد ، ومن يستلهم الآية ويتذكرها ويتصبر بها عندما يسمع خبر موت قريب أو حبيب . وهذا ما تفعله المؤمنة القدرية سنية المهدى عندما ينعى الراديو الزعيم الوطنى الكبير مصطفى النحاس : وكانت سنية تتمشى ما بين حجرة المعيشة والفراندا في جو أغسطس الحار فسرعان ما أسلمت نفسها إلى أقرب مقعد وشخصت بعينيها إلى الحديقة المهملة فى تأثر شديد ، ثم غمغمت :

- آه .. لكل أجل كتاب .. إلى رحمة الله ورضوانه . " الباقى - ٨٢ "

خبر موت الزعيم الجليل صادم ومزعج ، ولكن المؤمن هو من يدرك أنه لا مناقشة في الموت ولا احتجاج عليه . غاية المستطاع هو رد الأمر إلى الله : لكل أجل كتاب ، وطلب الرحمة والمغفرة : إلى رحمة الله ورضوانه .

المبالغة في الشكوى من التعب تدفع بعض البشر إلى تذكر الموت وتصوره . ففى قصة " ثلاثة أيام فى اليمن " يأوى الأديب - الراوى إلى قمرته فى السفينة آخر الليل ويشكو لزميله فيها :

- أشعر من الحر و الرطوبة بأننى سأموت عما قليل .

ويرد الزميل بصوت ملؤه النعاس :

- لكل اجل كتاب . " ثمت ٧٨ "

مبالغة فى الشكوى ، وتعليق موجز يؤكد حقيقة راسخة بقدر ما يوحى بالاستهانة من الشكوى المتطرفة التى يعى الطرفان أنها غير صحيحة !.

سورة إبراهيم

**** وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ****
(٣٤)

يلاحظ رمضان الزيني – عميد الفرزة – كآبة عزت عبدالباقي ذات ليلة فيقول له :
– وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . " عصر ٧٩ "

ظاهر حياة عزت مليء بالنعم : جاه وشباب وثروة وأم فاضلة ومكانة إجتماعية راسخة ، ولكن الإنسان – الظلوم الكفار– لا يقنع عادة بما يملكه من النعم ويتطلع إلى ما يفتقده ويملكه الآخرون .

استشهاد عميد الغرزة صحيح وينطبق على حالة عزت ، وما لم يذكره من الآية يؤكد المعنى ، ومجلس الحشيش لا يناقض الاستعانة بالقرآن لأنه جزء من حياتهم اليومية! .

المفارقة الساقرة نجدها عند ياسين عبدالجواد الذي يستعير " هيكل " الآية ليجسد تضخم شهوته المولعة بكل صنوف النساء : بيد أني أشكو ضنى القلب والعين ، إن تعد النسوان هنا لا تحصيهن .. " قصر – ٢٩٤ " .

الآية حاضرة في عقل ياسين ، وترجمتها تعبر عن طبيعة شخصيته :

إن تعدوا	" نعمة الله "	لا تحصوها
إن تعد	" النسوان هنا "	لا تحصيهن

يتغير الخطاب من الجمعي :" تعدوا " إلى الفردى ": تعد " ، ويختلف ضمير الإحصاء من " تحصوها " إلى " تحصيهن " ، أما التغيير الجوهرى فنراه فى " نعمة الله " التى تتحول إلى " النسوان هنا " . تختصر النعمة عند ياسين المسكون بالشهوات إلى " النسوان " وحدهن !، اما التحوير والتغيير فلا يشغل باله كثيراً . ذلك ان الإنسان ظلوم كفار كما تنتهىالآية الواردة فى سورة " إبراهيم " ، والله غفور رحيم كما تنتهى الآية الواردة في سورة " النحل".

**** فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ****
(٤٧)

انظر : سورة آل عمران ، الآية ٤

سورة النحل

** والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ** (٨)

يخلق الله ما لا نعلم ، والأحداث غير المتوقعة من مخلوقات الله أيضاً . لعل فى هذه الأحداث المجهولة لنا والمعلومة له وحده ، ما ننتظره من فرج وتغيير يخرج بنا من أزماتنا ويتجاوز همومنا .

عندما يضيق الإنسان بالحياة فإنه لا يملك منطقاً أفضل ، ولكن الأمر يحتاج إلى نضج وإيمان لا يملكهما علوان فواز محتشمى كما يتجلى فى الحوار الذى يرويه الجد الناضج المؤمن محتشمى زايد :

- أود يا علوان أن أحمل عنك بعض حزنك !

فقال بضيق :

- الحق أننى لا أدرى ماذا أفعل بحياتى .
- سيبلغ البلد يوماً شاطىء الأمان .
- سأبلغ الشيخوخة قبل ذلك .

فقلت متنهداً:

- " ويخلق ما لا تعلمون ".
- ما أسرع أن تجدوا النجاة فى جملة جميلة يا جدى . " يوم - ٤٥ "

الآية التى يستشهد بها الجد ليست " جملة جميلة " ، وليست - كما يظن علوان - عبارة إنشائية فضفاضة . الأمل الذى تمثله لا يملك الحفيد الساخط له بديلاً . ما أسهل اليأس والمراهنة على كآبة المستقبل المظلم ، وما أصعب الأمل والإيمان بأن المستقبل - بقدرة الله وجهد الإنسان معاً - سيكون أجمل وأفضل .

** وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ** (١٨)

انظر : سورة إبراهيم ، الآية ٣٤

** إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ** (٤٠)

انظر : سورة البقرة ، الآية ١١٧

سورة الإسراء

** من اهتـــدى فإنمـــا يهتـدى لنفسـه ومـن
ضـل فإنمـــا يضـل عليهـا ولا تـــزر وازرة وزر
أخـرى وما كنا معذبيـن حتى نبعث رسولا **
(١٥)

انظر : سورة الأنعام ، الآية ١٦٤

** من اهتـــدى فإنمـــا يهتـدى لنفسـه ومـن
ضـل فإنمـــا يضـل عليهـا ولا تـــزر وازرة وزر
أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا **
(١٥)

بعد حوار طويل بين العجوز محتشمي زايد وحفيده علوان حـول المعانـة فـي الحيـاة وطبيعة المستقبل المنتظر ، تتردد في نفـس محتشـمي الآيـة الكريمـة : " مـن اهتـدى فإنمـا يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها " . " يوم – ٤٦ "

طبيعة المناقشة هي التي تفرض استدعاء هذا الجزء مـن الآيـة إلى ذهـن محتشـمي : لا يملك الرجل إلا تجاربه وحكمته ، ولا طاقة له على بث الأمل في نفـس حفيـده اليـائس المحبط . المسئولية فردية، والمصير فردى أيضاً !.

** ولا تجعـل يـدك مغلولـة إلى عنقـــك ولا
تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا **
(٢٩)

أحمد عاكف موظف محدود الموارد ولا يخلو مـن الحـرص والتقتـير وبخاصـة فـي ظـل ظروف الحرب وارتفاع الأسعار ، وباقتراب العيـد تطـل طموحـات أمـه فـي الاحتفـال الذي لا يطيق تكاليفه المتوقعة . ويتدخل الأب بعد أن أدرك حـزم ابنـه ليقـول بصـوت هادىء :

– ولا تغلل يدك إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ... " خان – ٧٣ "

يتوق الأب في أعماقـه إلى " الكعـك " ولوازمـه المصاحبـة لعيـد الفطـر ، وهـو فـي الوقت نفسه لا يملك وزنـاً إقتصاديـاً فـي الأسـرة يتيـح لـه أن يوجـه ويتحكـم ويتخـذ القرارات . تمثل الآية ، التى لا يحفظها جيداً ، منقذاً له وحلاً مثالياً لما يريـد أن يقولـه .

التوسط هدفه : التوسط بين الإسراف الذى تمثله الأم والتقتير الذى يجسده أحمد ، بين المبالغة في الاحتفال وإلغاء الاحتفال . اللغة العادية قادرة على إسعافه ، ولكن التمثل بالآية أعظم تأثيراً وأكثر قدرة على الإقناع .

** ومن كان هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ** (٧٢)

بعد قرارات السادات في ٥ سبتمبر ١٩٨١ ، والقاضية باعتقال مئات من الرموز الوطنية التي تنتمى إلى كافة الاتجاهات السياسية من اليمين واليسار ، يفكر محتشمي زايد مقيماً لما جرى : لم يعد في ميدان الحرية إلا الانتهازيون فلك الرحمة يا مصر . " ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا " . " يوم - ٦٥ "

السادات ، عند محتشمي الوفدي الليبرالي ذى الانتماء والتراث الديمقراطي الحافل ، مصاب بعمى سياسي جعله عاجزاً عن التمييز بين الخطأ والصواب . القرارات العشوائية ترجمة لهذه العاهة التي هددت مصر بالإفلاس والخواء ، وهى العاهة التى دفع السادات نفسه ثمناً غالياً لها إذ قتل بعد قراراته هذه بشهر واحد . العمى عند محتشمي مفهوم شامل ، أما النتائج التى ترتبت عليه فسياسية فادحة .

** وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ** (٨١)

يقف العجوزان محتشمي زايد وسليمان مبارك على طرفي نقيض : الأول اهتدى إلى الإيمان وتحصن به ، والثاني تمسك بالحاده ورفضه للدين إلى النهاية . لا سبيل أمام أحدهما لإقناع الآخر والتأثير فيه ، وفى أعقاب مناقشة مضنية بلا طائل ، يفكر محتشمي : حوار عقيم ، " وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " . صديقي يعيش في كون خال وأعيش في كون آهل بالأحباب . " يوم - ٢١ "

يتخندق سليمان مبارك في إلحاده ووحدته الروحية القاسية كأنه يتيم وجودى ، اما محتشمي فقد أفلت وانطلق وتحرر وذاق الإيمان وحلاوته النافية للوحدة والعبث . عند هذه المرحلة من استقرار الصديقين فى موقعين متناقضين ، يبدو الحوار بلا معنى. الطرفان من الاختلاف والتنافر إلى درجة لا تسمح بتغيير أو انقلاب يطول أحدهما بفضل الآخر . محتشمي جاءه الحق ، وسليمان تمسك بالباطل . وكلاهما يناور ويناقش ويأبى أن يغادر موقعه فى المعركة المحسومة .

سورة الكهف

** إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا ** (٢٤)

سعيد مهران مشدود إلى الأرض ، والشيخ على الجنيدى محلق فى السماء . سعيد مشغول بالبشر ، والشيخ مهموم بالله . الحوار بينهما لا يصل إلى مداه لأن سعيد مهران قد يلتقط كلمات الحوار ولا يسمعها واعياً مدركاً ، ولأن الشيخ يتعامل مع كلمات سعيد بمنطق الهي يستعصى عليه الهبوط إلى دونية المبتذل والمؤقت .

لا تواصل . مقاطعة سعيد تفسد الوصول :

– وحديثى عن الأوغاد ألا تذكره ؟

ويرد الشيخ بنبرة دسمة :

– واذكر ربك إذا نسيت . " اللص – ١٧٠ "

المشيئة لله وحده ، والذكر ينبغى أن يكون له وحده ، والهداية أيضاً من عنده وحده. رسالة الشيخ فى كلمة واحدة هى " الله " وطموح سعيد فى كلمة واحدة هى " الأرض " . وما أبعد المسافة بينهما !. لا يملك المشدود إلى الأرض والمكبل بقيودها أن يذكر السماء ويتطلع إليها ، ذلك ان ذكر الله والفناء فى ملكوته يعنى نسيان الأوغاد والتعالى عليهم .

وهذا ما لا يملكه سعيد .

** إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ** (٣٠)

نعمة الله الفنجرى فى قصة " أهل الهوى " امراة شرسة تقودها شهوة لا تشبع وقوة لا قبل لأحد بها ، والشيخ جابر عبدالمعين إمام الزاوية ومن صنائعها المطيعين . مشروع عشقها الجديد يحتاج إلى إعداد وتهذيب وتوجيه " دينى " يروض البدائى فاقد الذاكرة، وقبل ان تطلب ذلك من الشيخ صراحة تقول :

– أعطيته عملاً ورزقاً .

فقال الشيخ وهو فى أعماقه يخافها ولا يحبها :

– الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . " رأيت – ١٣ "

مقولة صحيحة لا يتطرق الشك إليها : إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولكن الاستشهاد يأتي في غير موضعه . شرطاً الجزاء في " الإيمان " و " عمل الصالحات " ، وهما شرطان لا ينطبقان على ما فعلته نعمة الله . إيمانها بالشهوة دون الله ، وعملها من اجل الشهوة دون تفكير في الخير والإحسان . رجل الدين التابع المطيع يخافها ولا يحبها ، وتأتي الآية على لسانه كأداة للتخلص من عبء الإجابة الحقيقية التي لا يملك - لخوفه وتبعيته - أن يبوح بها !.

** المال والبنون زينة الحيا الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا **

(٤٦)

في قصة " مفترق الطرق " تظهر شخصية جلال أفندي رغيب ، الموظف الفقير مثقل الظهر بالأعباء والهموم . الوزير الجديد حامد بك شامل زميل دراسته ، وفي عهد الدراسة كان جلال أكثر تفوقاً . لقد ذهب الماضي بخيره وشره ، ولم يبق إلا الواقع القاسي المتجهم : وقد وسع الله في إحدى زينتي الحياة الدنيا وقتر عليه في الأخرى . فرزق ستة أبناء يسعون ما بين حجر الأم والسنة الرابعة الثانوية . وأما مرتبه فسبعة عشر جنيهاً ، فناء بأثقال العيش ومتاعب الحياة . " همس - ٢٥٢ "

يستعين نجيب في وصفه بمفردات الآيات القرآنية ويتحدث عن "زينتي الحياة الدنيا " على أساس أنهما معروفتان للجميع ولا تحتاجان إلى توضيح : المال والبنون . ويشرع بعد ذلك في الشرح مبينا السعة في نعمة البنين والتقتير في نعمة المال .

نجيب هو الفاعل الشارح في قصته المبكرة ، أما السني الحالم المشدود إلى الدنيا في قصة " حلم " فيتحدث عن نفسه في حواره مع الشيخ :

- لم أذنب يا مولاي ، والمال والبنون ؟

واعتدل استعدادا للاستماع ، ولكن الشيخ قال :

- ما ابعدك عن مجلسي . " خمارة - ١٨٧ "

بالسؤال المستمد من القرآن : والمال والبنون ؟ ، يسعى المريد - الحالم بالدين والدنيا معاً - إلى إحراج شيخه وتبرير تشبثه بالدنيا . وبإعراض الشيخ وجفائه نلتمس موقفاً مضاداً يعرف الآية ويدرك أبعادها وآفاقها التي لا يفكر فيها التلميذ. لا يعترض الشيخ ولا يملك أن يعترض ، ولكنه ينتمي إلى عالم مختلف ورؤية مغايرة .

المال والبنون زينتان ، والواقـع الإنسـانى لا يسـمح كثيراً بـالجمع بينهمـا . الوجيـه نعمان الرشيدى عجوز ذو مال وجاه ، وإذ يتقدم لخطبة كوثر حامد برهان التى أوشك قطار الزواج أن يفوتها ، يترك الأب لها حرية الاختيار . ولكنه يقول :

– ولكن لا بأس من إبداء الراى مساعدة لها ، الرجل الثرى ، والمال زينة الحياة الدنيا!

وهم محمد بتكملة الآية ولكنه عدل عن ذلك . " الباقى – ٢٢ "

أسقط الأب من الآية التى يضمها حديثه كلمه " البنون " وكأنه لا يرى فى العريس من ميزة إلا " المال " دون قدرة على تحقيـق الزينـة الثانيـة وهـى " البنـون " . ومحمـد ، الابن الأكبر المنتمي إلى الإخوان المسلمين ، " يهم " بالتدخل ولا يفعل . أكـان يـود أن يصحح للأب ما أسقطه ؟!. ، أم كان يود أن يذكره بـ " الباقيات الصالحات .. ؟!.

فقير يملك البنين دون الأموال ، ومريد حالم يجمع فى قلبه بين المال والبنين ولا يـرى فيهما تعارضاً مع الاجتهاد فى الطريق ، وواقع معقـد يجعل الجمـع بـين الزينتـين صعبـاً أحياناً ولا مناص من الاختيار بينهما !.

** قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنما نسيت الحوت وما أنسنيه إلا الشـيطان أن أذكـره واتخـذ سبيله فى البحر عجبا ** (٦٣)

يغرق ياسين فى ذكريات غرفة تذكاراته السـوداء ، حيـث طفولتـه وأمـه وعشـيقها وآلام الخيانة والخديعة . ولكنه سرعان ما يعود إلى واقعة وإلى شخصيته الحقيقية المولعـة بالنساء : آه .. زنوبة .. كدت أنساك وما أنسانيك إلا الشيطان . " بين – ٧٧ "

الشيطان الذى تقصده الآية غير الشيطان الذى يعنيه ياسـين شيطان ياسـين . الأول يتمثل فى الماضى الذى يأبى أن يفارقه ويكدر عليه صفو الحياة ، وشيطان ياسين الثـانى يتجسد فى شهوته العمياء التى تتحكم فى كل مفردات حياته !.

** قال إنك لن تستطيع معى صبرا ** (٦٧)

فى الحلم العاشر من أحلام قصة " رأيت فيمـا يـرى النـائم " يجسـد نجيـب محفـوظ " مأساة " الخضر التى تسمو به عن البشر . إن الزمن بالنسبة له لا يمثل شيئاً مقاربـاً لمـا يعرفه العاديون من الناس : أين قصر الملكـة ؟ وأيـن دار القضـاء ؟ كـان القصـر والـدار موجودين منذ خمسة آلاف سنة !.

بمقاييس الحياة العادية والبشر العاديين ، فإن الحالم يحق له أن يقرر أن مئة عام كافية لتغيير أى مكان ، فما بالك بخمسة آلاف سنة ؟ ويعقب هذا التقرير سؤال لمن يتحدث بالآلاف :

– من حضرتك ؟

فقال بهدوء :

– أنا الخضر ...

– سيدنا الخضر ؟!

– سيدنا ؟!

– لقد حظيت بالخلود فأنت سيد البشر !

فقال بأسى :

– أنا اسير الوحدة ، فأنا الخلاء وأى أغراب لا يعرفونني ...

ويندفع الحالم بإلهام قوى ليقول كأنه يكرر تجربة النبى موسى :

– هلا سمحت لى بمرافقتك بعض الوقت ؟

فهز منكبيه وقال :

– لن تستطيع معى صبرا .

ومضى مبتعداً وهو يسير بسرعه البرق . " رأيت – ١٦٢ ، ١٦٣ "

لن يستطيع أحد معه صبرا . وكيف يتحقق الصبر فى ظل التباين الذى يصل إلى درجة التناقض ؟!. الطرف الأول يتصور – بقوانينه البشرية القاصرة – أن خلود الخضر يعنى سيادته على البشر ، والطرف الثانى – الخضر – يشكو من أسرة الوحدة . الأول يتصور أن الخلود نعمة ورحمة ، والثانى يعى أنه " محكوم عليه " بالخلود !.

...... والصبر غير مستطاع !.

** قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ** (٧٨)

ما أعظم الفارق بين العلمين اللذين تتحدث عنهما الآية : النبى موسى والخضر ، وبين الشخصيتين اللذين يقدمهما نجيب محفوظ فى رواية " القاهرة الجديدة " ويستخدم أحدهما مفردات الآية .

المطلوب من محجوب عبدالدايم أن يتزوج لينال الوظيفة ، والزوجة – التى كانت عذراء!– عشيقة قاسم بك فهمى ، وسالم الأخشيدى – مدير مكتب البك – هو الذى

اختار محجوب ليؤدى دور الزوج والقواد !. ياله من عمل خطير جليل يشرح سالم أهميته في قوله لمحجوب:

- ومثل هذا العمل يتطلب قلباً كبيراً وعقلاً واسعاً ، وثقافة عميقة ، أما إذا تناولت الأمور بمعيار العوام فهذا فراق بيني وبينك . " القاهرة - ١٠٥ "

كل هذه المؤهلات : القلب الكبير والعقل الواسع والثقافة العميقة ، لماذا ؟!. لممارسة دور القواد الخصوصى !.

مثل هذا العمل الخطير عند سالم الأخشيدى مضنون به على العوام ومن يتناولون الأمور بمعاييرهم ومقاييسهم ، وهو " ينزه " محجوب و" يجله " أن يكون من العوام !.

هل يصلح سالم لدور الخضر ؟ وهل يتفوق محجوب على النبى المرسل ؟!. الإجابة بالنفى طبعاً . ولكن : هل أدل على الانهيار والاختلاط والتدهور المريع من لغة القواد الأكبر الجاد فى حواره مع القواد الناشىء الملىء بالحماس والقدرة على اقتحام الصعاب؟!.

الأمر نفسه يتكرر فى حوار سمارة بهجت وخالد عزوز . فإذ ترى الصحفية الجادة الملتزمة أننا لا نعيش في عالم ماهيتة الفوضى ، يرد الكاتب غير الملتزم بشىء متنهداً :

- هذا فراق بينى وبينك . " ثرثرة - ١٣٥ "

تعبير عن القطيعة وانعدام فى تواصل الحوار !.

سورة مريم

**** ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمر فإنما يقول له كن فيكون ** (٣٥)**

انظر : سورة البقرة ، الآية ١١٧ .

**** إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ** (٤٠)**

في قصة " تيزة أم عزيز " يبدو طويلاً : أن الخط سيستقر فى بحيرة الطمأنينة حتى يرث الله الأرض ومن عليها . " القرار – ٥٤ "

ولأنه لاشيء يستقر ويدوم على حاله ، فإن الاستدراك حتمى : ... ولكن ...

الجملة القرآنية هى المسعفة للتعبير عن حالة السكون والاستقرار التى تبدو بلا نهاية، وتفاعلات الحياة هي التى تغير وتبدل . لاشيء يقف بمعزل عن تيارات التغيير والانقلاب .

سورة طـه

**** فألقاها فإذا هي حية تسعى **   (٢٠)**

تتحول الآية إلى جزء من دعابة متداولة بين ثرثارى العوامة الذين يمثلون مجموعة من النماذج السلبية فى الواقع المصرى .

عند بداية تعارف الصحيفة الجادة سمارة بهجت بالشلة التى لا تعترف بالجد ، تقول مخاطبة الكاتب القصصي خالد عزوز :

– أما أنت فآخر ما قرأت لك أقصوصة الزمار .

ثبت خالد النظارة على عينيه ، فاستطردت :

– الزمار الذى انقلب مزماره إلى حية تسعى ..

فقال مصطفى راشد :

– وقد استحق منذ نشرها أن يُدعى بحق خالد الحنش " ثرثرة – ٤٩ "

نص القصة القصيرة موضوع الدعابة لا تقدمه الرواية ، وسمارة بجديتها تترجم ما فهمته من القصة مستخدمة التعبير القرآني الوارد في سياق الحديث عن النبي موسى : " حية تسعى" ، والأمر عند مصطفى راشد لا يتجاوز " قفشة " مضحكة وإطلاق لقب جديد على الصديق الذى يكتب فى قصصه عن الثعابين !.

وتعود سمارة إلى استخدام التعبير القرآني نفسه فى مشروع مسرحيتها وهى تعرض للشخوص ، فتقول عن خالد : وهو دون أصحابه عاطل . يأخذ من المجتمع دون أن يعطيه شيئاً ، إلا قصصاً مثل قصة " الزمار " الذى انقلب مزماره إلى حية تسعى !. " نفسه – ١٠٧ ، ١٠٨ "

وفى رحلة أصدقاء العوامة إلى الهرم ، التى انتهت بكارثة ، يستعين أنيس زكى بالآية فى خواطره وتداعياته وهو يتأمل الأشجار : وها هى حية تسعى حول غصن تريد أن تقول شيئاً. " نفسه – ١٥١ "

من الواضح أن توظيف الحية فى الرواية يختلف عن معناها فى الآية القرآنية . بدأت سمارة، ثم ترسب التكوين فى ذهن أنيس فأعاد استخدامه . وكلاهما لا يقترب من مفهوم الآية !.

**** واصطنعتك لنفسى **   (٤١)**

انظر : سورة آل عمران ، الآية ٣١

** فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار ولعلك ترضى ** (١٣٠)

لأم كامل رؤية موقف لا يخلو من الشذوذ تجاه فكرة زواج ابنها ، وعند عزمه وإصراره على الزواج يحدث صدام لا يخلو من انفعال تراه الأم مهيناً . ويعود كامل إلى رشده وهدوئه فيعتذر ، ويتودد :

- إن رضاك عني بالدنيا وما فيها .

وترد الأم مبتسمة :

- سيدعو لك قلبي آناء الليل وأطراف النهار . " السراب - ١٨٨ "

في رد الأم تأثر واضح بمفردات الآية القرآنية وأسلوب صياغتها . ليس مهماً أن تكون واعية بمصدر قولها أو حافظة للآية ، فالتعبير من الشيوع والانتشار بحيث لا يتحتم على من يستخدمه أن يعرف جذوره .

سورة الأنبياء

** كـل نفـس ذائقـة المـوت ونبلوكـم بالشـر
والخير فتنة وإلينا ترجعون ** (٣٥)

انظر : سورة آل عمران ، الآية ٤

** قلنـا يـا نـار كونـي بـرداً وسـلاما علـى
إبراهيم ** (٦٩)

النار المادية التي أحاطت النبي إبراهيم لا تختلف - عند كمال عبدالجواد - عن نار الحب التي يكتوى بها في علاقته الأحادية مع عايدة شداد ، وهي نار تحتاج إلى " معجزة " لإطفائها شبيهة بمعجزة إبراهيم . وفي ذروة عذابه يبسط كمال راحتيه إلى رب السموات وهو يدعو من الأعماق : " اللهم قل لهذا الحب كن رماداً كما قلت لنار إبراهيم كوني برداً وسلاما . " قصر - ٢٥٢ "

وإذا كان نسيان الحب هو ما يراوده كمال ، فإن نسيان الموت والموتى هو ما تنشده أمه أمينة لابنتها المنكوبة عائشة . مصائبها لا تقل في قسوتها عن النار التي كابدها النبي ،وليس من سبيل إلى النسيان والبلوى - عند أمينة - إلا بزيارة الإمام الحسين في مسجده :

- طاوعيني وتعالي معي إلى الحسين ، ضعي يدك على الضريح واتلي الفاتحة تتحول نارك إلى برد وسلام كنار سيدنا إبراهيم . " السكرية - ٢٣٤ "

عند كمال وأمه تمثل واضح مباشر لألفاظ الآية القرآنية ، ويتمثل الفارق في طبيعة النار . عند أبي الأنبياء نجد ناراً حقيقية ألقاه فيها قومه ونجا منها برعاية الله كمعجزة خالدة ، اما النار التي يعاني منها كمال وامه فتختلف : نار كمال في حبه لعايدة ، ونار أمينة في معاناة عائشه وكوارثها التي لا تنتهي .

سورة الحـــج

** إن الذين آمنــوا والذين هـادوا والصـابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد**
(١٧)

في حوار بين رؤبة لاظ وابنه كامل ، يقول الأب : وما من مرة خلوت بإنسان قـط إلا وافترقنا خصمين ، وهم يقولون عادة إني مخطىء ، وأنا أقول إنهم لمخطئـون ، فـالله يفصل بيننا يوم القيامة . " السراب - ١٤٢ "

الإحالة واضحة إلى الآية القرآنية ، والدهشة حتمية لأن المتكلم لا يكاد يفيـق مـن الخمر ولا علاقة له بالدين والقرآن . رؤبة نفسه يدرك ما في مقولته من غرابـة فيبـادر بالشرح والتوضيح : لا تندهش إذا سمعتني اقتبس من القرآن ! ، فإنما الفضل في ذلـك إلى الراديو . " نفسه - ١٤٢ ، ١٤٣ "

لا ثقافة دينية تسعف رؤبة ، وكأنما " يدافع " عن نفسه عندما يقول إن ما اقتبسـه مردود إلى الراديو وما يبثه من برامج !.

** يا أيهـــا النـــاس ضـــرب مثـل فاستمعوا له إن الـذين تدعون من دون اللـــه لن يخلقـــوا ذبابــاً ولـو اجتمعوا لـه وإن يسلبهـــم الذبـاب شـيئاً لا يستنقـــذوه منـــه ضعـــف الطـــالب والمطلوب **
(٧٣)

ما أضعف الطالب والمطلوب ، أي ما أضعف عابد الصنم ومعبوده .

هل تستحق زنوبه العوادة ما يرسمه أحمد عبـد الجـواد مـن خطـط للانفـراد بهـا ؟!. صديقه محمد عفت يرى أنها أهون من ذلك بكثير ، ولكنه يساير أهدافه قائلاً :

- ضعف الطالب والمطلوب !. " قصر - ١١٠ "

ولا تتسع الهجرة لعلوان فواز محتشمي وخطيبته رندة سليمان مبارك ، فكلاهما مـن خريجي الأقسام النظرية التي لا يحتاجها سوق العمالة : حتى في الهجرة لا مجال لنا . بين الفلسفة والتاريخ ضعف الطالب والمطلوب . " يوم - ١٢ "

أما الشيخ على الجنيدى فيرتقى باستخدام الآية إلى آفاق تتوافق مع ورحانيته وصوفيته ، فإذا يلوذ سعيد مهران ببيته يتساءل فى قلق :

- ألا ترحب بى ؟!.

يفتح الشيخ عينيه قائلا:

- ضعف الطالب والمطلوب .

لا يفهم سعيد الرسالة ، ويتمسك بماديته ضيقة الأفق فى تساؤله :

- لكنك صاحب البيت !

ويرد الشيخ :

- صاحب البيت يرحب بك ، وهو يرحب بكل مخلوق ، وبكل شيء ...

يبتسم سعيد متشجعاً ، فيستدرك الشيخ :

- أما أنا فصاحب لا شيء ... " اللص - ٢٩ "

الله هو صاحب كل شيء : الشيخ وبيته وضيوفه ، ولأنه المالك لكل شيء فإن التوجه ينبغى أن يكون له . وما أضعف سعيد وأهونه عندما يطلب الملجأ والملاذ عند رجل لا ملجأ له ولا ملاذ إلا الله !.

سورة المؤمنـــون

** ولقد خلقنـا الإنسـان من ســـلالة مـــن طين . ثـم جعلناه نطفـة في قرار مكين . ثـــم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقـــة مضغة فخلقنـا المضغة عظاماً فكســـونا العظام لحمـــا ثم أنشأناه خلقاً آخـــر فتبارك الله أحسن الخالقين **

(١٢ - ١٤)

الثورة الإلحادية لكمال عبدالجواد لا تغير ثقافته ولغته السابقة للإلحاد . وفي احتفالـه الخاص بيوم ميلاده يفكر في تاريخه قبل أن يولد ، وفي الممارسة الجنسـية التـي تسـببت في وجوده : بيد أنه قد عرف له بداية قريبة دعاها بالنطفـة ، فهـو علـى ذلـك لم يكـن قبل تسعة عشر عاماً وتسعة أشهر إلا نطفة . " قصر - ٤٢٤ "

ويتجلى التأثير القرآني في لغة كمال وهو يتابع رحلـة النطفـة : ومـن النطفـة مـرق حيوان فالتقى ببويضة في البوق وثقبها ، ثم انزلقا إلى الرحم معاً ، فتحـولا إلى علقـة ، فكسيت العلقة لحما وعظما .. " نفسه - ٤٢٥ "

" نطفة " ، " علقة " ، " كُسيت " ، " لحم وعظم ".

أليست هي المفردات القرآنية نفسها والتتابع القرآني نفسه ؟!. العلم بلغـة القـرآن ، وتطور الوجود الإنساني بمنطق القرآن ، والشخص الذي يفعل ذلك " ملحد " يسـتهين بالدين والقرآن!.

قد يكون صادقاً في ادعائـه للإلحـاد ، ولكنـه لا يملـك أن يفلـت مـن قبضـة التأثـير وسطوته .

سورة النور

** ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** (٣٨)

انظر : سورة البقرة ، الآية ٢١٢

** أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور . ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون . ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير **

(٤٠ – ٤٢)

عامر وجدى من أكثر شخصيات نجيب محفوظ ولعا بالقرآن وقراءة له واختياراً دالاً لآيات بعينها تلعب دوراً محورياً فى إضاءة أحداث الرواية . وإذا كانت سورة " الرحمن " – التى سنتوقف عندها فيما بعد – بمثابة المدخل والمخرج فى البناء الروائى كله ، ، فإن الآيات المذكورة من سورة " النور " تمثل تمهيداً للنهاية وتكثيفاً لما قبلها ، وهى آيات تحقق درجة عالية من التوافق والانسجام بين الشخصية والمكان والأحداث .

تقترب الأحداث من نهايتها ، وتخيم سحابة داكنة تحدد المصير النهائى لسكان البنسيون . العجائز وحدهم : ماريان وطلبة مرزوق وعامر وجدى هم المتحاورون دون جدوى أو هدف ، وينسحب عامر إلى غرفته ليقرأ ثلاث آيات متتاليات من سورة النور : من " أو كظلمات فى بحر لجى " إلى " وإلى الله المصير ... " .

بعدها : سرعان ما تعبت عيناى من القراءة . غادرت الحجرة إلى المدخل والساعة تدق الرابعة مساء . " ميرامار – ٢٦٩ "

فى غرفته ، التى تسبح بحكم موقعها فى عتمة دائمة ، يقرأ عامر وجدى بعد أحداث رمادية كئيبة ، وبالظلمات الكثيفة تبدأ القراءة . الشتاء السكندرى يزمجر خارج البنسيون المغلق ، والسحب تخيم فى الداخل : المكان والنفوس . الظلمة العاتية

تسكن في أعماق البشر ، والنور بعيد مفقود : ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

في الآيات تسبح الكائنات جميعاً لله وفي البنسيون يتصارع الشخوص جميعاً حتى الإفلاس والانتحار والانهيار ، والعلم النهائي بالمصائر الذى يتجادل حوله الباقون من السكان غير متاح لهم : وا لله عليم بما يفعلون .

ا لله وحده هو العليم ، وإلى الله وحده المصير ، والتكامل متحقق بين ما يقرأه العجوز وما يعايشه من أحداث . لقد أنبأ الرجل بتلاوته الدالة عما سيكون ، وهو ليس غيباً مجهولاً بقدر ما هو واقع آخذ في التشكل والوصول إلى محطة النهاية .

**** ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ** (٤٢)**

انظر : سورة آل عمران ، الآية ١٨٩ .

**** ولقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ** (٤٦)**

انظر : سورة البقرة ، الآية ٢١٣

**** ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ** (١٦)**

في الآية لا حرج على الأعمى والأعرج والمريض و ... ، ولأهل العوامة في " ثرثرة فوق النيل " رأى آخر بفعل المخدر الذى لايفيقون منه .

انتهى الممثل رجب القاضي من مغامرته مع سناء وانشغل بحب جديد ، ويقول خالد عزوز ببساطة :

- علينا من الآن أن نتفق على وريث لسناء !

ورمقت سناء رجب بنظرة قاسية فقال ملاطفاً :

- ليس على المسطول حرج . " ثرثرة - ٧٦ "

لا حدود للسخرية عند شلة العوامة ، ولا ينجو القرآن نفسه من التحوير والتحريف في سبيل دعابة عابرة تلطف العكارة وتزيل الأثر السيء لملاحظة قاسية وتبعث على الضحك أو الابتسام .

يدافع رجب عن صديقه وينفي - بطريقته - وقوعه فى الخطأ والاثم ! . ذلك أنه صادق فيما قال عن سناء ومستقبلها ، والاعتذار غير المباشر عن صراحة الصياغة القاسية وليس عن مضمونها !.

سورة القصص

**** طسم . تلك آيات الكتاب المبين.نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ** (١-٥)**

معركة حامية بين سرحان البحيري وعشيقته المهجورة صفية ، وتدخل من زهرة تستحق به وصف " الملاكمة الجبارة " من طلبة مرزوق . حدث مما يذخر به البنسيون من أحداث ، متبوع بحوارات ومناقشات ، ثم ينفرد العجوز عامر وجدى فى حجرته ليقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم . طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . " ميرامار - ٦١ "

ألا تندرج زهرة ، الفلاحة الطموحة الشريفة القوية ، فى طائفة المستضعفين فى الأرض؟!.

ألا يمكن أن تكون واحدة من الوارثين المتحققين الصاعدين ؟!.

الآيات التي يتلوها عامر ليست عشوائية ، ولكن الروائى يختار له من الآيات ما يكثف به حدثاً منقضياً أو يوحي بجديد سيتحقق . بعد المعركة يقرأ عامر فى حجرته ، وتنقطع القراءة بدخول المرأة اليونانية صاحبة البنسون لتخبره أن زهرة قررت أن تتعلم القراءة والكتابة !.

قررت أن تملك المؤهلات التى تتيح لها الانتقال من الاستضعاف إلى القوة !.

**** إنك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ** (٥٦)**

بالسيد رضوان الحسيني تستجير أم حسين زوج المعلم كرشة . أليس المستجار به سيد الحي ورجله الفاضل ؟!. من غيره إذن يستطيع مواجهة المعلم بشذوذه الجنسي وينصحه بالسلوك القويم والكف عن الانحراف ؟!. ولكن هل يقدر الرجل المؤمن على هداية المعلم؟!.

يتساءل رضوان الحسيني في انتظار قدوم كرشة : هل يبلغ هداية الرجل حقاً ؟ . وهز رأسه الكبير واستشهد بقوله تعالى " إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء " . " زقاق - ٩١ "

ليس أمامه إلا أن يحاول ، أما نجاح المحاولة وتحقق الهداية للشاذ الضال فلن يتأتى إلا بإرادة الله وحده .

حاول رضوان وفشل ، والمعلم كرشة نفسه هو الذي يعترف بأن سلوكه الشاذ " أمر الله " ، ولن يهتدي حتى يأمر الله بالهدى ! . " نفسه - ٩٥ "

مجرد تأجيل التوبة بإحالة الأمر إلى الله مع إهماله الرغبة والإرادة .

**** وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ** (٧٧)**

هل يتحتم على حسين كامل أن يضحي بنفسه - دون توقف - في سبيل أمةالأرملة وأخته العانس وأخية الطموح ؟!.

توظف الشاب بالبكالوريا ليعول أسرته ، وها هو يجد نفسه مضطراً بضغط من أمه - أن يصرف النظر عن مشروع زواج من أجل أسرته أيضاً .

أبو العروس المرشحة باشكاتب المدرسة حسان حسان حسان ، لا يقتنع بتضحيات حسين المتتالية ويقول للشاب ناصحاً :

- عالج أمورك كما تشاء ولكن لا تنس نفسك . قال تعالى " ولا تنس نصيبك من الدنيا " . " بداية - ١٧٦ "

منطق سديد ونصيحة ثمينة ، ولكن ما يفوت الناصح أن " نصيب " المرء في الدنيا " نسبي " ولا ينصرف إلى معنى النظر إلى المصلحة الذاتية فحسب . أليس في تضحيات حسين الإضطرارية ما يعبر عن مفهوم اجتماعي شائع لكلمة " الواجب " ؟ أليست تضحياته هذه جزءاً من " نصيبه " الذى قد لا يكون بالضرورة خيراً واستمتاعاً !.

سورة العنكبـــوت

** كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا يرجعون **
(٥٧)

انظر : سورة آل عمران ، الآية ١٨٥

سورة الــروم

** آلم . غُلبت الروم . فى أدنــى الأرض وهــم من بعد غلبهم سيغلبون ** (١-٣)

تزداد قسوة الجيش الإنجليزى في قمع ثورة ١٩١٩ ، وتزداد مخاوف أحمد عبدالجــواد . وبزيارة الشيخ متولى عبدالصمد وما يقصــه مــن أهــوال وفظـائع التنكيـل الانجلـيزى ، يصل الخوف إلى ذروته .

ينهى الشـيخ زيارتـه ، وقبـل رحيلـه يقـول مختتماً الحـوار والفصـل الروائـى كلـه :
" غلبت الروم فى أدنى الأرض وهـم من بعد غلبهم سيغلبون ". " بين – ٤٥١ "

الآيات التى يدمجها الشيخ فى آية واحــدة تتحـدث عـن انتصـار الفـرس علـى الـروم وتنبـىء عـن انتصـار الـروم بعـد انكسـارهـم . فـى الحـدث الروائــى العصــرى انجلــيز ومصريون، والغلبة للاسـتعمار الانجلـيزى القـوى دون المصريـين الثـائرين . فـى اختيـار الشـيخ دلالـة علـى استبشـاره بالانتصـار ، فـا لله الـذى كتـب لـلروم أن ينتصـروا بعـد هزيمتهم، لن يتخلى عن المصريين المؤمنين فى مواجهتهم للانجليز الكافرين .

سورة السجـدة

**** إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ** (٢٥)**

انظر : سورة الحج، الآية ١٧

سورة الأحـــزاب

**** ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ومـا جعل أزواجكم اللائى تظهرون منهن امهاتكم وما جعل ادعياءكم أبنـاءكم ذلـك قولكـم بـأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ** (٤)**

كان العرب قبل الإسلام يزعمون ان كل لبيب له قلبان ، وجاء القرآن الكريم لينفى مزاعمهم . للإنسان - أى وكل إنسان - قلب واحد وطاقة واحدة .

يتكيء أحمد عاكف على الآية القرآنية ليتعالى على فكرة الزواج ، وهـو فـى حقيقـة الأمر راغب فيها بقدر ما هو عاجز عن تنفيذها . تبخر حبه الوليد لجارته الصغيرة ، وإذ يتساءل أخوه رشدى الأصغر منه والشارع في الزواج قبله عما يعوقه عن اللحـاق بـه ، يقول كالمتهكم:

- مضى زمن الزواج !.

- مضى ؟!.

- دع هذا يا رشدى ، فأنت تعلم أننى امرؤ مشغول ! والله لم يجعل لامـرىء من قلبين في جوفه !. " خان - ١٧٢ "

حق يُراد بـه بـاطل ، وعجـز يُـترجم إلى سمو ، وفشـل ذريـعٌ يعتـذر عنـه بمشـغولية مزعومة؛ وهذه هى شخصية احمد عاكف . ليس صحيحاً أنه مشغول ، ولكنه مشـلول الإرادة !.

كمال عبدالجواد شخصية مختلفة ، واتكاؤه على الآية يتشابه شكلياً مع منطـق أحمـد عاكف ولكنه ينطلق من القدرة والامتناع والصدق والمثاليـة . مـن المتـاح لـه أن يدخـل كلية الحقوق كما ينصحه صديقه فؤاد الحمزاوى الذى لا يرى تعارضاً بين الكليـة التـى تمنح عملاً محترماً والثقافة التي يرومها كمال ويفضل من احلها مدرسة المعلمين العليا !.

ويرد كمال القادر والممتنع عن مثالية لا عجز :

- لم يجعل الله لامرىء من قلبين في جوفه . " قصر - ٨٠ "

كمال يملك أن يفعل ولا يفعل ، أما أحمد عاكف فـلا يملـك أن يفعـل ويتجمـل !. الآية عند كمال طوق نجاة من حيرة فكرية وتشتت ذهنى لا يريده ، والآية نفسها عنـد أحمد طوق نجاة من مأزق فشل ودوائر إحباط !.

**** ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان امر الله قدراً مقدوراً ****
(٣٨)

في إطار حلمي - كابوسي تتشكل قصة الحب الأسطورية المنطلقة من لعبة عبثية بين دنيازاد ونور الدين . يلتقيان بتدبير شيطاني ، ويفترقان ثم يلتقيان . هل يستمران مسلحين بالحب والإصرار أم يتباعدان بضغوط وقيود الواقع ؟!.

يقول نور الدين بإصرار :

- معاً إلى الأبد ..

وترد دنيا زاد مستعيرة نصاً قرآنياً :

- كان ذلك قدراً مقدوراً . " ليالي - ١٢٢ "

تعبر دنيا زاد بطريقة أخرى عن الإصرار والتشبث ، ولكنها - لإدراكها صعوبة الأمر - ترد المسألة إلى الله وقدرته وقدره المسطور .

**** إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ****
(٥٦)

يشتد المرض على أم ياسين ، ويتطوع أحد أقاربها بدعوة ياسين لزيارتها . في طريقه إليها ينشغل بعديد من الهواجس وتشتعل في أعماقه الوساوس . يسيطر الموت على ذهنه ، ولكنه لا يحمل للموت وحده كل الهم . " تفاصيل " طقوس الموت تشغله، ومشاركة زوج أمه في الجنازة يزعجه ، والميراث والتركة وغرفة التذكارات السوداء الملبثة بالخيانة والخديعة : لن يكون في وسعي أن أطرده من الجنازة فتلاحقني الفضيحة حتى اللحظة الأخيرة .. ثم تدفن ، أحل تدفن وينتهي كل شيء ، ولكني خائف ومتأفف ومحزون ، إن الله وملائكته يصلون على .." بين - ٤٠٦ "

ما الذي دفع بمطلع الآية إلى عقل ياسين المشتت المزدحم بالأفكار ؟!. ليس متديناً فيشغله القرآن ، ولا يوجد في الطريق حوله مؤثر ظاهر . هل تربض في أعماقه رغبة في " الصلاة على النبي " ليستريح ويهدأ ؟!. هل ترتبت على رغبته فكرة استدعاء الأمر القرآني بالصلاة على النبي ؟!. ربما كان هذا هو التفسير ، وربما كان قانون التداعي يعمل بمنطقه الخاص دون منطق أو أسباب !.

سورة سبأ

**** لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ** (١٥-١٦)**

قصة واحدة في عالم نجيب محفوظ كله تدور أحداثها خارج مصر : " ثلاثة أيام في اليمن " .

المكان : اليمن ، والموضوع : الحرب بين الجيش المصرى والقبائل الموالية للنظام الملكي الذى أسقطته الثورة اليمنية .

وفد من الأدباء والمثقفين المصريين يقومون بزيارة رسمية عسكرية لليمن ، ذلك البلد الذى يقترن بمجموعة من المفردات التراثية الشهيرة ومن أهم هذه المفردات : سبأ .

بنو سبأ - الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم - هم اولاد يشجب بن يعرب من قبائل اليمن .كانت لهم بساتين ونعم ، وأعرضوا عن شكر الله فتعرضوا لسيل عنيف بدل حالهم وضيع نعمتهم وأفسد نعيمهم وجعل منهم مثالاً للمغضوب عليهم والمعاقبين بكفرهم .

يقوم وفد الأدباء بزيارة ما تبقى من آثار سبأ ، ويدور بين اعضاء الوفد حوار تتخلله الإشارة إلى الآيتين اللتين تتعرضان لقصة سبأ :

- كان الجنتين خال !
- أجل . أين العمران والخضرة أين !
- وجه الأرض يتغير كوجه الإنسان ..
- لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان .
- فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم . " تحت - ٩١ "

يستعين أحد المتحاورين الأخيرين بمطلع الآية الأولى :" لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان " ولا يكملها ، ويبدأ الثانى بدوره من مطلع الآية الثانية : " فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم " ولا يتمها أيضاً .

الآية الأولى تعبر عن واقع النعيم والنعمة ، والآية الثانية تكشف عن التبديل والتغيير بعد العقاب الالهى .

فى مطلعى الايتين ما يغنى اعتماداً على أن السامعين سيستكملون مـا بقـى منهمـا .
يتفق المتحاوران فى الايحاء الموجز دون الاستشهاد الكامل .

سورة يــــس

**** وضرب لنا مثلاً نسي خلقه قـال مـن يحيـى العظام وهي رميم ** (٧٨)**

يعاني سيد عارف من أزمـة جنسـية تمثـل موضوعـاً لفكاهـة لا تنقطـع ومداعبـات متعددة في " خان الليلي " . وفي إحدى المناقشات حـول " حالـة " سـيد مقارنـة بـ " حالة " عباس شفة ، الزوج " الرسمي " لمعشوقة الأزواج ! ، يقول سيد بإيمان :

- سبحـان مـن يحيي العظـام وهـي رميـم ، وغـدا تـرد الأقـراص كيـد الحاسدين إلى نحرهم !. " خان - ٨٠ "

الآية عن بعث الموتى ، وحديث سيد عارف عن استعادة قـواة الجنسـية !. المفارقـة واضحة، والحوار يدور في شهر رمضان !. ما يقصده سيد أنه لا حدود لقـدرة الله ولا شيء عليه ببعيد ، والوسيلة التي يتذرع بها - مجرد وسيلة - هي الأقراص !.

ولقد تدخل سليمان بك عتة ناهياً عن الإلمام بمثـل ذاك الهـذر فـي رمضـان ، ولكـن غضبه ليس نابعاً من التدين بقدر ما هو مبرر بملله وضيقه من الموضوع المعاد !.

**** إنما أمـره إذا أراد شيئاً أن يقـول لـه كـن فيكون ** (٨٢)**

انظر : سورة البقرة ، الآية ١١٧

سورة الزمـــر

** الله نـزل أحسـن الحديـث كتابـاً متشـابهاً مثانى تقشعر منه جلـود الذيـن يخشـون ربهـم ثـم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكـر الله ذلـك هـدى ا لله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له مـن هادٍ ** (٢٣)

فى اعقاب محاولة سعيد مهران الفاشلة لقتل زوجتـه الخائنـه نبوية وصديقـه القديـم الخائن عليش ، لا يجد من ملجأ يأوى إليـه إلا مسـكن الشيخ علـى الجنيـدى . سعيد غارق في تداعيات جريمته التـى يظنهـا ناجحـة ناجعـة ، والشيخ غـارق فـى التـلاوة والتسبيح : وكنت تظن انك ستموت نوماً بمجرد ان يلمس جلدك الأرض ! تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله " " اللص – ٨٣ "

الخوف الحقيقي ينبغي أن يكون من الله ، والذكـر الحقيقـى لله وحـده أيضـاً . فـى الآية ضالون ومهتدون ، فإلى أى الطائفتين ينتمى سعيد ؟!. فى سـلوكه مـا ينبـىء عـن الضلال ، وفى أعماق روحه ما يبشر بالخير ، وفى إيحاءات الشيخ التى لا تتوقف دعـوة مخلصـة للهدى والاستقرار . ولكـن مأسـاة سـعيد انـه منصـرف عـن الصـوت الالهـى ومستغرق فى نداءات الماضى التى تطارده وتفسد عليه حياته . تعبـه العبثـى لا يفضـى إلى النوم كما يتوهم ، وملمـس " جلـده " لـلأرض لا يمثل نهايـة المطـاف وصـولاً إلى الراحة الحقيقية التى تتطلب " جلوداً " تقشعر من خشية الله وتتوق إلى ذكره .

سورة غـافـــر

** هو الحي لا إله إلا هـو فـادعوه مخلصين لـه الدين الحمد لله رب العالمين ** (٦٥)

انظر : سورة الفاتحة .

** هو الذى يحيـى ويميـت فـإذا قضـى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ** (٦٨)

انظر : سورة البقرة ، الآية ١١٧

سورة الشورى

**** فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ** (١١)**

ليس كمثله شيء : الله .

كل ما عدا الله قابل للتكرار والتشابه والتغيير والانقلاب ، ولكن البشر بمحدوديتهم وقصر نظرهم يعتقدون أحياناً أنهم يتعاملون مع نساء ولحظات وأشياء بلا شبيه أو نظير.

تقول أم رباب عن ابنتها إنها ليست كفتيات اليوم ، ويفكر كامل بعد مقولتها : هذا حق، حبيبتي ليس كمثلها شيء ، هي الحياة والذكاء والجمال . " السراب – ٢٠٨ " تنزه الأم ابنتها – وفي قولها مبالغة مقبولة – أن تكون كبنات جيلها ، ويأبى كامل – العاشق المفتون – إلا أن يرتفع بها إلى آفاق أسمى تعز فيها عن المشابهة والمماثلة !.

أما بركات في قصة " قبيل الرحيل " فيتحقق وينتشي في علاقته مع العاهرة المحترفة " دنيا " – وللاسم دلالته التي تتجاوز الإطار الذاتي الضيق – ويشعر معها بسعادة طاغيه تدفعه إلى الحديث عن الحب حتى يقول لها :

– ليس كمثله شيء . " بيت – ١١ "

سعادة طاغية ، والحب خالقها ؛ ولذلك فهو بلا شبيه وليس كمثله شيء !.

وبفعل المخدر يناجي أنيس زكي القمر المتألق في السماء ويقول له : ليس كعوامتنا شيء. " ثرثرة – ١٢٠ "

إنه لا يمدح العوامة ، ولكنه يعلن عن اختلافها وتميزها . فيها تتحول كل الأشياء إلى نقيض ظاهرها : الحب إلى رياضة، والعشق إلى حرية و .... إلخ .

ثلاثة مواقف يدعي فيها شخوص نجيب محفوظ ما ليس صحيحاً ، وفي المرات الثلاث تبرهن الأحداث في سريانها على عكس ما ذهبوا إليه .

رباب تموت متأثرة بعملية جراحية لإجهاض جنين تكون بمعرفة رجل غير زوجها ، وسعادة بركات تسفر بعد قليل عن خديعة كبرى تعرض لها بإحكام متقن ، والعوامة يتبخر تفردها ويتشتت شمل من فيها بعد عراك وصدام !.

نقاء رباب وسعادة بركات وتميز العوامة : لا شيء

الله وحده ليس كمثله شيء .

** وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح
فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ** (
٤٠)

" إنه لا يحب الظالمين " . بختام الآية يبدأ العجوز الحكيم محتشمي زايد تفكيره النقدي في قرارات السادات الشهيرة التي أصدروها في شهر سبتمبر سنة ١٩٨١ : " إنه لا يحب الظالمين ". ما هذا القرار أيها الرجل ؟!. تعلن ثورة في ١٥ مايو ثم تصفيها في ٥ سبتمبر؟. تزج في السجن بالمصريين جميعاً من مسلمين وأقباط ورجال أحزاب ورجال فكر ؟. لم يعد في ميدان الحرية إلا الانتهازيون فلك الرحمة يا مصر . " يوم - ٦٥ "

مطلع الآية التي يكتفي محتشمي بنهايتها يزيد الأمور وضوحاً ويلقي ضوءاً ساطعاً على تقييم الرجل لما فعله السادات . القاعدة القرآنية التي توضحها الآية وتدعو لها : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، والعفو مطلوب ومرغوب ، والمخالف للقاعدة ظالم يفتقد حب الله . السادات إذن – من وجهة نظر محتشمي – ظالم بقراراته العنيفة الانتقامية وفاقد لحب الله ورضاه ، ومصيره المأساوي بعد شهر واحد من من القرارات يبرهن على صواب رؤية محتشمي وبعد نظره وقدرته على الاقتباس القرآني المسعف المضيء .

** لله ملك السموات والأرض يخلق ما
يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لم يشاء
الذكور ** (٤٩)

انظر : سورة آل عمران ، الآية ١٨٩ .

سورة الزخـــرف

**** أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسـمنا بينهـم معيشتهم فـي الحيـاة الدنيـا ورفعنـا بعضهـم فـوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمـة ربك خير مما يجمعون ** (٣٢)**

تمثل فتونه شمس الدين امتـداداً لفتونـة أبيـه عاشـور النـاجي . كلاهمـا تقـي عـادل ، والعدل الذى يتمتع بنعيمه الفقراء والمحتاجون هو " الظلـم " الـذى يشـكو منـه الأغنيـاء والأعيان . شيخ الحارة محمود قطائف لسانهم والمعبر عنهم والمتكـيء علـى القـرآن بحثـاً عن مبرر يعزز حجة المعترضين على العدل الذي يظلمهم . يقول الرجل :

- إنهم يــرون أنهــم مظلومــون ، كما يرون أنك ورجالــك مظلــومون أيضاً . يقولون إن منزلة الفتــوة الحقيقية بيــن الأعيان ، وأن الأعيان فضلهــم اللــه درجات على الناس . " الحرفيش - ١١٧ "

شاءت الإرادة الإلهية أن ينقسم الناس إلى فقراء وأغنياء بينهم تفاوت فـي الدرجـات والأرزاق ، ولكن إرادة البشر - مدفوعة بالمصلحة - هـي التـي تشـاء أن تسـتغل الآيـة لتبرير " البلطجة " والحث عليها ، وإفساد " الفتونة " بمفهومها النبيل الجليل .

شمس الدين - وأبـوه مـن قبـل - لم يعـترض علـى " وجـود " الأقليـة الفنيـة وسـط الأغلبية الفقيرة ، ولكنه سعى إلى تحقيق درجة من التـوازن بـالأخذ مـن القـادر لإعطـاء المحتاج . فأى ظلم ؟!.

وكم من الآيات القرآنية يستعين بها أصحاب المصالح لإضفـاء شـرعية زائفـة علـى مطامع لا شرعية فيها !.

سورة الجاثيـــــــة

** ولله ملك الســموات والأرض ويـوم تقـوم
الساعة يومئذ يخسر المبطلون ** (٢٧)

انظر : سورة آل عمران ، الآية ١٨٩

سورة الفتـــح

** إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ** (١)

يغيب سعيد مهران عن الوجود من شدة الإعياء ويدخـل فـي حلـم متداخـل الصـور والأحداث ، ومن المنطقي أن تتشكل عناصر هذا الحلم المرهـق مـن الشـخوص المؤثرين والأحداث الفاعلة في حياته : نبوية وعليش ورءوف من علوان والشيخ علي الجنيدى . اللامعقول اللا مفهوم هو المسيطر على الحلـم ، وقبيـل النهايـة : ... قـرأ الشـيخ سـورة الفتح وعلقت المصابيح بجذع النخلة وهتف المنشد يا آل مصـر هنيئاً فالحسـين لكـم .. " اللص – ٨٥ "

لا مجال للحديث عن قوانين صارمة تحكم الأحلام ، ولا معنى للتساؤل عن المنطقيـة والمعقولية ، ولكن اللافت للنظر هو إدراك سعيد في حلمـه المليء بالتهـاويم أن الشـيخ الجنيدى يقرأ سورة " الفتح " تحديداً مع غياب الآيات في قراءة الشيخ .من أين لسـعيد إذن أن يعرف السورة ويسميها وهو الذى لا يحفظ القرآن ؟!. التفسير الوحيـد المقبـول أن الآية الأولى من السورة والتى تحمل مفردة الفتح : إنا فتحنـا لـك فتحـاً مبينـا ، هـى التى أوحت لسعيد – الحالم بأن القراءة من السورة .

** ليغفـر لك اللـه ما تقـدم مـن ذنبـك ومـا تـأخر ويتـم نعمتـه عليــك ويهديـك صراطـاً مستقيما ** (٢)

ليس في سلوك ياسين عبدالجواد ما ينبيء عن تدينه أو تمثله بالقرآن ، ولكنه يتأثر – على طريقته الخاصة – بكثير من الآيات في مناسـبات مختلفـة يجمعهـا أنـه لا علاقـة لهـا بالمعانى التى تعبر عنها المقتبسات والاستشهادات القرآنية !.

من ذلك أنه يحاور مريم ويغازلها على السطح ، وإذ تتساءل :

– أم تريد أن تجعل منى أحدوثة ؟

يفكر ياسين ساخراً : بعد الشر عنـك ! هـل راعيـت هـذا الحـذر فـى مواقفـك مـع جوليون فى الزمن القديم ؟ ، ولكن مهلاً ، إن جمال عينيك وعجـيزتك يغفـر مـا تقـدم وما تأخر من ذنبك ! . " قصر – ٦٨ "

تساؤل مريم يحمل درجة من الاستهانة بذكاء ياسين الذى يسخر من جارته ويتذكر تاريخها القديم الحافل مع الجندى الانجليزى " جوليون " قبل خمـس سـنوات مـن الحـوار

الدائر بينهما !.ولكنه سرعان ما يستدرك ويصفح ويسامح مستعيناً بمفردات الآية القرآنية .

المقارنة مستحيلة بين الرسول الذي تخاطبه الآية ومريم التي يحاورها ياسين ، وياسين نفسه لا يفكر في المقارنة والمشابهة . إنها مجرد تداعيات يصعب الوصول إلى مصدرها ومبررها .

** ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان اله غفورا رحيما ** (١٤)

انظر : سورة آل عمران ، الآية ١٨٩

** ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع اللـه ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليما ** (١٧)

انظر : سورة النور ، الآية ٦١

سورة الحجرات

** يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم
عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء
عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا
تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان
ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ** (١١)

يبدو أن محمد السناوى فى قصة " صباح الورد " كان بالغ القبح إلى الدرجة التى يوصف فيها بأنه " توأم قرد " !. ويواصل الراوى تجسيده لقبح الصديق : ورغم أن التربية الدينية تدين من يسخر من آخر لعاهة فيه أو دمامة بإعتباره على أى حال من صنع اله القدير إلا اننا خرقنا القاعدة واستسلمنا لإغراء السخرية من دمامته بافراط ملحوظ . " صباح - ٦٨ "

الوعي بالتعاليم الدينية ، التي تجسدها الآية القرآنية ،موجود لدى أصدقاء محمد ، ولكنهم " يخرقون " قاعدة الاحترام ويمارسون السخرية . قد يغيب النص الكامل للآية، وقد لا نجد مقتبساً واضحاً منها ، ولكن جوهرها يسيطر على ممارس السخرية وعلى الراوى الذي يستعيد الذكريات .

** يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن
إن بعد الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم
بعضا أيحب أحدكم أن ياكل لحم أخيه ميتا
فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم **
(١٢)

تأمر الآية باجتناب " كثير " من الظن وتؤكد أن " بعض " الظن اثم . ليس " كل " الظن مرفوضاً إذن ، وليس كل ظن إثماً . وفى حياة حافلة بالصراعات والأطماع والخيانات ، تبدو الظنون " ضرورة " يومية يمارسها الناس ويعتذرون عنها أو لا يعتذرون ، وتتحول ظنونهم وشكوكهم إلى حقائق أو أباطيل .

تتسع دائرة الظنون حتى تشمل علاقة الأم بابنها . ألم يعمل حسين فى طنطا ليساعد أسرته المنكوبة بالفقر ؟ . ألم يتعود على إرسال المساعدة فى مطلع كل شهر ؟. كيف

يُفسر امتناعه إذن ؟!. مثل هذه التساؤلات هي التي دفعت الأم إلى السفر من القاهرة إلى طنطا لتواجه ابنها بصراحة :

– أما وقد اطمأننت عليك فلا أظن أنه يخجلني أن أصارحك بأن منع نقودك عنا قد أخافني .. اعذرني يا بني إذا اعترفت لك بأنه ساورني بعضا الظن بأن يكون المرض مجرد اعتذار .

ويقاطعها حسين صائحاً وكأنه يستنكر ظنونها :

– أماه ..

ولكنها تواصل البوح بكل ما يعتمل في أعماقها من شكوك :

– معذرة يا بني إن بعض الظن اثم ، ولكني كنت أفكر طويلاً فيما يمكن أن يلقى شاب وحيد في بلد غريب ... " بداية – ١٧٢ "

لا تخجل الأم ولا تتجمل ، فلا بد عن المصارحة حتى تسير السفينة المثقلة بالأعباء . وإذا كان الظن جارحاً ومسيئاً ، فإن هلاك الأسرة أخطر وأفدح !.

تعترف الأم بأن بعض الظن ، وسرعان ما تستدرك : " ولكن " ، ذلك أن الظنون التي راودتها لم تكن من فراغ ، وأخطار الوحدة في بلد غريب ليست بالأخطار الوهمية !.

ولعل انتقال أسرة أحمد عاكف من حي " السكاكيني " إلى حي " خان الخليلي " كان عندهم بمثابة الهبوط والانحدار الطبقي ، ولعل هذا الشعور هو ما دفع أم أحمد إلى الظن بأنهم سيجاورون كائنات أدنى !. وسرعان ما تكتشف أن ظنونها لم تكن صائبة، فبعد زيارة ترحيب من نساء الجيران تقول لابنها بلهجة من ينبرى للدفاع :

– لسن من السفلة ولا من الغجر كما ظننت ، وبعض الظن اثم . " خان – ٦١ "

تبخرت الظنون بعد الاتصال المباشر ، وانقلبت أم احمد إلى الدفاع كأنها تعتذر عن سوء ظنها القديم !.

أم حسن تتراجع ولا تعتذر ، وأم أحمد تتراجع وتعتذر ، أما نزيل فندق " القاهرة " الذي يجاور صابر الرحيمي بعد جريمة القتل فلا يتراجع ولا يعتذر لأن السيقان لا يسمح بأكثر من الثرثرة وتبادل الإشاعات والتكهنات . الرجل سيء الظن بالنساء ومنهن كريمة أرملة القتيل والمستفيدة الوحيدة من قتله ، وهو يشير إلى ما سوف ترثه حتى يضطر صابر إلى مجاراته قائلاً:

– دار برأسي نفس الخاطر .

عندها يضحك الرجل قائلاً :

- بعض الظن " اثم " . " الطريق - ١٣٨ "

يـزرع الظنـون ويتحمس لهـا ويـورط الآخريـن ، ثـم يلجـأ إلى الآيـة كأنـه يتطهـر ويتنصل !.

وفي مسرحية الفصل الواحد : " النجاة " ، يعود الصديق بعد مغادرته شقه صديقه، والغيرة هي مبرر العودة غير المتوقعة . وهـو لا ينكـر أو يرتبـك مكتفياً بضحكـة عاليـة ونظرة إلى المرأة التي تؤكد خطأ ظنونه ، ويقول :

- بعض الظن اثم . " تحت - ١٨٨ "

يبرر شكوكه ويضفي عليها الشرعية والمصداقية دون تراجع أو اعتذار أو ندم !.

وتكتسب الآية في حوار أحمد عبدالجواد وأم مريـم مغـزى مختلفـاً مـرده إلى سـيطرة الرموز والدلالات الخفية فيما يتبادلان من حوار لا يوحـي ظـاهرة " الـبريء " بباطنـه " المريب " تقول المرأة اللعوب بلهجة تنم عن عتاب :

- لا أظن انك تعد رؤيتي فرصة طيبة !.

فوقعت لهجة العتاب من صدره موضع الرضى والسرور ، لكنه قال كالمحتج :

- صدق من قال إن بعض الظن إثم .

فهزت رأسها هزة كأنما تقول له " هيهات " أن يؤثر فيَّ مثل هـذا الكـلام ." بـين- ٣٢٣ "

لا يذكر أحمد عبدالجواد الله وهو يستشهد بالآية القرآنية ، وكأنه لا يعـرف - أولا يريد أن يعرف - أنها آية . والمرأة الشهوانية تتعامل مـع الآيـة كـ " كـلام " لا تعـرف صاحبه !.

حوار لا يسمح بالوعي ، ومناخ لا يتسع لآيات الله !.

سورة النجـــم

** عنـــد ســـدرة المنتهـــى . عنـــدها جنـــة المأوى ** (١٤-١٥)

يمكن التعامل مع " حضرة المحترم " كرواية تمثل طموح موظـف مجتهـد فـى الصعـود والترقي إلى قمـة السـلم الوظيفـى المتـاح لأبنـاء الشـعب ، ولكـن الروايـة مـن ناحيـــة أخـــرى قد تمثل المسعى الإنسانى الدءوب إلى الإرتقاء والتقدم الجدير بخليفـة الله علـى الأرض . الدلائل كثيرة على رمزية العمل بما يتجاوز سطحه وظاهــره ، ومن ذلك مـا يصف به عثمان بيومى درجة المدير العام التى تمثل منتهى طموحه وأمله : هنـاك طريـق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهي متألقة عند صاحب السعادة المدير العـــام . هـذا هو المثل الأعلـى المتـاح لأبنـاء الشـعب ولا مطمـع لهـم وراء ذلـك . تلـك هـى سـدرة المنتـــهى حيث تتجلى الرحمة الإلهية والكبرياء البشرى " . " حضرة – ١٠ "

سدرة المنتهى هى التى ينتهى إليها – بالتفسير الدينـى – علـم الخلائـق أو اعمـالهم ، ودرجة المدير العام التى يقف عندهـا طمـوح العـاديين مـن أبنـاء الشـعب . لـو كـانت الدرجة وحدها هى الهدف الظاهر والباطن ما أسبغ عليهـا نجيـب محفـوظ بلغتـه – مـن خلال عثمان – تلك الصفة القدسـية والهالـة الإلهيـة . ألا توحـى اللغـة بأنـه يفكـر فـى الدرجة كرمز ومـرادف لدرجـة أخـرى فـى المسـار الإنسـانى العـام وليـس فـى المسـار الوظيفي المحدود ؟!.

وإذا كان عثمان بيومى يرى في درجة " المدير العام " سـدرة المنتهـى ، فـإن آخريـن يرون فى بعض المظاهر الدنيوية البسيطة ما يشبه " جنة المأوى " !.

فى قصة " الخندق " حياة مرهقة بلا بهجة ، خالية من المتعة والمعنى ، فمن المنطقـــى أن تمثل القهوة – حيث الاجتمـاع مـع الأصدقـاء وتبـادل الشـكوى – جنـة المـأوى . " التنظيم – ١٦٨ "

وفى قصة " نصف يوم " تبدو ذكريـات الطفولـة المنصرمـة حلمـاً مفقـوداً تسـتحيل العودة إليه : ولا عـودة إلى جنـة المـأوى أبـداً . "الفجـر – ٣٤ " لا جنـة حقيقيـة فـى القهوة والطفولة ، ولكنها نسبية الطموح الإنسانى والسعادة البشرية !.

** ألا تزر وازرة وزر أخرى ** (٣٨)

انظر : سورة الأنعام ، الآية ١٦٤

سورة القمـــر

** اقتربت الساعة وانشق القمر **   (١)

لعبدون اللاله حكاية لا تنسى فى " حكاياتحارتنا " . شاب نشيط حليم مهذب ، كأنه لتفرد سلوكه لا ينتمى إلى الحارة الصاخبة الزاعقة الشائمة . ثم يحدث الانقلاب المفاجىء :

وذات يوم يظهر فى الحارة بجلباب ابيض كالحليب وطاقية مزركشة ومركوب أحمر، كلما التقى بصاحب عانقه أو بذى مقام قبل يده ، وقد أضرب عن العمل ، ولم ينطق فى ذلك اليوم إلا بجملة واحدة . قال :

- اقتربت الساعة . " حكايات - ١٦٣ "

ليست جملة عادية ، ولكنها نصف الآية الأولى من سورة " القمر " : اقتربت الساعه وانشق القمر .

بعد تصرفاته الغريبة غير المعهودة ، واستشهاده القرآنى غير المفهوم ، يأتى الانتحار!.

ما الذ حدث لعبدون ودفعه إلى ما فعل ؟!. ما دلالة المقتبس القرآنى وما الذى يعنيه بالساعة التى اقتربت ؟!. هل أصابه بجنون ؟ ، أم انفتحت أمامه سبل الرؤيا ؟!. .. هل ... وهل ؟!.

فى الحكاية غموض ، وفى تفسير الغموض مشقة . وربما كانت عبارة الراوى التى يختتم بها الحكاية هى أفضل " لا تفسير " لما حدث : أن أعرف لماذا احيا أسهل كثيرا من أن اعرف لماذا عبدون انتحر . " نفسه - ١٦٣ "

سورة الرحمن

تحظى سورة " الرحمن " بمكانة بالغة الأهمية في عـالم نجيب محفوظ ، وبخاصة في روايته " ميرامار " حيث تشكل السورة جزءاً نابضاً من شخصية الصحفي العجوز المتقاعد عامر وجدى . ولا يقتصر الأمر عند نجيب على آيات بعينها من السورة ، ولكنا نجد أيضاً إشارة عامة إليها في أحلام وكوابيس عمر الحمزاوى بعد فراره من الدنيا واعتزاله لمراودة اليقين ومقاومة الفراغ في " الشحاذ " : وعانقك مصطفى بحرارة ومرح ثم نظر في عينيك نظرة حادة وحزينة . ورأيت مكان صلعته شعراً أسوداً غزيراً مسترسلاً إلى الوراء فلم تملك إلا أن تشير إليه قائلاً :

- مبارك عليك شعرك ، ولكن ماذا فعلت ؟

فقال بجدية غير معهودة فيه :

- تلوت سورة الرحمن عند السحر .

فسألته بدهشه :

- ومتي عرفت الطريق إلى الرحمن ؟

- منذ اعتزلت أنت العالم في هذا المكان . " الشحاذ - ١٥٦ "

منطق - لا منطق الحلم هو قانون التشكيل ، ولكن اختيار مصطفى ، وفي جدية غير معهودة فيه ، لسورة الرحمن ، والتداخل المقصود من عمر بين " سورة الرحمن " و " الرحمن- الله " ، مما يمثل مفتاحاً مهماً من أجل إدراك خصوصية السورة عند نجيب محفوظ . وقد يمثل أيضاً مدخلاً للوعي بتطور التأثير الذى تمارسه السورة والذى يصل إلى ذروته في" ميرامار " المنشورة بعد " الشحاذ " بعامين . باعتزال عمر يعرف مصطفى طريقه إلى " الرحمن " ، وباعتزال عامر وجدى ينفرد بالسورة وتنفرد به . ومنهما معاً - السورة الشخصية الروائية - يتكون الإطار السحرى لرواية " ميرامار " ، مكاناً وشخوصاً ورؤية وإيقاعاً وبحثاً عن المعنى واليقين .

** الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها

للأنـام . فيهـا فاكهـة والنخـل ذات الأكمـام .
والحب ذو العصف والريحان . فبـأى آلاء ربكمـا
تكذبان ** (١-١٣)

يعتزل عامر وجـدى عملـه الصحفـي ويعـود إلى الإسـكندرية معتكفـاً فـي بنسـيون "ميرامار ". وعند انفراده بنفسه في حجرته ، التى يسبح جوهـا فـي مغيـب دائـم لأنهـا تطل على منور كبير ، يبدأ التلاوة :

" الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيـان . الشـمس والقمـر بحسـبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان " .

ليست قراءة فحسب ، ولكنهـا قـراءة مصحوبـة بتعليـق يكشـف عـن مـدى علاقـة الشخصية بالسورة : ومضيت اقرأ سورة الرحمن الحبيبة إلى قلبى مذ كنت فى الأزهـر . كنت غائصاً في مقعد كبير طارحاً قدمي على وسادة . هطل المطر بغزارة فارتفع رنينـه فوق درجات السلم المعدني في المنور " ميرامار- ٢٧ "

علاقة تاريخية تعود إلى عهد الدراسة فـي الأزهـر الـذى طـرد منـه متهمـاً بالشـك والإلحاد ، وجزيئات المشهد تتوافـق مـع ايقـاع السـورة وهطـول المطـر والمغيـب الدائـم والجلسة المسترخية والحيرة القديمة المتجددة . ليسـت قـراءة للسـورة فحسـب ، ولكنهـا أيضاً قراءة للذات وبحث عن المعنى المراوغ .

وقفت قراءة عامر عند نهاية الآية السابعة ، ويعود ليواصل بدءاً مـن الآيـة السادسـة والعشرين : كل مـن عليهـا فـان . ويبقـى وجـه ربـك ذو الجـلال والاكـرام . " نفسـه - ٢٧ "

قطع جديد لمؤثرات خارجية تمثلها أصوات صـادرة مـن صالـة البنسـيون ، وبسـببها يرفع عامر رأسه عن الكتاب وينصت ويفكر في " الخـارج " منصرفـاً عـن " الداخـل " المشترك بينهما هو الإطار الطبيعي حيث المطر والغيوم وظلمة كـالليل فـى وقـت العصـر وبرق خاطف ورعد يهز ويزمجر . من مزيـج الداخـل والخـارج يعـود عـامر إلى سـورته الأثيرة بادئاً بالآية الثالثة والثلاثين : يا معشر الجن والانـس إن استطعتم أن تنفـذوا مـن أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان . " نفسه - ٢٧ "

عامر هو النزيل الأول في البنسيون ، وبعده يتتابع النزلاء وتتوالى الأحـداث وتتعقـد الأمور حتى تصل إلى نهايتها : ينتحر الناصري الانتهازى سرحان البحـيرى ، وينكسـر الشيوعى الهش منصـور بـاهى ، ويستمر طلبـة مـرزوق وحسـنى عـلام ومـدام ماريانـا اليونانية صاحبة البنسيون واقفين في اللامكـان ، وتنفـرد زهـرة بالحـيرة مغلقـة بضبـاب

المستقبل وإرادة التحدى وأزمة المأساة الدامية . ويهمس عامر - الماضى - فى إذن زهرة - المستقبل - وكأنه يقدم لها عصير التجربة وخلاصة الحكمة :

- ثقى من أن وقتك لم يضع سدى ، فإن من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود ..

وبعدها يضع عامر نهاية قرآنية للرواية متشبثاً بالآيات التى بدأ بها :

وكعادتى لدى جيشان الصدر هرعت إلى سورة الرحمن فرحت أتلو : الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزن . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنام . فيهافاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . " نفسه - ٢٧٩ "

تغلق الدائرة بنهاية كالبداية ، ويواصل عامر توحده مع السورة باحثاً - فيما بعد النهاية - عن المعنى والسر .

** كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ** (٢٦-٢٨)

عند الموت تطل الآية مجسدة الحقيقة المؤكدة التى يعرفها البشر حتى المعرفة ويندر اتعاظهم بها : كل من عليها فان .

الله وحده هو الباقى ، والبشر فانون ، والموت حتمى لا مهرب منه ولا نجاة .

للشيخ لبيب قداسته فى " حكايات حارتنا " ، وسريان الزمن يهز القداسة ويضيّع الهيبة ويقتر فى الرزق . مع نهاية الحكاية رقم " ٦٥ " يصل الشيخ لبيب إلى نهاية تؤكد موت الأشياء والقيم والأفكار مثلما يموت البشر : وأخيراً يسلم للزمن ، يتسول ، يمضى هاتفاً ماداً يده " كل من عليها فان " . " حكايات - ١٥٨ "

الفناء للكل : البشر وقيمهم ومعتقداتهم معاً ، وما أكثر الأحياء الموتى !.

ويقف حمزة السويفى على حافة الموت بعد أن أدى رسالته فى الحياة كما يتصورها، ويعترف لزائره عثمان بيومى بأنه على وعى كامل بقانون الفناء ومستسلم له :

- نحن نمضى واحداً فى أثر واحد ، هل تذكر المرحوم سعفان بسيونى؟، كل من عليها فان ، ولكن العمل الطيب يبقى إلى الأبد . " حضرة - ١٣٦ "

يتبخر عالم الشيخ لبيب وإن بقي حياً ، ويستسلم حمزة لحتمية الفناء قبل الموت الرسمي ، ولا تتوقف قافلة الموت عن المسير إلى القرافة حيث يُدفن الأموات ويُتركون لمصيرهم . وأثناء إحدى هذه الجنازات يقول درويش لعاشور الناجي :

- كل من عليها فان ." الحرافيش - ١٤ "

ليس في شخصية " درويش " الشرير " ما يوحي باحترام المعنى الذي يردده ، فهو لا يستهدف العظة أو العبرة أو الإيمان بالقانون قدر اهتمامه بالإشارة إلى معنى يخفى على عاشور " البريء " حتى يعرف تفاصيل المؤذية فيما بعد !. إنه الاستخدام " الاجتماعي " الذي يقصد أن الموت كنهاية حتمية يبرر كل الشرور والتجاوزات وليس العكس !.

على النقيض تماماً يكتسب تمثل عامر وجدي بالآية نفسها مغزى إيمانياً عميقاً ينهي به الفصل الأول المخصص له في " ميرامار " قبل أن ينهي الفصل الأخير والرواية كلها. يموت سرحان ، وتنهار زهرة ، ويغمض العجوز عينيه ويتردد في خاطره : كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان . " ميرامار - ٨٣ "

لن يكون سرحان آخر الفانين وهو ليس أولهم ، والحائرون تجاه موته الفجائي غير المتوقع سيدركهم المصير نفسه ، والفصل الروائي " ينتهي " هو الآخر بالآيات التي يرددها عامر في خاطره مغمض العينين مستسلماً لفكرة النهاية ومسلماً بها !.

الآيات من الوضوح بحيث لا يخفى معناها على أحد ، ولكن أهل التصوف يحلقون ويفسرون بما يوافق مراتبهم . والشيخ العارف بالله عبدالله البلخي واحد منهم . كلماته مضيئة واقتحامه لما بعد المعاني الظاهرة والنتائج مترتبة على الحقائق والمقدمات : كل ما عليها فان إلا وجهه ، ومن يفرح بالفاني فسوف ينتابه الحزن عندما يزول ما يفرحه ، كل شيء عبث سوى عبادته ، الحزن والدهشة في العالم كله ناجم عن النظر إلى كل ما سوى الله . " ليالي - ١٩٧ "

ليست المسألة أن يسلم البشر بالفناء ، فهم في الحقيقة لا يملكون إلا التسليم ، ولكنها فيما يترتب على التسليم بالحقيقة المؤكدة من استسلام كامل لله وفناء فيه . إذا عزت الحقائق إلاه ، فلا مناص من التعالي والسمو وتجاوز الزائل المؤقت ومراودة الحب الصافي المضيء والطموح إلى تمام الفرح وكمال الوصال .

من شفافية التصرف التي يجسدها الشيخ البلخي إلى الروح الشعبية عند البواب عمارة الجعفري . به تبدأ وتنتهي قصة " أمشير " المليئة بعواصف المتغيرات وزوابع الفناء

. تبدأ القصة بالقصر الجميل الأبيض الناصع ، وتنتهي بالقصر نفسه وقد حل به الخراب وخيمت عليه أشباح الموت . ويتساءل البواب البسيط : من نحن حتى نفهم ما يدور حولنا ؟ ، ولكنا نقول مع القائلين " ولا يبقى إلا وجه ربك ذى الجلال " . " الشيطان - ٩٥ "

لا يردد الرجل نصاً قرآنياً حرفياً حتى تنبه إلى ما فيه من خطأ ، ولكنه يقول مع القائلين . هؤلاء يلجأون إلى " معنى " الآية دون نصها ، وعندما يلجأون إليه يقف البواب ليقتفى أثرهم ويختتم القصة بمأثور شعبى مأخوذ من الآية معنى لا نصاً .

**** يا معشر الجن والانس إن إستطعتم ان تنفذوا فانفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ** (٣٣)**

انظر : سورة الرحمن ، الآيات ١-١٣ .

سورة الواقعة

** إذا وقعت الواقعة ** (١)

المراد بالواقعة فى الاية الكريمة : القيامة ؛ لتحقق وقوعها .

و " الواقعة " في عالم نجيب محفوظ لا تتخذ معنى القيامة القرآني بطبيعة الحال ، ولكنها تجسد موقفاً حاسماً ومهماً قد يكون ثورة وانتفاضة ، أو هزيمة ، أو صدمة ، أو انهياراً ، أو اكتشافاً.

ثورة ١٩١٩ هى الواقعة الوطنية التى تتوافق مع مشاعر الغضب والاستياء التى سيطرت على الجميع بعد نفى سعد زغلول ، وفهمى أحمد عبدالجواد واحد من الذين كانوا على ميعاد معها : كان لابد من انفجار ينفس عن صدور الوطن وصدره كالزلزال الذى ينفس عن أبخرة الأرض المتجمعة ، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى بنفسه في خصمها . " بين - ٣٣٩ "

نفى سعد زغلول هو الذى فجر " الواقعة " - ثورة ١٩١٩ - واكتشاف أمر فتح الباب وسرقاته الخيرية التى يستعين بها على مساعدة الفقراء هو الذى يفجر ثورة مماثلة عن الحرافيش: ووقعت الواقعة . وسبقت الهمسات فى أعماق الحرافيش فتحولت إلى قوة مدمرة. " الحرافيش - ٥٠٥ " الثورة كامنة فى النفوس قبل نفى سعد وضبط فتح الباب ، ولكن المفجر المباشر : " النفى والضبط " هل الذى أشعل الثورة - القيامة .

على النقيض تماماً ، تمثل هزيمة ١٩٦٧ " واقعة " من نوع مختلف بالنسبة لزينب دياب والملايين من المصريين : ومثل الناس جميعاً وثقت بقوتنا إلى غير حد وقلت لنفسى إن كل شيء بخيره وشره سيخلد إلى الأبد ، فلما وقعت الواقعة ... " الكرنك - ٩٠ "

ثمة تغيير جذرى عنيف بعد الواقعة : قد يكون سعياً للأفضل كما فى ثورة ١٩١٩ وانتفاضة الحرافيش ، وقد يكون للأسوأ كما حدث فى المجتمع المصرى بكافة طوائفه بعد هزيمة ١٩٦٧ .

وفى الحلم الكابوس الذى تجسده قصة " سائق القطار " تقع " واقعة " مدمرة تتمثل في اصطدام القطارين : وإذا بالواقعة تقع . وقعت الصدمة المتوقعة كأنها ارتطام كونى. " بيت - ١٦٣ "

هى كارثة على نحو ما . قد يكون فى إطار كابوس لا علاقة له بالواقع ، ولكنها وثيقة الصلة بمقدمات هزيمة ١٩٦٧ !.

وإذا كانت النماذج السابقة جميعاً تعبر عن " واقعة جماعية " لا تلتصق بفرد واحد أو تعبر عن مأزق ذاتي ، فإننا نجد نموذجين مختلفين في سياق مختلف .

النموذج الأول عندما تكتشف الست عيون خطيئة ابنها عزت مع سيدة ابنة تابعتها، وفي تمهيدها وهي تتهيأ لمصارحة ابنها يحس عزت بنذر الكارثة فى كلماتها ويحاول الانشغال والهروب " آه . لقد وقعت الواقعة . وعليه أن يتظاهر بمواصلة القراءة . " عصر – ٦٤ "

" الواقعة " هنا ذاتية تماماً ، وهي كافية لزلزلة عزت وتغيير حياته رأساً على عقب .

النموذج الثاني في قصة تيزة أم عزيز حيث يسقط عزيز فريسة للقمار وصولاً إلى المصير المحتوم : حتى وقعت الواقعة وتقوض البناء . " القراءة – ٥٥ "

المراد بالواقعة في الآية القرآنية : القيامة ، والمراد بالواقعة في الممارسة الاجتماعية اليومية- كما يعبر عنها أدب نجيب محفوظ – ذلك الحدث الجلل ، موضوعياً أو ذاتياً ، الذى يهز ويغير ويبدل المصائر . وهي قيامه صغرى محدودة في حدود كافة البشر واستطاعتهم .

سورة الحديد

** ولله ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ** (٢)

بفعل طاقية الإخفاء ينقلب فاضل صنعان إلى إنسان جديد مختلف ، يماري من العبث والشرور ويسبب من الأذى والضرر ما يفوق طاقة البشر . ويستمر إنهياره وترديه حتى يفيق ويقرر إزالة العكارات ومواجهة مصيره بشجاعة تنم عن رغبته الصادقة المخلصة في التوبة والتكفير . في طريقة نحو دار الحاكم للاعتراف بالجرائم الغامضة المجهولة التى أدين بها الأبرياء : مر به المجنون وهو يردد " لا إله إلا الله ، له الملك ، يحي ويميت ، وهو على كل شيء قدير " فتمادي في النشوة والاقتحام . " ليالى - ٢٢٥ "

تمثل كلمت المجنون - العاقل زاداً روحياً يتزود به فاضل في طريقه الشاق النبيل للاعتراف والتحرر ، وليست هذه الكلمات المضيئة الكاشفة الآية الثانية من سورة " الحديد " مع بعض التعديل والإضافة المبررة بأن المجنون لا يقصد الاستشهاد بنص الآية .

في الآية : " له ملك السموات والأرض " ، وعند المجنون : " له الملك " في الآية : " يحيي ويميت " ، وعند المجنون : " يحيى ويميت " مع إضافة شارحة : وهو حى لا يموت .

في الآية : " وهو على كل شيء قدير " ، وعند المجنون : " وهو على كل شيء قدير " بلا تغيير .

ليس المجنون مجنوناً ، ولكنه سيد العقلاء . والآية التى يرددها تكشف عن الخطيئة الكبرى لفاضل وشيطانه الذى أوعز إليه بالشر : منازعة الله في ملكه وقدرته . أفعال طاقية الإخفاء تمثل طموحاً شريراً لمحاذاة القدرة الالهية ، وبقدر خطورة الجرم تكون قسوة العقاب ، وبقدر الرغبة المخلصة في التفكير والتوبة يكون العفو الإلهى والغفران والصفح .

ليس المجنون مجنوناً ، ولكنه مرشد روحى يمنح النشوة ويشجع على اقتحام بوابة التوبة الواسعة .

سورة الملك

** تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ** (١)

فى قصة " زيارة " تشكو عيون ويطمئنها الشيخ طه ، المقرىء الضرير ، وقبل انصرافه يتلو : تبارك الذى بيده الملك .. " خمارة – ١٧٤ "

وفى الحكاية رقم " ٢١ " من " حكايات حارتنا " يتسم إبراهيم توفيق بالسخرية والهزل ، ويعرف بين أقرانه ومدرسية بالاهمال والشقاوة . وفي حصة الدين يبادره الشيخ وكأنه يعاقبه :

– إبراهيم توفيق ، سمع تبارك الذى . " حكايات – ٤٦ "

لا تكتمل الآية فى النصين ، ولا يكتسب مطلعها المذكور المكتفى به مغزى يتجاوز ممارسة الشيخين لمهنتي القراءة والتدريس . وهو ما يمكن أن تقوم به أى وكل آية أخرى !.

** ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ** (٤)

تغيرت شخصية مأمون رضوان بعد انتقاله من طنطا إلى الجامعة فى القاهرة ، وصار أوسع صدراً وأرحب فهماً وأكثر صبراً : إلا إذا حقد واتقدت عيناه وعرته تلك اللحظة الرهيبة ، فهناك يرتد عنه البصر وهو حسير " . " القاهرة – ١٤ "

ليس هذا التشبيه المستمد من الآية القرآنية إلا بمثابة الامتداد لولع نجيب محفوظ فى إنتاجه المبكر باحتذاء الأسلوب القرآنى .

سورة الحـــاقة

** فيومئذ وقعت الواقعة ** (١٥)

انظر : سورة الواقعة ، الآية ١ .

** يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية **

(١٨)

في يوم القيامة عراء ووضـوح وتجـرد كـامل ، وفـي بعـض المواقـف الدنيويـة يلجـأ شخوص نجيب محفوظ إلى الإستعانة بمفردات الآية مع توظيفها في سياق مختلف ينم عن الإدراك البشري والقدرة على اكتشاف ما قد يُظن مجهولاً خافياً.

في قصة " روض الفرج " يختلس عبد المعز نظـرات مـن وجـه الغانيـة نـور الحيـاة ، الوجه الممتلىء الجميل المثير للمراهق المندفع : وكانت المرأة بعينـين نصـف مفتوحـتين لا تخفي عليها خافية . " همس - ١٢٢ "

الوصف هنا مصدره الراوي الذي يجسد بعبارته مـدى إدراك المـرأة اللعـوب لطبيعـة النظرات الجائعة من الشاب العاشق ، وبلغـة العيـون أيضـاً تفصـح أم مريـم عـن وعيهـا بنظرات ياسين النهمة إلى أردافها : وعند ذاك التقت عيناهـــا ، فـرأى فـي عينيهـا نظـرة باسمة ماكرة أشعرته بأنه لم تخف عنها خافية ، وكأنها تقول له بأفصح لسان " رأيتك!" " قصر - ١٤٠ "

لا تتكلم أم مريم بلسانها ، ولكن الراوي يتدخل لشرح ويوضـح مـا تقولـه عيناهـا نتيجة خبرتها في التهتك والعشق !.

وكامل رؤبه لاظ - الراوي أيضاً - يلجأ إلى التعبير القرآني نفسه وهو يزور السيدة زينب مثقلاً بالذنوب والخطايا ومسكوناً بالخجل والارتباك : كيف ألقى أم هاشم بهـذا القلب الخائن وهي التي لا تخفى عليها خافية ؟. " السراب - ١٢٦ "

ليست أم هاشم عند كامل ساكنة ضريح ، ولكنها أكثر حياة من ملايـين الأحيـاء . وهو يوقن - بحكم تنشئته - أنها ترى وتعرف ما في النفوس والأعماق !.

اما الراوي في قصة " الهمس " فيتحدث عن قوة جبارة تمزج في رمزيتهـا بـين الأب والقدر ، ويقول عنه :

- لا تخف عنه خافية .

وترد صديقته كأنها تفسر ما يتوهمه فيه من قوة غير حقيقية :

- انت ضعيف فيتجلى الكذب في عينيك !. " الفجر - ٤٦ "

الضعف حالب القوة ، وارتباك الكاذب يكشف عن المستور ، والأمـر لا يحتـاج إلى قدرة خارقة !.

لا أحد يتحدث عن نفسه ويزعم أنه لا تخفى عليه خافية ، فهذا الوصف يأتي مـن " الآخر " دائماً . ذلك أن الادعاء يتجاوز حـدود البشـر ويتنـافى مـع قدراتهـم المقيـدة .
خالد صفوان – رجل المخابرات الرهيب – هو الوحيد الذى يشذ عن القاعدة فى قولـه لإسماعيل الشيخ :

– ولكننى أحب أن أذكرك بأننا قوة تملك كل شيء ولا تخفـى عنهـا خافيـة .
" الكرنك– ٦٣ " .

جهاز المخابرات هو تلك القوة التى يزعم خالد أنها تملك كل شيء ولا تخفى عنهـا خافية ، وسرعان ما تظهر حقيقة خالد وجهازه بعد الهزيمـة فـي يونيـو ١٩٦٧ ، والتـى راح خالد نفسه ضحية لها !.

سورة الجـــــن

** قل اوحـى الىّ انـــه استمـــع نـــفر مـن
الجن فقـــالوا إنـــا سمعنـــا قـــرآنا عجبـــا .
يهـدى إلى الرشـد فآمنـا بـه ولـن نشـرك بربنـا
أحدا **
(٢)

فى تمهيد الدراسة أشرنا إلى الجن كمصدر للرعب بالنسبة لعوام المسلمين مـن امثـال أمينة التى تحتمى بالقرآن ، وخاصة الصمدية والفاتحة ، لمقاومـة القـوى الخفيـة المزعجة المؤذية . كمال بالتبعية يحتذى خطوات وأفكار أمه ، ويستعين بـالقرآن مثلهـا فـى دفـع الجن والعفاريت والشياطين .

أى مأزق إذن عندما تكون " سورة الجن " هى موضوع الدرس الـذى تلقـاه كمـال فى المدرسة وعليه أن يذاكره مع امه ويقوم معها بدور المعلم ؟!. قرأ عليهم الشيخ ذلـك اليوم سورة " قل اوحى الى انه استمع نفر من الجن " وشرحها لهم ، فتركز فيه بوعيـه ، ورفع أصبعه اكثر من مرة سائلاً عما أغلق عليه ، ولما كان الأستاذ يعطف عليـه لإقبالـه على الاستمـاع لدرسه باهتمام بارز ، إلى حفظه للسور حفظاً جيداً ، فقد أوسع صـدره لأسئلته بحال يندر ان يحظى بها أحد التلاميذ ، وراح الشيخ يحدثه عن الجن وطوائفهم ، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة في النهاية أسوأ باخوانهم من البشر ، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها . " بين – ٤٦ "

وبالعودة إلى البيت ، ينفرد كمال بأمه في المساء وتبدا المذاكرة : وننظـر كمـال فـى الكتاب فيما يشبه الإدلال ثم قرأ : " بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنـا بـه ولـن نشـرك بربنـا أحدا ".حتى أتم السورة.

ليست السورة ككل السور ، ففي عيني الأم يلوح التردد والحيرة : إذ كانت تحـذره من التفوه باسمي العفريت والجن درءاً لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض إشفاقاً ومبالغة فى الحيطة ، فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلـو أحـد الاسمين الخطيرين فى سوة شريفه ، بل لم تدور كيف تحول بينه وبين حفظها أو مـاذا تفعـل لـو دعاها كالمعتاد إلى حفظها معه .

وقرأ الغلام في وجهها هذه الحيرة فداخله سرور ماكر ، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطاً على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعاً ان تفصح أخيراً عـن إشـفاقها فـى

لون من ألوان الاعتذار ، ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال :

– ها أنت ترين أن من الجن من استمع إلى القرآن وآمن به ، فلعل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين وإلا ما أبقوا علينا طوال هذا العمر .

فقالت المرأة فى شىء من الضيق :

– لعلهم ... ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم ، فيحسن بنا أن ألا نردد أسمائهم !

– لا خوف من ترديد الاسم ... هكذا قال مدرسنا .

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت .

– المدرس لا يعرف كل شىء !

– وإن كان الاسم ضمن آية شريفة !

وشعرت حيال تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بداً من أن تقول :

– كلام ربنا بركة كله . " نفسه – ٦٣ ، ٦٤ "

المأزق والحيرة والارتباك من نصيب الأم دون ابنها . بالقرآن الكريم تحتمى ، وعلمت ابنها أن يحتمى ، من الجن ؛ فكيف إذن عندما يتعلق الأمر بسورة الجن فى القرآن ؟!. المفردة ممنوعة في الحديث اليومى ، ولا سبيل للانتفاع عنها وهي واردة في القرآن نفسه . والمشكلة أن الحفظ مطلوب ، وهو ما يستدعى ذكر اللفظ المخيف وإعادته وترداده !. لا تملك أمينة أن تشحن على الحفظ ولا تقوى على منعه .

يستغل كمال حيرة أمه بالمكر المأثور عن الأطفال ، ويسهب في الشرح وإعادة ما يقل له فى المدرسة وصولاً إلى " تطبيق " ما سمعه على قوانين وتقاليد البيت . لا تستسلم أمينة بسهولة ولا تقرب " طيبة " ساكنى بيتها من الجن ، فلعل بينهم غير المسلم من المولعين بالأذى وإلحاق الضرر . وعند حد معين لا تبالى بما يقوله المدرس ، فتنتفى عند صفة أعلم بكل شىء . ولكن : إذا كان المدرس لا يعلم كل شىء ولا يحتكر الصواب ، أفلا يمثل القرآن نفسه ضماناً وأماناً ؟!.

مواجهة صعبة واختبار شاق يتعرض له الدين الشعبى المختلط بالأساطير والخرافات، وعجز عن التخلص من المأزق والظفر بالراحة والوصول إلى اليقين !.

سورة الإنســان

** هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ** (١)

** يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما ** (٣١)

من النافذة يتطلع احمد عاكف إلى حيه الجديد " خان الخليلى " ، ويجذب انتباهه قدوم جماعات من " مشايخ " المعاهد الأولية الغلمان يسيرون زرافات نحو معاهدهم : وأنصت إليهم مستلذاً وهم يرتلون معاً " هل أتى علىالإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا " وجعل رأسه يروح معهم ويجيء حتى ختموها " يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما " فذكر لتوه أحمد راشد المحامى فهو من الذين أعد لهم العذاب الأليم !.... وإنه به لحقيق!. " الخان - ٦٠ "

التلاوة الجماعية تبدأ بالآية الأولى من سورة " الإنسان " وتنتهى بالآية الأخيرة من السورة نفسها ، وأحمد راشد هو " المرشح " الأول للعذاب الأليم من منظور أحمد عاكف على الرغم من أنه ليس الكافر الوحيد بطبيعة الحال !.

عوامل عديدة ترشح المحامى لعذاب أحمد عاكف ، وليس لعذاب الله الذى يقع فى علم الغيب ولا يملك أحد ان يجزم به : المؤهل الجامعى الذي يحمل فى مقابل البكالوريا التى لا يحمال عاكف سواها مؤهلاً ، الثقافة الغربية الحديثة التى يتميز بها فى مقابل الثقافة العربية المختلطة المشوشة التى يعتــز بهـــا عاكف ويفخر ، وظيفته المحترمة فى المحاماه والمستقبل الواعد الذ ينتظره فى مقابــل وظيفتـــة متواضعـــة منسيـــة لأحمد ومستقبل لا يحمل أملاً ولا يبشر بتغيير جوهرى ، ثم يأتى إلحاد أحمد راشد الذى يشاركه فيه كثيرون ممن لا يتوعدهم عاكف بالعذاب !.

الإسقاط متوافق بالنسبة لطبيعة الشخصية وكاشف عن أبعادها المعقدة ، ولكن ما يستحق الاهتمام والتوقف هو إصرار الروائى على أن بكله قد استمع إلى السورة كاملة " حتى ختموها " !. هذا التأكيد يفيد فى الإحاطة بشخصية أحمد عاكف الذى يترجم المعنى الإنسانى الشامل فى السورة إلى معنى ضيق يقتصر على العذاب الشخصى بعينه يعرفه ويكرهه ويضيق به وبنجاحه واختلافه . ى السورة حديث عن النعيم والعذاب معاً ، فلماذا يتوقف عاكف عند العذاب وحده ؟!. ، و ما الذ يدريه أن خصمه اللدود سيستمر فى إلحاده وكفره حتى يطوله العذاب فى الآخرة ؟!.

ولكن استماع أحمد عاكف إلى السورة كاملة ، من ناحية أخرى ، يثير سؤالاً حول مصداقية هذا الاستماع ومدى مفعوليته . الشيوخ الصغار " يسيرون " ، وأحمد " يتطلع " من شرفته ، والسورة طويلة نسبياً " آياتها ٣١ " ، والضجيج مسيطر على المكان كما يضعه نجيب : دكاكين ترفع أبوابها ونوافذ تفتح وباعة لبن وصحف ؛ فكيف لأحمد ان يسمع السورة كاملة من بدايتها إلى نهايتها ؟!. ألا تؤدى " حركة " المرددين و " ثبات " المستمع المتأمل إلى تراجع وتباعد أصواتهم عما يفضى إلى حجب فرصة المتابعة الدقيقة ؟!.

سورة النبـــأ

** عم يتساءلون **　　　　(١)

ينتظر فهمي فرصة مناسبة لمفاتحه أمه بشأن خطوبته لمريم ، وحتى تتهيأ الفرصة يتابع احاديث أمه وشقيقتيه ، ثم يتابع أمه وكمال وهما يحفظان معاً جملـة مـن سـورة عـم .

" بين - ١١٦ "

سـورة " النبأ " هي المقصودة ، والاسم الذى يذكره فهمي مرتبط بالآيـة الأولى : " عم يتساءلون " .

سورة عبس

عبس وتولى .
(١)

كان الصحابى ابن أم مكتوم كفيف البصر . جاء إلى النبى يوماً وهو مشغول بسادات قريش يدعوهم للإسلام ، فقطع كلامه وكرر المقاطعه حتى كره الرسول منه ذلك وعبس في وجهه . نزلت الآية : عبس وتولى .

لا شك أن حسنين كامل يحفظ الآية وملم بأسباب نزولها ، ومن ثم فهو يستدعيها ويحورها بعد أن يتمادى فى غزله لجارته بهية فتستاء وتعبس . يفكر حسنين : ترى هل تعجلت الأمر قبل أن ينضج ؟ ... ما أقل صبرى ... هكذا أنا دائماً ... يالها من عبوسة !... عبست وتولت . " بداية - ٥١ "

ما أعظم الفارق الذى يستحيل معه المقارنة بين النبى والصحابى الأعمى من ناحية وبين بهية وحسنين من ناحية أخرى ،؟ معاً وما أعظم التنافر فى التشبيه والاستدعاء غير المنطقى ، ولكن القلق والتوتر والاختلاط والارتباك !.

قُتل الإنسان ما أكفره .
(١٧)

في مسرحية الفصل الواحد : " الشيطان يعظ " ، تبايع الملكة ترمزين ، وتتوالى تعليقات المسلمين المرتدين إلى عصر مدينة النحاس الأسطورية . ويأتي تعليق الشيخ عبد الصمد بن عبد القدوس الصمودي في صورة مقتبس قرآني :

- قتل الإنسان ما أكفره . " الشيطان - ٣٤٩ "

كيف لإنسان يملك العقل والإدراك ان يبايع بشراً فانياً الهاً معبوداً خالداً ؟!. ليس من مسعف للشيخ إلا الآية التي توجز كثيراً مما يود التعبير عنه من دهشة واحتجاج ورفض !.

فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه .
(٣٣ : ٣٦)

كيف ينعكس تصوير يوم الهول الأكبر على حياتنا الدنيا ؟!. هل يؤدى تخيل ما سوف يكون إلى إعادة النظر فى الوقع الكائن ؟!. ألا يقود إحساس المسلم المؤمن بحتمية القيامة إلى انزعاج مردود إلى ما يحيط به من مظاهر تشكل ما يتوهمه دائماً لا يزول؟!.

فى أهوال القيامة لا ينشغل المرء بغير نفسه ، وتتوارى أهمية الأخ والأم والأب والزوج والأبناء . ومثل هذه الإنفرادية الكاملة تسبب رعباً لكامل رؤبةلاظ الانطوائى بأمه والمتعلق بها إلى درجة المرض . ويروى كامل نفسه أحاسيسه ومشاعره ورد فعله المتطرف عندما تعرف على الصورة القرآنية لأول مرة :

ويوماً قرأت علينا – فى حصة الديانة – هذه الآية الكريمة : " فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه الخ " فلا أذكر أنى انزعجت لشىء انزعاجى لها ، وأن أغادرها فى أهواله بقامتها النحيلة الرقيقة وعينيها الخضراويين الحنونيتين ، فقاطعت الشيخ على غير وعى منى هاتفاً :

– كلا ... كلا ...

وأحدثت مقاطعتى دهشته فى الفصل لأنى لم أكن أنبس بكلمة ، ولم يدرك أحد ماذا اردت ، ولم يلبثوا أن ضجوا ضاحكين ، وغضب الشيخ ، وحملنى مسئولية الإخلال بالنظام، فأقبل نحوى متغيظاً ولطمنى على وجهى بعنف وحنق . ورحبت باللطمة كعذر ظاهر لبكاء إذ كنت أقاوم دموعى جاهداً ودون جدوى .

لقد زلزلتنى هذه الآية الكريمة ، وكانت أول نذير لى عن مأساة الحياة .. " السراب – ٣٩ ، ٤٠ "

أزمة كامل فى التعامل مع الآية – ومثله كثيرون – أنه يقيس الأمر بمقاييس دنيويه مؤقتة زائلة . لا يطيق تصور فراره من أمه ولا يتخيل أنه سيتخلى عنها ، ولذلك يخرج عن سلبيته المعهودة ويهتف نافياً رافضاً – وهو المؤمن – ومسبباً – على غير عادته وهو الخجول – شغباً فى الفصل .

استحالة الفرار والتخلى عن أمه لا تقاس إلا بقدرته على تخيل ما تشر إليه الآية من الهول المختلف عن الأهوال المعهودة فى الدنيا . المشكلة أنه ينظر إلى يوم القيامة كاستمرار تقليدى ليوم تقليدى من أيام حياته امألوفه !.

ليس كامل لاظوحده من يتأثر بالآية ، ولكن مبالغته تعكس ملمحاً رئيساً فى شخصيته " التابعة " التى لا تستطيع مواجهة الدنيا . فهو فى الحقيقة لا يود الفرار من نفسه – لاعتماده على أمه – أكثر من حرصه على الدفاع عنها والتشبث بها .

اما الوقور الطاعن فى السن فى قصة " رحلة " فيتذكر الآيات نفسها فى سياق مختلف وبرد فعل مغاير لكامل لاظ : ولما قرأ " يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه " فى وصف القيامة ارعبته الصورة ، وبخاصة ما يتعلق بامكان الفرار من

زينب وتركها لشانها ، واستقرت الصورة فى قلبه طويلاً كمأساة لا شفاء منها .
" حمارة - ١٩٧ "

تستقر الصورة كمأساة بلا احتجاج هستيرى ، والبطولة عنده للحبيبة زينب وليس للأم ، والتعامل هنا " سوى " يرعب ويخيف ويدمى بلا جنوح مرضى . ولقد امتد العمر بالمحب الذى لا يتخيل أن يتخلى عن حبيبته حتى تنسى ملامحها وحبها !.

إذا كان الزمن العقيد - بضع عشرات من السنين قد أفلح في إزاحة زينب ، فكيف بيوم الهول الأكبر ؟!.

سورة الطـــارق

** والسماء والطارق . ** (١)

فـى رحلـة محـوب عبدالدايـم النيليـة إلى القنـاطر الخيريـة ، مـع مجموعـة مـن شـباب الإستقراطية المصرية ، يعود إلى ذكريات الجامعة وصديقه مامون رضوان : وكيف كـان يستيقظ فى الفجر للصلاة والعبادة ، وكيف كـان يقلـب وجهـه بـين النجـوم السـاهرة ويتلو : " والليل إذا يغشى"،" والسماء والطـارق " بصـوت حنـان ، وعينـاه الصافيتـان تلمعان لمعان النجوم الزاهرة ولكن هل يوجد بين هؤلاء الشـباب والشـواب مـن يعشـق الطبيعة ؟ .... " القاهرة – ١٨٢ "

ما الذى يذكر محجوب بنقيض مـأمون ؟!. تأملـه للطبيعـة : النيـل والبـدر والليـل ، مجموعة من مفردات الطبيعة التى لا يحبها محجوب ويراها مفسـدة للعقـل . فـى المقـابل يتذكر عاشق الطبيعة ومردد الآيات القرآنية التى تكشف عن هيامه بهـا ، آيـات لمتعبـد مفرداتها عن الليل والسماء والنجوم ، وتتبخر ذكرى مأمون بـالعودة إلى رفـاق الرحلـة الذين يشبهون محجوب عبدالدايم فى استهتاره بالطبيعة وانشغاله بنفسه .

قد يزعم محجوب أنه متحرر من الضمير ، ولكنه فى الحقيقة يسـعى إلى التحـرر و لم يصل إلى الحرية الكاملة بعد . مأمون نقيضه ووجد الذى يتذكـره احيانـاً فينقـض عليـه ولا يملك إلا أن ينساه أو يتناساه !.

الآيات التى يتلوها مأمون تأكيد جديـد لطبيعـة شـخصيته الايمانيـة ، بقـدر مـا هـى كاشفة عن طبيعة شخصية محجوب غير السوية .

سورة الفجـر

** يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربـك
راضية مرضيه ** (٢٧ - ٢٨)

في قصة " أسعد الله مسـاءك " يعيش عبدالقـوى البيـه وحيـداً ، وتطـارده مخـاوف المرض والموت . وهو ينظر إلى صديقه الطرطوشي كرجل سعيد جدير بالحسـد بفضـل أبنائه الذين يعينونه فـى الحيـاة وسيسـعفونه ميتـاً : وعندمـا يجـىء أجلـه سيزدحم بيتـه بالنساء والرجال ويلعلع الصوات فيترامى إلى أنحاء العباسية ، وينشر نعيه فـى الأهـرام ، يا أيتها النفس المطمئنة ارجعـى إلى ربـك راضيـة مرضيـة . انتقـل إلى جـوار الله المربـى الفاضل ..... " صباح -٩-١ ع-١١ "

الإحساس الحاد بتفاصيل الموت وأهمية طقوسه تكشف عن مدى معانـاة عبدالقـوى في حياته وتوقعه لمزيد من المعاناة بعد الموت . وهـو إذ يتخيـل مـوت صديقـه لا ينسـى النعي - وفـى الأهـرام تحديـداً - مصحوبـاً بالآيـة التـى تصـاحـب معظـم مـا ينشـر فـى صفحات الدنيات

سورة الليل

** والليل إذا يغشى . ** (١)

انظر : سورة الطارق ، الآية ١

سورة الضحى

** والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فى تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث . ** (١-١١)

فى قصة " زيارة " تعاني العجوز عيون من وحدة مفزعة ، وتتحالف ضدها الشيخوخة والأمراض والخادمة المتسلطة عدلية . وثمة حادث يقع بين الوهم والحقيقة ، بين الخيال والواقع، تظهر فيه شخصية الشيخ طه . هذا الرجل هو مقرىء البيت القديم العامر ، وزيارته مبشرة بالخلاص ومنعشه للآمال وإن تكن غير يقينة . فى اللقاء بينهما - إن كان ثم لقاء - تتوثق الألفة ، وإذا بالشيخ الضرير يسلت من قدميه الحذاء المهترىء فيتربع فوق الكرسى ثم يتلو :

" والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . " " خمارة - ١٧١، ١٧٢ "

ليست المسألة أن تكون واقعة الزيارة حقيقية أو متخيلة ، ولكن في دلالة الاختيار لآيات معبرة عن الحالة النفسية التى تعانى منها المريضة العجوز الوحيدة . آيات تبشر بالخروج من الأزمات وتوحى بآفاق الخلاص من الوحدة والغربة .

آيات ثلاث من السورة يتلوها الشيخ طه فتنتقش الآمال المنسية ، والسورة كاملة يتلوها صادق صفوان ويختتم بها رحلة الأصدقاء فى " قشتمر " . " قشتمر - ١٤٧ "

يصل قطار الأصدقاء في الرواية إلى محطته الأخيرة ، وتترسخ علاقة الأبطال الذين قاوموا الزمن وتجاوزوا صعابه وحافظوا على مودتهم حتى آن لهم أن يقفوا متماسكين في انتظار الموت . الحب يجمعهم ، والموت هو القوة الوحيدة القادرة على تفريقهم ، والترتيل " بصوت واضح " بقدر خلاصة التجربة ودروس الصداقة . قد لا تكون هذه النهاية هى الوحيدة الممكنة ، ولكنها نهاية مفتوحة مقنعة . ذلك أن السورة تصلح بداية بقدر ما هى نهاية !.

سورة الشــرح

** فـإن مــع العسر يسـرا . إن مع العســر يسرا ** (٥-٦)

العسر فى الايتين قلة ذات اليـد ، واليسـر السـهولة والغنـى ، والخطـاب - البشـرى للرسول.

العاديون من الناس يبحثون عن اليسر ويحلمون به ، ويتجنبون العسر ويتأففون منه . ولكن : أى عسر وأى يسر ؟!.

فى قصة " المرض المتبال " تكتشف الزوجة الخائنة مرضها الجنسى المعـدى ، وتدعـو الله أن يكون زوجها - الذى لا تعرف أنه خائن ومريض مثلها - قد نجا وحفظه الله : وعسى أن يجعل من بعد عسر يسرا .. " همس - ٢٧٠ "

اللغة القرآنية الايانية لا تناسب الشخصية المستهترة ، وبخاصةأن العسر الذى تقصـده هو الخطيئة والمرض المترتب عليها ، واليسر الذى تنشده هو الستر والنجـاة . إذا كـانت تملك كل هذا الايمان والورع ، فلماذا خانت أصلاً ؟!.

احمد عبدالجواد ايضاً يلجأ إلى مفردات الآية وجوهر معناهـا وهـو يعـانى مـن هجـر زنوبة ورطوبة شهر سبتمبر معاً : ما افظع سبتمبر إذا ارتفعت حرارته المشبعة بالرطوبة ، ما ألطف أماسـيه خاصـةما يكـون منهـا فـى العوامـة ؛ إن بعـد العسـر يسـرا . " قصـر - ١٠٣ "

ليس العسر فى الجو الذى سيتغير بالضرورة بحكم قوانين الطبيعة ، ولكنه فى هجران العوادة وتعاليها . إن العسر - كل العسر - فى قسوتها لا فى رطوبة الخريف ، واليسـر الذي يرتجيه هو رضاها وإقبالها .

أما الذى يدعى أنه مندوب شركة تـأمين فـى قصـة " التنظيـم السـرى " فـيرد علـى سؤال زوجة عضو التنظيم حول تكاليف التأمين :

- أيكلفنا ذلك ما لا نطيق ؟

قائلاً بنبرة مشجعة :

- التأمين أصلاً للذيـن لا يملكـون ، وهـو درجـات ولكـل درجتـه ، وان بعـد العسر يسرا .... " التنظيم - ٢٨ "

هل يكون العسر فى الواقع الذى يخلو من التأمين واليسر فى المستقبل المؤمن ؟!. أم أن الأمر كله بجرد تخلص من رحل لا علاقة له بشركات التأمين ولا خبرة عنده بلغته وأسلوبهم فى الدعاية ؟!.

وبعد سجن طويل يخرج الفتوة القديم زيد إلى الحرية في قصة " العودة " ليكتشف أن الدنيا قد تغيرت ، ولا يجد من ينتمى إلى عالمه القديم إلا خادم زاوية سيدى الصبان. يتعرف الرحل عليه ويتحتم بلا مقدمات :

- إن مع العسر يسرا . " القراء - ١٢٧ "

لا يحتاج الموقف إلى مقدمات ، فليس من عسر أشد من توهم قديم غير موجود إلا فى الذاكرة وحدها !.

سورة الزلزلة

**** إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها .** (١-٣)**

للقيامة أهوالها ، وللحياة الدنيا أهوالها الأقل شأناً بما يتناسب مع محدودية الإنسان وقدرته الضئيلة على التحمل .

أهوال القيامة غيب نتخيله ولا نعانيه ، اما أهوال الدنيا فواقع معيش يكابده البشر ويسعون إلى التكيف والتعايش معه .

قد يفيد التمثل بالآيات - في عالم نجيب محفوظ - معنى الإحساس بالتغيير السريع غير المتوقع كما في قصة " حلم " حيث تمثل قرارات يوليو الاشتراكية زلزالاً بالنسبة للمستفيدين والضادين على حد سواء !.

أخذوا اموال الأغنياء ، والسنى الحالم يلتقى مع زميله المتحمس :

- إذا زلزلت الأرض ..

- ماذا تقول يا ابن والدى ؟

- أقول إذا زلزلت الأرض زلزالها !. . " خمارة - ١٨٦ "

الزلزال هنا هو القرارات الاشتركية التى تمثل خيراً للأغلبية المحرومة وشراً للأقلية المؤلمة ، وثورة يوليو نفسها - صاحبة القرارات - لم تكن إلا زلزالاً يدفع الوجيه نعمان الرشيدى إلى الاستشهاد بالقرآن لأول مرة فى حياته ، فيقول :

- إذا زلزلت الأرض زلزالها .. وقال الإنسان ما لها . " الباقى - ٣٩ "

الوجيه الذى لم يعرف الاستشهاد بالقرآن من قبل ، يسقط الآية الثانية من السورة مكتفياً بالآيتين الأولى والثالثة . والزلزال - الثورة - عنده حدث سلبى مريع ، فهو ينتمى إلى المأزومين الذين ترعبهم فكرة الثورة قبل سنوات من الاكتواء بنار قراراتها !.

ويكتسب الاستشهاد طابع السخرية والتهكم عند الماركسى أحمد شوكت . فهو إذ يرى داعية الإخوان المسلمين الشيخ على المنوفى ، يقول لأخية الإخوانى عبدالمنعم :

- الشيخ على المنوفى صديقك ، اخرجت الأرض أثقالها . " السكرية - ٩٧ "

" الأثقال " عند أحمد بديل لغوى كاريكاتورى للإشارة إلى الشيخ - الزلزال بتجهمه وثقله ،وهو ما يعكس موقفاً بالغ السلبية وبلغة القرآن الأقرب إلى الإخوان بالطبع من أحمد الماركسى !.

الآيات لا تتغير ، ولكن الزلزال خير مـن عند فريق وشر عند فريق آخر ، وأداة للسخرية والتهكم عند آخرين .

**** فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . ** (٧-٨)**

يتخذ المحامي الإخواني محمد حامد برهان موقفاً عدائياً متطرفاً من عبدالناصر وعهده، وفي المقابل تقف شقيقته مؤيدة لعبدالناصر ومعادية بلا هوادة للسادات . ويشترك ابن شقيقتهم رشاد في الحوار متخذاً موقف التوسط والاعتدال :

- لكل عهد إيجابياته وسلبياته . ومهمة الأحرار أن يؤيدوا الايجابيات ويحاربوا السلبيات..

وتؤيده جدته سنية المهدى مدللة على تأييدها بالقرآن :

- ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .
" الباقي - ١٤٦ ، ١٤٧ "

قد لا يكون لاختيار دقيقاً كل الدقة ، ولكنه يوحي بجوهر الفكرة التى يؤمن بها رشاد وجدته : تجاورية الخير والشر ، وحتمية الفصل بينهما تحرياً للعمل والإنصاف عند التقييم . عبدالناصر ليس فرداً يتخذ قرارات شخصية تخصه وتعود عليه وحده بالخير ولاشر ، ولكن الآيات التى تتمثل بها سنية تطوله كفرد يؤثر بحكم موقعه على الآخرين ،وهو فرد له حسنات وسيئات ويستحق الثواب والعقاب معاً !.

سورة الهُمَزة

**** ومـــا ادراك مــا الحطمــة . نـــار الله الموقدة . ** (٥-٦)**

الحطمة هى جهنم ، وفيها نار الله الموقدة .

هذه النار نفسها تتحول فى الاستخدام اللغوى اليومى إلى مجالات أخرى لا علاقة لها بجحيم الآخرة .

على مائدة القمار يتفوق عباس صديق على رفاقه ويلتهم نقودهم، وبذلك يستحق ما يقوله عند الشيخ السلهوبى من أنه نار الله الموقدة . " السمان – ١٥٦ "

ولا يجد إبراهيم السقاء ما يصف به الجمال الشيطانى الصاعق لأنيس الجليس إلا قوله : ولكنها نار الله الموقدة . " ليالى – ١٥٧ "

جحيم البشر فى الأموال والنساء . لا يخلو التشبيه من فكاهة تختلط بالقليل من المرارة عند السلهوبى ، ومن شهوة تختلط بالكثير من الحسرة والإحساس بالعجز عند إبراهيم ، ومن تمثل بالآية القرآنية عند الإثنين لتجسيد جحيم البشر عندما تضيع الأموال ويعز الوصول إلى النساء !.

سورة الكافرون

** قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون .
ولا أنتم عابدون ما اعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم.
ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى
دين ** (١-٦)

تضيق إحسان شحاته بالكتب " الثقيلة " التى يحثها عى طه على قراءتها ، لـك انها تتوق إلى البسيط السهل السلس الذى لا يتجاوز مادة الموسيقى !. وإذ يقول لها حبيبها المثقف اليسارى فى أسف :

- أنك تحرمين عل نفسلك أشهى ثمار الفن الحقيقى ...

ترد ضاحكة :

- بحدولين ، آلام فرتر ، آلام رفائيل ، تلك آيات الفن الذى أحبه .

قالت ذلك بلهجة من يقول " لكم دينكم ولى دين " . " القاهرة - ١٨ "

الأمر لا يعدو اختلافاً حول نمطين من القراءة متعارضين ، ولكن إحسان تفى انها دون حبيبها فى القدرة على الجدل والإقناع . ولذلك تبدو حاسمة حازمة وكأن الفن الذى تشتهيه ويروق لها من المقدسات التى لا تقبل المناقشة والتراجع !.

وإذا كانت إحسان تتمسك بالفن البسيط وتعتبره " حرية فكرية " لا تقبل المراجعة، فإن المعلم كرشة يتمسك بسلوكه الجنسى الشاذ ويعتبره " حرية شخصية " لا يحق لأحد أن يتدخل فيها : وأما عن شهوته الآخرى فيقول بقحته المعهودة : " لكم دينكم ولى دين " . " نفاق - ٤٥ "

الشذوذ الجنسى آفة المعلم كرشة ، والطموح المصحوب بالتمرد آفة ابنه حسين . وإذ يتخلى عباس الحلو عن رقته ودماثته مرة ويقول لصديقه فى لهجة تشف عنها الاستياء :

- إنك أكثر منى شكوى ، وعمرك ما حمدت الله ..

يرمقه حسين بنظرة قاسية ، فيتراجع عباس مستدركاً بلين :

- لا عليك من هذا ، لكم دينكم ولى دين . " نفسه - ٢٥٢ "

ويتطرف أحمد عبدالجواد فى معاملته لأهل بيته ، ويحول بينهم وبين عديد من الحقوق التى يسمح بها أصدقاؤه . إنه لايدين هؤلاء الأصدقاء لأنهم سمحوا بما لا يسمح به ، ولكنه يؤكد على اختلافه عنهم ويتمسك بالاختلاف : لم يكن يسيء الظن

حتى ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم فى العربات للتـنزه فى الخلوات أو لغشيان الملاهى البريئة مكتفياً فى مثـل هـذه الحـال بـترديد قولـه " لكـم دينكم ولى دين " . " بين – ٢١٢ "

ليس القول " قوله " بطبيعة الحال ، ولكنها الآية القرآنية التى تجرى مجرى الأمثال .

إحسان شحاته والمعلم كرشة وعبس الحلو وأحمد عبدالجواد لا يتحدثون عـن الدين والعقيدة ، ولكنهم يتشبثون بأفكار وممارسات دنيوية : اتجاه فى القراءة ، شذوذ جنسى ، طموح وطمع ، محافظة صارمة متطرفة على التقاليد . وهم لا يجدون ما يؤكـدون بـه حرصهم على أفكارهم وممارساتهم إلا الاستعانة بالآية للبرهنة على استحالة التراجع !.

الآيـة الأخـيرة مـن السـورة : " لكـم دينكـم ولى ديـن " هـو موضـوع الإشـارات السابقة جميعاً ، ولكن الآيات الأولى من السورة نفسها تظهـر بوضـوح فـى حـوار بـين " اليسارى " على طه و " العدمى " محجوب عبدالدايم حول الموقف من المرأة والحـب . لا يعرف محجـوب الحـب ولا يعـترف بـه ، وهـو مـن يسـخر فـى أعماقـه مـن صديقـه " الأحمق " الذى يريد أن يجعل من وظيفة التناسل محراباً مقدسـاً !. إنـه يوجـز الخـلاف قائلاً فى هدوء بارد :

– يا أيها العاشقون ، لا أعبد ما تعبدون !

ويجاريه على :

– ولا نحن عابدون ما تعبد . " القاهرة – ٤٢ "

" العاشقون " بديل للكافرين ، و " لا نحن " بدلاً من " أنا " ، و " ما تعبـد " بـدلاً من " ما عبدتم " و. وكأن محجوب نبى يبشر برسالة يكذبها علىٌّ !

سورة المســد

** وامرأته حمالة الحطب . **   (٤)

لا يجد جديداً بعد خطبة حسنين وبهية ، فالفتاة تحافظ - بعناد - على التزامها الاخلاقي الذى يدفعها إلى رفض ما يشتهيه حسنين من قبلات وأحضان . امتناعها مبرر بتربيتها ، ما تنشره الصحف والمجلات ويذيعه الراديو وتعلمه الأم : قالت أمي لى مرة " إن الفتاة التي تتشبه بالعشاق كما يظهرون في السينما فتاة ساقطة خائبة الأمل " .

ويسارع حسانين إلى تحميل أم بهية مسئولية ما يعانيه من الحرمان : فتاتى عنيدة مجنونة .. السبب أمها بنت الكلب حمالة الحطب . " بداية - ٨٤ "

هل يوجد أدني تشابه بين أم جميل زوج أبى لهب التى تحرض زوجها عل عداوة الرسول وبين أم بهية التى تحض ابنتها على العفة والاستقامة والتمسك بالأخلاق ؟!.

لا مجال للمقارنة بطبيعة الحال ، ولكنها ثورة الغضب والحرمان التى تدفع حسنين إلى الاستعانة بالقرآن لأغراض تخصه وحده ، وهى ظاهرة تتكرر كثيراً وتعكس إحساسه المتضخم بالذات وأنانيته المسيطرة .

سورة الإخـــلاص

** قل هو الله أحد . الله الصمـد . لم يلـد ولم
يولد . ولم يكن له كفواً أحد . ** (١ – ٤)

عديدة هي الوظـائف التـي تقـوم بهـا سـورة الإخـلاص – الصمديـة – فـي المعتقـد الشعبي . وقد لا يكون صحيح الدين متوافقاً مع هذه الممارسة ، ولكن عـوام المسـلمين من اصحاب الثقافة البسيطة والوعي المحدود يملكون رؤيتهم الخاصة المتوارثة التـي تجعـل لسورة مكانة خاصة تسعفهم في عديد من المواقـف وتنجدهـم فـي مواجهـة كثـير مـن الأخطار .

في قصة " كلمة غير مفهومة " يرى الفتوة الطاغية حنلس حلماً يدفعه إلى البحث عن ابن ضحيته حسونة ، وينشغل الجميع بالتفكير والبحث : وذات مساء جـاء القهـوة الشيخ درديري ، وهو مقرىء ضرير ، يتعيش من التـلاوة فـي المقـاهي والغـرز وتـروج سوقه في المواسم . صافح المعلم ثم تلا الصمدية وقال :

– يا معلم ، إن كنت تريد ابن حسونة فأنا أعرفه ! " خمارة– ١١ "

ما يعلنه الشيخ لا يسـتدعي الخـوف ، ولكـن حنـلس فتـوة مرهـوب الجـانب تبـدو الصمدية هنا مقدمة ضرورية سابقة لأي كلام . أهو التحصن بها مـن البطـش الـذي لا يخضع لقوانين معروفـة؟، أم الاستعانة لهـا علـى الإتقـان والإجـادة ؟! ، أم أنهـا العـادة وحدها ما أملت على الشيخ ان يتلوها قبل أن يشرع في الحديث ؟!.

وتبدو السورة حصناً منيعاً لمواجهة الخطر المجهول الذي يستشعره الأب على ابنه فـي الحكاية الأولى من " حكايات حارتنا " . فإذا يؤكد الطفـل – الـراوي أنـه رأى شـيخاً تنطبق عليه أوصاف الشيخ الأكبر ، ويخلف عل صده بكل مقلس . يصمـت أبـوه مليـا ثم يقول :

– لا تخبر بذلك أحداً .

ويبسط يديه ثم يتلو الصمدية . " حكايات – ٥ "

ما يهدد الطفل هو المعجزة وتداعياتها الخطيرة التي قد تسب الحسد وتجلب الأذى ، ولا مواجهة لهذا الخطر – الهاجس إلا بالصمدية والكتمان . وثمة خطر ممـاثل غـير محـدد الملامح يحسه الجندي في قصة " ثلاثة ايام في اليمن " ويواجهه بطريقـة مماثلـة : تلـوت الفاتحة والصمدية . " تحت – ٨١ "

وتمثل الثعابين خطورة تستدعي الاستعانة بالصمدية . يقدم سعفان أفندى بسيونى مجموعة من النصائح للموظف الجديد عثمان بيومي ، ومن هذه النصائح :

- واقرأ الصمدية عندما تفتح دولاباً من دواليب شنن فقبل العيد الماضى طلع علينا من أحد الدواليب ثعبان لا يقل طول عن متر . " حضرة - ٩ "

لا توفر الحكومة الأمان لموظفيها ، فليس لديهم إلا الاعتماد على الجهود الذاتية والتسلح بما يعرفون ويملكون ؛ الصمدية .

الفتوة مرعب ، والمعجزة الخارقة مخيفة ، والحرب مهلكة ، والثعابين قاتلة ؛ والصمدية هي الأداة الشعبية لمواجهة الأهوال جميعاً . وليس من هول يواجهه الإنسان يفوق الموت .

يروى السيد أحمد عبدالجواد لزائريه ، بعد تماثله للشفاء من المرض الشديد الذى وقف به على حافة الموت ، ما دار فى ذهنه عند بداية المرض : فى الأيام الأولى من المرض اقتنعت فيما بيني وبين نفسى بأنى انتهيت ، فجعلت أتشهد وأقرأ الصمدية . " قصر -٤٤٧ "

الخوف من الموت يدفع إلى طلب الرحمة ، وفى التشهد والصمدية ما بقى من الخوف ويقرب الرحمات .

نجا أحمد من الموت ، أما " نصيبى " في قصة " قسمتى ونصيبى " فلم يفلت . وذات صباح صحا مبكراً وهتف :

- إنى ذاهب إلى موطن الحقيقة الباكية !

وهرولت إليه ست عنباية فأدركت أنه يحتضر فأخذته فى حضنها ، وراح يتلو الصمدية . " رأيت - ١٠٣ "

قبل الموت - أو عند توهم وقوعه - وأثنائه تظهر الصمدية على لسان المهدد بالموت أو أهله المحيطين به ، وبعد الموت تظهر أيضاً بمعرفة زائرى الموتى . " رحلة " يعود العجوز إلى ذكريات طفولته البعيدة ويتذكر حواراً قديماً مع أصدقائه عند قبر أم صديقهم رفاعة ، وفي الحوار يطل لغز الموت وتخيم أسراره وتناقش أساليب الصمود والمقاومة يسأل سائل :

- ماذا يفعل الأموات في القبور ؟

فأجاب رفاعة بإيمان :

- إنهم يروننا ويسمعوننا ، أمي تراني الآن وتسمعني ، كانت تقول لى ذلك وهى صادقة .

- والظلام ؟
- ينهب بتلاوة القرآن وتوزيعالرحمة على المساكين .
وتلا الصمدية . " حمارة - ٢٠٠ "
الظلام والخوف والصمدية . الموت المجهول والمصير الغامض والصمدية ايضاً !.
الظلام والخوف والمجهول والغامش ، العالم غير المنظور بما يبثه من رعب ويثيره من رهبة ؛ الجن والعفاريت .
الوظيفة الأكثر انتشاراً وذيوعاً للصمدية تتمثل في مواجهتها للعفاريت والجن .
في مطلع الحياة الزوجية لأمينة ، عرفت الخوف في وحدتها من العفاريت والجن ساكني البيت الواسع . إنها تعرف عن عالم الجن أضعاف ما تعرفه عن عالم الإنس : وكم دب إلى أذنيها همساتهم وكم استنبطت على لفحات من انفاسهم ، وما من مغيث إلا أن تتلو الفاتحة والصمدية . " بين - ٧ "
ولا يبدو أبناؤها الصغار وحشتها وخوفها ، بل أن الوحشة تتفاقم والخوف يتضاعف . ولا مغيث إلا الصمدية في مواجهة كل ما يرعبها من سكان البيت : و لم يكن غريباً وهي منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، أن تضمه إلى صدرها فجأة ثم تتصنت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفه كأنها تخاطب شخصاً حاضراً : " ابعد عنا ، ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون " ثم تتلو الصمدية في عجلة ولهوجة . " نفسه - ٧ "
اليس منطقياً ومبرراً أن ينتقل هذا المعتقد الراسخ إلى كمال عبدالجواد الطفل وهو عظيم الالتصاق بأمه ؟!. قوام الاعتقاد يتمثل في شقين : الأول هو وجود الجن والعفاريت والأرواح ، والثاني هو فاعلية الصمدية في التأمين والحماية . وكما تفعل الأم يكرر الطفل أثناء مروره في قبو درب قرمز المظلم الذى تتخذه العفاريت مستقراً لها وعندما دخل في جوفه راح يقرأ " قل هو الله احد " بصوت مرتفع رن في الظلمة تحت السقف المنحنى ، وسبقته عيناه إلى فوهة القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق ، ثم حث خطاه هو يردد السورة لطرد من تحدثه نفسه بالظهور من العفاريت . " نفسه - ٥٠ "
يؤثر كمال أن يواجه الخوف من الكائنات غير المرئية عن مواجهة أبيه ، فالكائنات المخيفة المجهولة تُحارب بآيات الله ، والأب المخيف لا سبيل لمواجهته واتقاء أذاه .

هل تفلح الآية مع الانجليز ؟!. إلى دكان عم حمدان يلجأ كمال خائفاً من بطش الجنود الانجليز ، ويتلو في سره - إذ خانته قدرته على الكلام - " قل هو الله أحد " لعلها تطرد الانجليز كما تطرد العفاريت في الظلام . " نفسه - ٣٤٨ "
لعلها !.

ولعل الصمدية أيضاً تفلح في جلب النوم الهانيء لكمال الشاب بعد أن نهره أبوه ووبخه لعودته متأخراً . بها تنصح الأم :" اقرأ الصمدية حتى يأتيك النوم . " قصر - ٤١٠ "

ولم يقرأ كمال الذى كان قد انتقل إلى المرحلة الإلحادية وودع العالم القديم كله .

ثنائية كمال وأمينة مع الجن والعفاريت في " بين القصرين " توشك أن تتكرر في علاقة جعفر الراوى وامة سكينة مع الكائنات نفسها في " قلب الليل " .

كثيرة هي مغامرات جعفر مع العفاريف في طفولته ، وإذ يصيبه الفزع بعد إحدى هذه المغامرات تتنبه أمه إلى خطورة الموقف : وقالت لى أمي إنه آن لى أن احفظ الصمدية . " قلب - ٢٢ "

المسألة محسومة عند الأم ، والتقصير الوحيد أن طفلها لم يحفظ الصمدية بعد حتى يتسلح ويقاوم !.

بإنتقال جعفر إلى بيت جده ، وهو العالم الأزهرى الكبير الذى يعرف الدين الصحيح النقي من الشوائب والخرافات والأساطير ، يحدث صدام بين معتقدين ينتميان إلى دين واحد . في اللقاء الأول بين الجد والحفيد يدور الحوار التالي :

- ماذا تحفظ من القرآن ؟
- قل هو الله أحد .
- ألم تحفظ الفاتحة ؟
- كلا . " نفسه - ٣٠ "

هل توجد " حكمة " و " فلسفة " في حفظ الصمدية قبل الفاتحة ؟!. لعل هذا ما كان يفكر فيه الجد وهو يواصل الحوار :

- ولم بدأت بقل هو الله أحد ؟
- لفائدتها في إخضاع الجن . " نفسه - ٣٣ "

ثقافتان مستمدتان من دين واحد : ثقافة رصيفة عاقلة يمثلها الجد العالم ، وثاقفة مطعمة بالخرافات والأساطير والموروثات الشعبية ينتمي إليها الحفيد . يعلن جعفر

ببساطة أن للسورة فائدتها فى إخضاع الجن ، ويعلن- ببساطة أيضاً - أنه تعامل معهم كثيراً !.

راضية معاوية القليوبى من اكثر شخصيات نجيب محفوظ تعبيراً عن الدين الشعبى ، ولها معتقداتها يستسلم ابنها حامد فى غير جدية وبدافع المرح : يترك جبينه لأمه تلثمه بحنان ، ويسلم رأسه لها لترقية وتتلو عليه الصمدية وبعض محفوظاتها من الأوراد . " حديث - ٥٩ "

حنان ورقى وأوراد قبل وبعد الصمدية !.

الإدانة واجبة - سهلة - للنساء الشعبيات البسيطات غير العالمات مثل أمينة وسكينة وراضية ، ولكن الصورة لا تكتمل إلا بالتعرف على النمط الارستقراطى العكس الذى تمثله عايده شداد .

لا تعرف عايدة عن دينها شيئاً ، ومعلوماتها عن المسيحية - بحكم تعليمها - أضعاف معلوماتها عن الإسلام . وهى إذ تدعى انها تحفظ - أو كانت تحفظ - آكثر من سورة ، يسألها كمال العاشق :

- بديع بديع جداً ، مثل ماذا ؟

لا تملك " المسلمة " إجابة ، ولكنها ترفع صوتها فجأة شأن من تذكر شيئاً أعياه طلابه ، وتقول :

- مثل السورة التى يقول فيها إن ربنا واحد الخ.. " قصر - ٢١٧ "

أيهما أولى بالتسامح والغفران والتعاطف : التطرف الشعبى أم التطرف الأرستقراطى؟!.

وأيهما أقرب إلى الدين : إضفاء المزيد من التقديس على القرآن وإن تجاوز الحد أم الإهمال والنفور والتعالى ؟!.

سورة الفلــق

** قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق .
ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات في
العقد . ومن شر حاسد إذا حسد ** (١-٥)

إذا كانت سورة الإخلاص هي الأداة الشعبية الفعالة لمواجهة شتى صفوف الخوف والفزع ، فإن سورة الفلق هى الوسيلة الشائعة لمقاومة الحسد ودفع العيون الحاسدة المهددة بزوال النعمة .

كل صباح تراقب أمينة خروج رجال الأسرة من البيت في مشهد يثير الاعجاب والمخاوف : الأب أحمد عبدالجواد ، والأبناء ياسين وفهمي وكمال . المنظر اليومي المألوف لا يبدو قلق أمينة : كانت هذه الساعة من أسعد اوقات الأم ، بيد أن إشفاقها من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد ، فلم تكن تمسك عن تلاوة " ومن شر حاسد إذا حسد " حتي يغيبوا عن عينيها. " بين - ٢٥ "

بهذه التلاوة اليومية تحصن أمينة رجالها من شر العيون ، وهى لا تملك شيئاً آخر !.

إن الحسد مفهوم يستعصى على التحديد الصارم في الممارسة الواقعية والحاسدون شخوص يصعب تحديدهم على وجه اليقين . وحتى إذا رُصدوا وعُرفوا ، فلا بديل للسورة كوسيلة سريعة ومؤكدة المفعول .

بموت ام ياسين يتحول الابن إلى واحد من الملاك الوارثين ، وتسترسل خديجة في حصر ما آل إليه من ممتلكات في قولها لعائشه :

- دعيني أعد لك أملاكه ، اسمعي يا ستي : دكان الحمزاوى وربع الغورية وبيت قصر الشوق .

خديجة أخت محبة ، وحديثها ينصرف إلى الزهو والفخر لا يخالطه قر أو حسد ، ولكن ياسين يسارع بالرد الدفاعي الحامي :

- ومن شر حاسد إذا حسد . " نفسه - ٤٣٥ "

اجتماع رجال الأسرة في مسيرة واحدة مما يغرى بالحسد ، وميراث ياسين يستحق الحسد، وصحة خديجة أيضاً تستحق الحسد !. ياسين هو قائل ما يوحي بالحسد ، فهو يردد بصره بين شقيقتيه خديجه وعائشه، ويقول كالمستنكر :

- حدثتمونا عن تعب خديجة المتصل من الفجر إلى الليل ، فأين اثر ذلك التعب ؟!. .. كأنها هى اللاهية وكأن عائشة هى العاملة !.

إنه يشير بقوله هذا إلى بدانة " العاملة " خديجه نحافة " اللاهية " عائشة ، وقوله هزل لا شبهة حسد فيه ، ولكن خديجه – وهى تبسط راحة يمناها في وجهه مفرجة بين أصابعها الخمس – تقول :

– ومن شر حاسد إذا حسد !. " قصر – ٣٩ "

تبدلت الأدوار ، وقالت خديجة لياسين ما قاله لها قبل سنوات وهى تستعرض أملاكه الموروثة . تبدلت الأدوار و لم تتغير الفلسفة الكامنة وراء الاستفادة من الحسد وشره !.

وتنفرد خديجة بتوظيف منفرد للسورة . سخريتها لاذعة ، وهى عيابة مولعة باطلاق الأوصاف الكاريكاتورية التى تجسد عيوب الأهل والمعارف . ولا ينجو شيخ كتاب " بين القصرين " من لسانها ، فهى تدعوه " شر ما خلق " لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيراً بحكم وظيفته مع قبح وجهه . " بين – ٢٩ "

الشيخ عندها " شر ما خلق " . وإنها لا تتعامل مع السورة فى سياق الحسد ، ولكن فى مجال السخرية والتهكم !.

****

مصـــــادر الدراسة

مؤلفات نجيب محفوظ التي اعتمدت عليها الدراسة :

همس الجنون " همس "
القاهرة الجديدة " القاهرة
خان الخليلي " خان "
زقاق المدق " زقاق "
السراب
بداية و نهاية " بداية "
بين القصرين " بين "
قصر الشوق " قصر "
السكرية
اللص والكلاب " اللص "
السمان والخريف " السمان "
دنيا الله " دنيا "
الطريق
بيت سيء السمعة " بيت "
الشحاذ
ثرثرة فوق النيل " ثرثرة "
ميرامار
خمارة القط الأسود " خمارة "
تحت المظلة " تحت "
حكاية بلا بداية ولا نهاية " حكاية "
شهر العسل " شهر "
المرايا
الحب تحت المطر " الحب تحت "
الجريمة
الكرنك
حكايات حارتنا " حكايات "

قلب الليل " قلب "
حضرة المحترم " حضرة "
الحرافيش
الحب فوق هضبة الهرم " الحب فوق "
الشيطان يعظ " الشيطان "
عصر الحب " عصر "
افراح القبة " أفراح "
ليالى ألف ليلة " ليالى "
رأيت فيما يرى النائم " رأيت "
الباقى من الزمن ساعة " الباقى "
أمام العرش " أمام "
رحلة ابن فطومة " رحلة "
التنظيم السرى " التنظيم
يوم قتل الزعيم " يوم "
حديث الصباح والمساء " حديث "
قشتمر " قشتمر "
الفجر الكاذب " الفجر "
القرار الأخير " القرار "

المحتويات

مقدمة
القسم الأول
تمهيـــــــد
مكانة القرآن
صورة قارىء القرآن
القرآن والموت
تعليم القرآن
القرآن حامياً
القرآن والسياسة
تفسير القرآن
القرآن والإعلام
القسم بالقرآن
نهاية المطاف
القرآن والفكاهة
القسم الثاني
الدراسة المعجمية
بسم الله الرحمن الرحيم
الفاتحة
البقرة
آل عمران
النساء
المائدة
الأنعام
الأعراف
الأنفال
التوبة
يوسف
الرعد

إبراهيم
النحل
الإسراء
الكهف
مريم
طه
الأنبياء
الحج
المؤمنون
النور
القصص
العنكبوت
الروم
السجدة
الاحزاب
سبأ
يس
الزمر
غافر
الشورى
الزخرف
الجاثية
الفتح
الحجرات
النجم
القمر
الرحمن
الواقعة
الحديد

الملك
الحاقة
الجن
الإنسان
النبأ
عبس
الطارق
الفجر
الليل
الضحى
الشرح
الزلزلة
الهمزة
الكافرون
المسد
الإخلاص
الفلق
مصادر الدراسة
المحتويات

أفاد الباحث من عشرات الكتب والدراسات والمقالات التى كتبت عـن أدب نجيـب محفوظ، ولكن يود الإشارة إلى الدراسة الرائعة للأستاذ الدكتـور/ محمـد حسـن عبدالله عن :" الإسلام والروحية في أدب نجيب محفوظ " فهى تمثل مجهوداً مهماً فى التعامل مع جانب لم يحظ بما يستحقه من اهتمام وعنايـة . والمرجـو ان تكـون دراسـتى هـذه بمثابـة الامتداد لما قدمه الباحث الرائد ومحاولة متواضعة لاستكمال ما بدأه .

للمـؤلـف

دراسات نقدية :

١. صورة الموظف فى روايات نجيب محفوظ .
٢. الفكاهة عند نجيب محفوظ .
٣. عصير الشخصية المصرية .. قراءة في رباعيات صلاح جاهين .
٤. معجم اعلام نجيب محفوظ .. دراسة تحليلية .
٥. معجم اعلام " شقة الحرية " لغازى القصيبي .. دراسة تحليلية
٦. محمد ﷺ " فى عيون الأدب العربى .
٧. ٧جمال عبدالناصر في عيون الأدب العربى .

روايات :

٨- الصورة
٩- لمحات من حياة المواطن م . ب
١٠- أحلام سرية .

كتب أخرى :

١١- مأساة شهريار " مسرحية من فصل واحد "
١٢ - الحياة الجميلة " قصة للأطفال "

القرآن الكريم
فى أدب نجيب محفوظ

■ القرآن الكريم نور الحياة للبسطاء الذين لا ينشدون في حياتهم إلا الأمان والسلامة ويتطلعون إلى آخرتهم مسلحين بالإيمان والقرآن.

إن القرآن يصاحب المسلم ويسكنه، ولا يمر يوم في حياته إلا ويرتله في مناسبات مختلفة وفي صلاته المفروضة.

بالمحفوظ من القرآن يمارس بعض شخوص نجيب محفوظ تلاوة سرية باطنية تعبر عن درجة إيمانهم ومدى رغبتهم في التواصل الدائم مع القرآن.

في انتظار بداية العمل يقف جميل الحمزاوي، وكيل أحمد عبد الجواد في الدكان، تالياً ما يتيسر له من الآيات في صوت باطني غير مسموع دلت عليه حركة شفتيه المستمرة، ووسوسة خافتة تند من آن لآن عند أحرف السين والصاد «بين ـ ٣٦».

وفي انتظار جمع الأقساط الشهرية من الموظفين، يقف بائع السمن في قصة «دنيا الله» : وشفتاه تتحركان بتلاوة مستمرة «دنيا ـ ٨».

وعم عمارة الجعفري البواب في قصة «أمشير» يجلس عادة على أريكته أمام بوابة القصر : هادئ النظرة تتحرك شفتاة الغليظتان بتلاوة غير مسموعة «الشيطان ـ ٥٠».

وإذ يدعو نور الدين أمه كليلة الدمر، تأتيه عجوز متحركة الشفتين بتلاوة غير مسموعة «ليالي ـ ٩٧».

عامل في دكان وبائع متواضع وبواب سراي وامرأة عجوز متهالكة، جميعهم بسطاء المكانة الاجتماعية ويتمثل إيمانهم العفوي في التلاوة السرية التي تحقق لهم التواصل والتوازن مع الحياة المليئة بالتعب.

ولأن الصلاة لا تتم بغير قرآن، فإن الكثيرين يقتصرون في حفظهم على [illegible]صيرة التي يقيمون بها الصلاة.

في زيارة ا[illegible]ي يقوم بها أحمد عبدالجواد للمسجد الحسيني بعد شفائه من المرض، يتلو ما تيسر من السور القصار التي يحفظها «قصر ـ ٤٥٥».



دار الاحمدى للنشر